مُحاولاتٌ جديدةٌ في النّقدِ الإسلامي

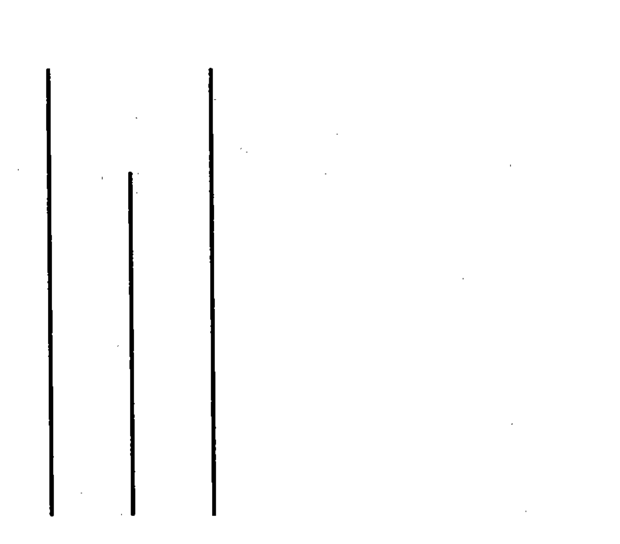
تأليف

الدكتور عماد الدّين خليل



دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم



محاولات جديدة في النقد الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق - بيروت

الرقم الدولي:

الموضوع : أدب

العنوان : محاولات جديدة في النقد الإسلامي

التأليف : الدكتور عماد الدين خليل

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 266

القياس : 22×15

نوع التجليد : غلاف

الوزن : 0.3 كغ

تصميم الغلاف : سامو برس - بيروت

التنفيذ الطباعي : مطبعة بشار الحلبي - دمشق

التجليد : مؤسسة حسين عبيدي للتجليد - دمشق



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي

ص.ب : 311 - هاتف : 2225877 - 2228450 - فاكس : 2243502

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 - تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

مقدمة

هذا هو الكتاب الرابع في ميدان النقد الإسلامي، رجوت أن أقطع به خطوات متواضعة أخرى في هذا الدرب الطويل.

مع الشعر والقصة هذه المرة..

ثمة محاولات متفرقة جمعها كتاب (في النقد الإسلامي المعاصر) تناولت فيها، تنظيراً وتطبيقاً، مسائل متنوعة عن المنهج والأسلوب المقارن وطرائق التعبير... عن المسرح والرواية والموسيقا والفنون التشكيلية...

أما الكتابان التاليان فقد اتجها إلى نوع من التخصص... حيث انصرف أحدهما، وهو (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر)[1]، إلى المسرح، ويمم الآخر، وهو (الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي)، صوب الفنون التشكيلية وبخاصة الرسم.

وها قد حان دور الأدب في مجالي الشعر والقصة.

تحليل لموقف الشعر العربي من الرؤية الإسلامية الجديدة... حديث عن الالتزام في شعر جلال الدين الرومي... قراءة في شعر الحسناوي... عرض للإسلامية في رواية (عمالقة الشمال)... تقديم لمجموعة قصصية باسم (حدث في شارع الحرية)... وتعريف بواحد من قصاصينا الشباب...

---

(١) كنت قد أصدرت كتاباً نقدياً صغيراً بعنوان (مشكلة القدر والحرية في المسرح الغربي المعاصر).. وهو لا يعدو أن يكون فصلاً في كتاب (فوضى العالم...) الذي صدر بعد ذلك بسنوات عن (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٨).

تلك هي المواضيع التي يتضمنها هذا الكتاب... وفيها ـ كما يلحظ القارئ ـ محاولة لتغطية زمنية لأنماط من معطيات الشعر بين القديم والوسيط والحديث... وفيها ـ كذلك ـ توزيع متعمد في مجال القصة ما بين الرواية والقصة القصيرة.

وهي جميعاً ليست سوى نماذج محدودة، تم التعامل النقدي معها من منظور إسلامي... وهي مجرد خطوات أخرى على الطريق... يسري عليها ما سرى على الكتب التي سبقتها... تجارب تضم في حناياها الخطأ والصواب... لكنها ـ على أية حال ـ محاولة مخلصة لإضافة موازين وقيم ورؤى نقدية إلى رصيد هذا الحقل؛ الذي يكاد أن يكون جديداً على الفكر والفن الإسلامي المعاصرين.

خطوات متعثرة في طريق طويل... ما أحرى المسلمين اليوم أن يواصلوا السير عليه، ولا بد أنهم بالغون نهايته في يوم من الأيام...

ومن الله ـ وحده ـ الرضا والقبول.

الموصل: عماد الدين خليل

الشعر العربي والرؤية الإسلامية الجديدة

١

ما أكثر ما يلح هذا السؤال في ذهن المسلم المعاصر: إذا كان الإسلام يطرح - من خلال قرآنه وسنة نبيه - رؤية جديدة للكون والعالم والحياة والإنسان. . . رؤية تجيء بمثابة انقلاب شامل على كل الرؤى المحدودة، والمواضعات البشرية القاصرة، والأعراف والقيم والتقاليد والممارسات المبعثرة الخاطئة. . . رؤية يبدأ انقلابها هذا في صميم الإنسان. . . في عقله وقلبه وروحه ووجدانه وغرائزه وميوله ونوازعه لكي تصوغه إنساناً جديداً، قديراً على تحقيق التغيير المطلوب في بنية العالم وصيرورة الحركة التاريخية. . . من أجل تمكين الجماعة المؤمنة من تسلم زمام القيادة والعودة بالتجربة البشرية إلى مجراها الأصيل المتوافق مع سنن الكون والعالم والحياة والإنسان. . .

فلماذا لم تنعكس هذه الرؤية الكبيرة الشاملة في معطيات المسلمين التعبيرية عبر أجيالهم الأولى، وهم ما هم عليه من إيمان جاد، والتزام عميق، وتمثل لهذه الرؤية، ما بلغت الأجيال التالية عشر معشارها؟

من أجل العثور على الجواب رجعت إلى هذه المعطيات في مظانها الأولى: دواوين شعر وتواريخ أدب. . . وقفت عندها وأطلت الوقوف. . . ساعات طويلة مع حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير والخنساء

وكعب بن مالك ولبيد بن ربيعة. . . مع ابن الأثير في أسد الغابة والأصفهاني في الأغاني والحصري في زهر الآداب والجمحي في طبقات الشعراء والضبي في المفضّليات وابن عبد ربه في العقد الفريد وقدامة بن جعفر في نقد الشعر وأبي تمام في الحماسة وابن رشيق في العمدة. . . وغير هؤلاء وهؤلاء. . .

ثمة لمحات كالبرق الخاطف تعكس الرؤية الجديدة الممتدة بلا حدود. . . ولا شيء وراء هذه اللمحات سوى ركام من الشعر يمثل امتداداً لعصور الجاهلية في (تكنيكه) وكثير من مضامينه. . . فإذا ما حاول تمثل المضامين الجديدة وما تفرضه من صيغ تكنيكية مختلفة لم يطق مجاوزة (القديم)، وبقي متشبثاً به يسير بمحاذاته، ربما خوفاً من السقوط في المجهول. . . وربما عدم تمكن من (تنفيذ) الرؤية الجديدة في مجرى العطاء الشعري. . . وربما. . . من يدري؟

هذا ما كان يحدث في العقود الأولى. . . تلك المرحلة التاريخية الخطيرة الحاسمة التي غيرت فيها طلائع الإسلام. . . العالم. . . عالم يتغير. . . بكل ما تحمله العبارة من ثقل وامتداد. . . ولكن الفن الذي يتوجب أن تنعكس عليه مجريات التغير الكبير لم يتحقق !!

وإذا كان شعراء الجيل المخضرم. . . جيل الانتقال بين الجاهلية والإسلام، غير قدير على تحقيق القفزة النوعية المنتظرة بسبب الإلف والاعتياد. . . فما بال الأجيال التالية التي ولدت ونشأت وعاشت في صميم التجربة الإسلامية؟ إنهم هم الآخرون كانوا يخطرون في محاذاة القديم. . . لم يجرؤ أحد منهم على القفزة التي ربما ما خطرت لهم على بال !!



احتمالات عديدة يمكن أن يفترضها الناقد الحديث لتقديم جواب مقنع قد تخطئ وقد تصيب، وقد ينضاف إليها فيما بعد. . . كما سبق وأن طرحت

احتمالات أخرى واحتمالات، أبرزها وأشملها ولا ريب تلك التي قدمها الأستاذ محمد قطب في كتابه (منهج الفن الإسلامي)[١].

ومن بين هذه الاحتمالات ـ كذلك ـ ما ذهب إليه عدد من الباحثين المعاصرين (الحاجري في تاريخ النقد والبهبيتي في تاريخ الشعر والبصير في عصر القرآن والكفراوي في الجمود والتطور وجورجي زيدان في تاريخ أدب اللغة العربية. . . وغيرهم) من (أن المسلمين انشغلوا بأمر الدين الجديد وانصرفوا إليه، واتكؤوا في ذلك على قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه) ويعقب ابن سلام الجمحي (فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته)[٢]. ويقول ابن خلدون في مقدمته (ثم انصرف العرب عن ذلك ـ أي عن الشعر ـ أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً. ثم استقر ذلك وأونس الرشد في الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي عليه السلام وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه)[٣]. . .[٤].

لكنا ـ تاريخياً ـ لا نجد فترة زمنية كف فيها الشعر عن العطاء، عبر عصر الرسالة منذ لحظاتها الأولى وحتى لحاق الرسول الكريم عليه السلام بالرفيق الأعلى، لكي نقول بأن المسلمين انشغلوا بأمر الدين الجديد فكفوا عن قول الشعر. . . والأحداث الكبيرة لا تلهي الشعراء وتشغلهم، ولكنها تشدهم وتبهرهم فيزدادون تدفقاً. . . ثم إن المسألة ليست مسألة توقف زمني

(١) المقدمة ص ٧ـ١٣ (الطبعة الأولى، دار القلم، القاهرة).
(٢) طبقات الشعراء ص٢٢ (طبعة دار المعارف بمصر).
(٣) المقدمة ص ٥٨١ (الطبعة الثالثة، نهضة مصر).
(٤) د. يحيى الجبوري: الإسلام والشعر ص٣٠ـ٣١ (مكتبة النهضة، بغداد ـ ١٩٦٤).

عن العطاء الشعري، ولكنها معضلة شعر يعاني من الهزال والهبوط الفني ظل يقال، عبر لحظات الصراع المحتشدة، وعبر ساعات السلم الهنيئة ـ على السواء ـ دون أن يكون، إلا نادراً، بمستوى ما تتطلبه هذه اللحظات من إبداع . . .

ومن بين الاحتمالات ـ كذلك ـ (أن الإسلام حرم أكثر الأعمال التي يجود فيها الشعر، وتنشط القرائح، كذكر الخمر ومغازلة المرأة، وإثارة الضغائن والأحقاد والثأر . . . وقد تغيرت الحياة العامة ومثلها، وتغيرت ـ تبعاً لذلك ـ الدوافع التي بها ينشط الشعر ويتشجع الشعراء، فالإكرام والتشجيع الذي كان يلقاه الشعراء من الملوك وأصحاب الثراء والسلطان قد حل محله زجر عمر (رضي الله عنه) عن المديح الكاذب، والقول الذي يثير الحفائظ ويمس أعراض الناس)[١].

ويتهافت هذا الاحتمال، بشقيه، بمجرد أن نتذكر كيف أن الإسلام، إذ سد نوافذ تتلقى منها شرايين الشعر الدم الأزرق الفاسد فتتدفّق بالزيف والخديعة والكذب وتنفث نفسها المحترق ضد الإنسان وقيم الإنسان. . . الإسلام إذ سد هذه النوافذ فتح ـ في المقابل ـ أبواباً عريضة واسعة على مصاريعها، فتدفق عبرها الدم النقي القاني إلى رئات لو عرفت كيف تتمثل الدم الجديد الصافي لحلقت في السموات بألف جناح، ولذهبت إلى آفاق بعيدة نائية ما حلم بها يوماً شاعر من الشعراء أو فنان من الفنانين. . .

أما زجر المديح الكاذب وإرغام قائليه على الكف عن تزيينه شعراً. . . فثمة ما يقابله ـ كذلك ـ في قيم الإيجاب: إعجاب الرسول عليه السلام

(١) الجبوري: المرجع السابق ص٣١ـ٣٢ وانظر بالتفصيل: ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/٣٤٦ (طبعة البجاوي ـ مصر)، المرزباني: الموشح ص٦٤ـ٦٥ (طبعة السلفية ـ مصر)، ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص١٧٠ (طبعة لندن).

وخلفائه الكرام رضي الله عنهم بكل قول جميل يتدفق صدقاً وعفوية وصفاء.. واحتضانهم لكل شاعر يرفض الزيف والتزوير والكذب... يتجاوزها إلى معانقة القيم الجادة العميقة، التي بشر بها الدين الجديد لصالح الإنسان و (تعبيره)... على السواء... والوقائع كثيرة معروفة، وليس من ضرورة ـ حتى ـ للإشارة إليها...

وثمة ما يقوله الأستاذ خلف الله في (دراسات في الأدب الإسلامي)[1] من أن (الناحية الروحية في الإسلام لم تزل إذ ذاك ـ أي في عهد الرسالة ـ في مستهلها، ولم تكن قد نفذت بعد إلى قلوب المسلمين في شكل قوي ملهم يفجر ينابيع الفن الرفيع)...

فأما أن الروحية الإسلامية لم تنفذ، زمن الرسول عليه السلام، إلى قلوب المسلمين، فذلك أمر مردود جملة وتفصيلاً.

على العكس تماماً... لقد نفذت هذه الروح إلى الأعماق، كما لم تنفذ ولن تنفذ في قلب أمة من الناس، في عصر من العصور !! نفذت إلى الأعماق فأعادت خلقهم من جديد... بعثتهم أمة جديدة، بعد أن هزتهم هزتها المعروفة تلك، فغيروا تاريخ العالم وصاغوا خرائطه الجديدة... إننا إزاء أمة أخرجها الإسلام من الظلمات إلى النور، فصنعت ما صنعت... رجال كان كل واحد منهم قرآناً يمشي على الأرض... بإزاء تقابل فاعل خلاق بين العقيدة الجديدة والجيل الذي حملها، حيث تسقط كل مقولة بصدد تواجد قدر من عدم التطابق بين المثل والقيم التي طرحتها هذه العقيدة، وبين الجماعة التي قبلتها والتزمتها...

لم تنفذ! إذاً ما الذي صنعه جيل الرواد، أصحاب محمد عليه السلام؛ وكيف صنعوه؟

---

(١) ص٤٧ (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ـ ١٩٤٧).

وإما أن هذه الروح لم تنفذ إلى قلوب شعراء الجبهة الإسلامية على وجهة التحديد؛ فإن علينا أن نتريث قليلاً قبل أن نعطي الجواب بلا... أو نعم...

هل إن الرؤية الإسلامية الجديدة لم تكن قديرة على أن تنطبع في ذهن الشاعر وضميره ووجدانه؟ هل إن الشاعر المسلم كان غير قادر على تلقي الرؤية الجديدة وهضمها وتمثلها؟... إنه إذا تمنعت قلوب بعض الشعراء المسلمين على (التجربة) ولم تفتح لها الأبواب لكي تنفذ إلى الأعماق... لسبب أو آخر.. فإن عدداً آخر تعاملوا معها حتى آخر قطرة من دمهم ووجدانهم... وكانوا يتحركون بحسهم الجديد في قلب المعركة، ويسهمون في تحقيق العالم الجديد الذي رجوه وتمنوه... ويستشهدون... لكن ذلك لم يصنع (الشعر) الذي يوازي بإيقاعه إيقاع الحركة الكبيرة، ويعبر عنها، ويكون بحجمها... عملاقاً، كما هي عملاقة...

هل إن المعضلة تكمن في عدم وجود عدد من الشعراء الكبار في صف الحركة الإسلامية، قديرين على تمثل مطالب الحركة التصورية، والتعبير عنها بالقوة والعمق والامتداد الموازي للحركة والآفاق؟

كلا !! لأن عدداً من شعراء الجاهلية الكبار، لما انتقلوا إلى الإسلام عجزوا هم الآخرون عن أداء المهمة المرتجاة وتنفيذ شعر إسلامي متميز أصيل... ومع ذلك فلا بد أن نبقي احتمالاً كهذا في الحسبان، أو على هامش الحسبان، إذا ما توخينا الإحاطة بكل عوامل (المعضلة) صغيرها وكبيرها... فلو أن عدداً من الشعراء الكبار من حجم زهير بن أبي سلمى، وامرئ القيس، والنابغة الذبياني، وعنترة العبسي، وطرفة بن العبد... إلى آخره... كانوا يعملون في قلب الحركة الإسلامية لكنا ـ ربما ـ عثرنا على قدرة أكثر ـ كماً ونوعاً ـ على الاقتراب من رؤى الإسلام وآفاقه وتصوراته

الشاملة... لكن المسافة ستظل ـ يقيناً ـ واسعة، والهوة عميقة... إذ ليس بمقدور أي من هؤلاء جميعاً أن يقفز في لحظة قصيرة في حساب الزمن الإبداعي ذي التقاليد طويلة الأمد لإبداع تقليد شعري جديد...

ومردود ـ كذلك ـ القول بأن الإسلام وقف في (تضاد) مع الشعر، وأن هذا الموقف بالذات هو الذي يفسر انتكاسة الشعر العربي، إذا صح التعبير... إنها مقولة لا تقبل أبداً... لأنها تخرج عن دائرة القناعة منذ اللحظة الأولى... فالذي حدث هو عكس هذا تماماً ـ كما رأينا ـ... نفخ في قريحة الشعراء أن يزدادوا تدفقاً وعطاءً... وأكّد في القرآن الكريم على (قيمة) الشعر الملتزم... الشعر المؤمن المقاتل... ومواقف الرسول عليه السلام مع الشعراء الذين انتموا إلى صف الإسلام ونافحوا دونه بكلماتهم تنفي هذه المقولة... تلغيها... وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه السلام بنى لحسان بن ثابت في مسجد المدينة منبراً ينشد عليه!![1]..

ثم إن العطاء الشعري يومها لم يكن يعاني من قلة على مستوى الكم، ولكنه كان يعاني ـ كما رأينا ـ من عدم قدرة على القفزة النوعية المطلوبة... وأياً ما كان الأمر فإن مناقشة المقولة آنفة الذكر تغدو عبثاً لا طائل تحته...

٣

إن المعضلة ـ فيما يبدو ـ محدودة في نطاق الفن عموماً والشعر على وجه الخصوص... ما الذي أقعد الشاعر المسلم عن اللحاق بركب الحركة

(١) ابن رشيق: العمدة ١/ ٧٣.

الإسلامية وهي تذرع العالم لصياغته من جديد؟ ما الذي أعجزه عن تغطية صيرورتها الواقعة وأهدافها التي تركض إليها بسرعة أذهلت العالمين؟

أغلب الظن أن (الخلل) يتوجب البحث عنه في صميم العملية الشعرية نفسها، وفي علاقتها الجدلية بالزمن من حيث إنها عملية دينامية متطورة يزيدها مرور الزمن نمواً وازدهاراً بما يضيفه إليها من خبرات وتجارب على مستوى الأشكال والمضامين والاستشراف النقدي جميعاً...

فلو افترضنا أن الإسلام تنزل ـ على سبيل المثال ـ في إحدى العصور العباسية في العراق أو الإسلامية في الأندلس، لعثرنا ـ يقيناً ـ على حشد من الشعراء القديرين على تمثل التجربة والتعبير عنها بمعطيات شعرية أكثر عمقاً وحيوية ونضجاً على مستوى الشكل والمضمون... لأن العملية الشعرية كانت يومها قد بلغت، بحكم التطور الدينامي، وتراكم الخبرات الفنية والثقافية، حداً طيباً من العمق والحيوية والنضج...

أما وقد تنزل في بيئة لم يكن الشعر فيها ـ على أصالته وقوة إمكاناته البنائية ـ بقادر على تجاوز القيود التي كان قد اختارها لعدة قرون... قيود المعاني والأشكال... فإن من غير المعقول أن نطالب الشعراء يومها بتحقيق المعجزة بين يوم وليلة... وإنه لا بد من فترة زمنية تحل فيها المعضلة، وتقود العملية الدينامية لتطور الفن الشعري، إلى تمكين الشعر من التعبير عن المطالب التصورية والحركية للدين الجديد، واستشراف آفاقه التي ما لها من حدود...

إن العملية الشعرية في القرن العشرين، وما واكبها من معطيات ونظريات نقدية وفلسفات جمالية، هي غيرها في القرن العاشر... إنها غدت ولا ريب أكثر عمقاً واستشرافاً ووعياً بطبيعة العملية عما كانت عليه يومها... قد يسيء شاعر أو اثنان أو عشرة أو عشرون استخدام هذه الإمكانات

الكبيرة لدينامية العملية الشعرية... وقد يكون شاعر أو اثنان أو عشرة أو عشرون، في القرن العاشر، أكثر قدرة على الإبداع من رفاقهم بعد عشرة قرون.. إلا أن القاعدة تبقى هي القاعدة.. إن العملية الشعرية في القرن العشرين، شكلاً ومضموناً، وبطانتها النقدية والفلسفية، غدت أكثر نضجاً بكثير مما كانت عليه في القرن العاشر...

وهذا يتيح للشاعر الحديث، إذا ما تهيأت له أسباب التمكن من ناصية الإبداع الشعري، أن يكون في القرن العشرين أكثر قدرة (تعبيرية) على تغطية مطالب الرؤية الإسلامية من سلفه في القرن العاشر، ويتيح للشاعر في عصر عباسي أو أندلسي أن يكون أقدر على التنفيذ الملتزم من سلفه في عصر نبوي أو راشدي أو أموي... وشتان - على سبيل المثال - بين شاعر كجلال الدين الرومي. وآخر كحسان بن ثابت...

لا يستطيع أحد أن يقول بأن حسان لم يكن يريد اللحاق (الفني) بمسيرة الحركة الإسلامية... إنه كان يتحرق شوقاً لذلك... ولم تكن قدراته الشخصية وحدها هي العائق، بل كان هنالك ما هو أكبر منها: طبيعة العملية الشعرية يومها من حيث إنها كانت امتداداً لتأثيرات زمنية عمرها عشرات القرون كانت تحتم على الشعر أن يتحرك في مسار محدد شكلاً ومضموناً... وكان لا بد من مرور عشرات السنين لكي تجد العملية الشعرية نفسها تنطلق في مسارات جديدة... ولو بعث حسان بن ثابت يومها لكان أقرب إلى روح التجربة الجديدة، وأقدر على التعبير عن مثلها ومطامحها وأحلامها وأمانيها... وبالمقابل فلو وجد جلال الدين الرومي نفسه في تلك (البيئة) لما تدفقت (مثنوياته) كالشلال ملئ حيوية... وغنى... وعطاءً...

هذا على مستوى تطور العملية الشعرية عامة، وارتباطها العميق بالزمن... أي بتراكم الخبرة، وصيرورتها، وتحررها...

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. . . إن هناك مسألة (خاصة) تنبثق عن هذه المقولة، وتسلط المزيد من الأضواء على المعضلة التي بين أيدينا. . . تلك هي مسألة الالتزام. . . إنها هي الأخرى ترتبط بالزمن، وبتراكم الخبرة، وبالتحرر. . . تبدأ هشة، بسيطة، مسطحة. . . وبمرور الزمن تزداد قوة، وامتداداً، وعمقاً. . . تمارس في البدء قدراً كبيراً من المباشرة والتقريرية، ثم ما تلبث أن تتجاوزها، بمرور الزمن، وبتراكم الخبرات، وبازدياد الوعي الفني بين الذات والموضوع، صوب نوع من (التعبيرية) التي لا تصف الموضوع وصفاً شيئياً تقريرياً من الخارج. . . بل تدعه يصف نفسه بتفجير موحياته، وإثارة التداعيات المستمرة بينه وبين الذات، مبدعة كانت أم متلقية. . .

وما أكثر التجارب العقائدية التي بدا التعامل الفني معها بداية هشة مسطحة. ثم إذا بالعلاقة تتجاوز، بمرور الزمن، هذا الموقف إلى مواقع أكثر أصالة وعمقاً وإبداعاً. . . إن الشعراء الرواد لأية عقيدة أو فكرة في التاريخ ليسوا ـ في الأعم الأغلب ـ كشعرائها التالين. . . أولئك لهم سبق الريادة وفضلها، ولكن هؤلاء لهم فضل التألق بالتعبير والارتفاع به إلى قمم عليا. . .

قد تكون للأفكار في بدء التجربة ضرورات تاريخية تدفع المنتمين إليها، فنانين وغير فنانين، إلى التعامل المباشر معها من أجل تمكينها في الأرض وحمايتها بالنفس والنفيس. . . ليس ثمة وقت للمداورة والمناورة. . . ليس ثمة وقت للتحسين الجمالي الذي يبدو يومها أشبه بالكماليات، إزاء ضرورات تحتم ـ حتى على الشعراء ـ أن يلقوا بكل ثقلهم، وبشكل مباشر، في ميدان المعركة من أجل تحقيق الانتصار للكلمة التي آمنوا بها. . . والجماليات قد تأتي فيما بعد، يوم أن تضرب العقيدة جذورها في الأرض، ويوم يتاح للفنان من الوقت والاستقرار ما يمكنه من تجاوز المباشر إلى ما

ورائه بحثاً عن التعبير الأكثر نأياً وبعداً... التعبير الذي يتجاوز طرح المعاني المباشرة التي اقتضتها الضرورات التاريخية الأولى، إلى القيم البعيدة التي تتيحها لحظات الازدهار والاستقرار...

وهنا ـ أيضاً ـ قد يبرز شاعر أو اثنان أو عشرون... يضربون القاعدة ويتعاملون مع العقيدة الجديدة تعاملاً جمالياً بعيداً عن المباشرة والضرورات العملية ـ إذا صح التعبير ـ كما قد يبرز شعراء في عصور الازدهار، يرجعون القهقرى، فيتعاملون بالمباشرة والتقريرية مع عقيدة كانت قد استقرت في الأرض والنفس وآتت ثمارها... ولكن القاعدة تبقى هي القاعدة... ومن ثم فلا يقاس بالاستثناء...

٤

لكن القول بدينامية العملية الشعرية لا يمثل الحقيقة كلها... ونحن نرفض رفضاً قاطعاً ذلك الخطأ (المنهجي) الذي يأخذ بتلابيب العقل الغربي ويقوده في كثير من الأحيان إلى البوار: التشبث المتشنج بالتفسير الأحادي الذي يعجز عن إضاءة جوانب الحقيقة كلها... وتبقى الجوانب الأخرى هذه بحاجة إلى مزيد من التفاسير والمحاولات من أجل أن يصلها الشعاع...

هاهنا، بصدد دينامية العملية الشعرية، نجد أنفسنا مقاطعين بحقيقة لا تقل ثقلاً وأهمية في ميدان الخلق الفني... إن ظهور بعض العبقريات الفنية العملاقة، الكبار... يند عن حكم الزمن، وتراكم الخبرات، ومعطيات التطور... فقد يظهر في عصر (سابق) شاعر، أو مجموعة شعراء كبار يملؤون الدنيا ويشغلون الناس... وفي عصر (تال) عبثاً نحاول العثور على واحد فحسب يسامت أولئك الكبار، (في المرحلة الزمنية التي نعالجها يجمع النقد ومؤرخو الأدب على تواجد عدد غير قليل من فحول الشعراء في الجاهلية، ثم تناقصهم في صدر الإسلام، وعودتهم إلى الظهور في العصور التالية)...

لماذا هذه الظاهرة؟ ربما لأن الأرضية الحضارية عموماً، والثقافة على وجه الخصوص، أتاحت لهم الظهور والتعدد في الأولى، ولم تتح لهم ذلك في الثانية... ربما لأن تقليداً ثقافياً أو فنياً، يجعل العصر (السابق) أحفل بالإبداع الفني، وفي عصر تال يبتلى بالنضوب، ربما لأن ظهور شاعر أو فنان عملاق يمثل تحدياً للقرائح والعقول فتتحرك للاستجابة، فيكون الشاعران والثلاثة والعشرة الكبار... وينعدم التحدي في عصر آخر فلا يستجيب أحد... وربما... وربما... والمهم هو أنه ليس شرطاً أن يظل العمل الفني صاعداً على المنحنى صوب القمة، بمرور الزمن... فثمة انتكاسات... وثمة معطيات عكسية لا تخلو منها حضارة من الحضارات...

فمع الدينامية، وما تعد به من نضج وتقدم واكتمال، بمرور الزمن، هنالك حتميات النمو الحضاري، والمعطيات الثقافية، والتقاليد الاجتماعية والنفسية، وهنالك أيضاً الإيماضات الميتافيزيقية التي تكمن خلف العمل الحضاري فتمنحه القدرة على الفعل والتشكل، بهذه الطريقة والصيغة، أو تلك...

ولا بد من أن نأخذ بكلتا الإنارتين إذا ما أردنا فهماً أعمق للمعضلة!

هنالك ـ أيضاً ـ إنارة أخرى قد تمنحنا قدراً أكبر من الفهم للمشكلة، تلك هي غياب أو تسطح الرؤية النقدية التي تمثل البطانة، كحقيقة للإبداع الفني... والتحدي الذي يبعث الاستجابات الكبيرة التي تصنع العمل الكبير.

وما من شك في أن الخبرة النقدية أكثر ارتباطاً بحتميات التطور الزمني، وتراكم التجربة، من العمل الإبداعي نفسه... فها هنا، وكما رأينا قبل قليل، قد تقطع العبقرية الفنية حكم الزمن... تند عن تسلسله الرياضي الصارم، فتبرز في فترات مبكرة وتغور وتختفي في فترات متقدمة. أما الخبرة النقدية فهي وليدة النمو الزمني والتطور الثقافي، لأنها عملية معرفية

محددة قد تلجأ إلى الذوق والوجدان وتتجاوز المنظور والملموس، ولكنها تبقى أكثر تحديداً واعتماداً على المعطيات المتطورة من العمل الإبداعي.

ومن ذا يرفض القول بأن الوعي النقدي في القرن العشرين قد بلغ حداً من النضج والتكامل والاتساع ما بلغ في القرون الأولى عشر معشارها.

إن الحديث عن الالتزام والموقف الإبداعي، هو جزء أساسي من الوعي النقدي والرؤية النقدية. ومن ثم نتوقع كيف أنه في العصر الذي نتحدث عنه لم تكن هناك قاعدة تصورية واضحة، تقود الحركة الشعرية إلى طرائق عليا من التعامل المبدع الملتزم مع العقيدة الجديدة.. . ما كان هنالك وعي نقدي يتحدى الإبداع ويتطلب منه أن يستجيب.

لم تكن العملية النقدية يومها بأكثر من استجابة وجدانية موقوتة تتخللها بعض إيماضات فكرية تضبط الحكم بالمعايير الجديدة التي جاء بها الدين الجديد.. إما أن تكون هنالك رؤية نقدية شاملة، أو وعي نقدي متكامل، فإننا سنكون مخطئين لو تطلبنا ذلك... وإنه لمن الخطأ المنهجي الذي تعانيه بعض النظريات الحديثة في شتى المناحي الفكرية والثقافية، أن نمارس عملية إسقاط لمعطيات بعدية على (القبليات)... أن نرغم القرن الأول أو الثاني أو السابع الميلادي على أن يتصادى مع القرن التاسع عشر والعشرين، وأن يتقبل معطياته، فكأنه والقرن العشرين سواء !

٥

هل ثمة احتمالات أخرى تعين على تسليط مزيد من الضوء؟ نعم... إنها مسألة أكثر (خصوصية) من الاحتمالات السابقة... إنه القرآن!!

لقد بهرت كلمات الله، وآياته المعجزة، عقول العرب وقلوبهم، قدمت لهم مثلاً أعلى في جمالية التعبير ما كان يخطر لهم على بال... وكيف

يخطر لهم على بال، وهو من عطاء الله الذي لو كان البحر مداداً لكلماته، والبحر يمده من ورائه سبعة أبحر، ما نفدت كلماته.

وثمة روايات عديدة ما هذا مكان سردها، تبين لنا كيف شده العرب، فتجاوزوا مرحلة الإعجاب أو الانبهار إلى ما وراء ذلك، وهم يستمعون لكلمات الله التي قادت فريقاً منهم إلى مواقع الإيمان، وفريقاً آخر إلى مواقع العناد والإصرار...

لقد استلب القرآن ألبابهم، وإن في الأمر لبعداً نفسياً قد يكون واحداً من الأسباب التي أعجزت الشعراء الرواد عن أن يكونوا على مستوى العقيدة الجديدة... لقد أصبحوا يحسون أنهم دون هذا التعبير القرآني بكثير... إنهم يتحركون على السفح، والقرآن يتشكل في القمة... واللغة هي اللغة، والأحرف هي الأحرف... ح. م. ي. س. ط. هـ. ك. هـ. ي. ع. ص. ولكن شتان... شتان بين صناعة الله جل في علاه وبين صناعة المخاليق... لعله نوع من الإحساس بالعجز؟ لعله نوع من اليأس والاستسلام؟ لعله نوع من الخجل والحياء؟ لعله نوع من الإحباط؟ مهما يكن من أمر فإن الشعراء الرواد في لحظات الانبهار ما كان بمقدورهم إلا أن ينساقوا وراء هذا (التأثير) النفسي الجارف...

فلما بعدت الأجيال التالية عن لحظات الانبهار، حيث كان القرآن الكريم يتنزل لوقته تنزيلاً، وعادت لكي تتعامل مع كلمات الله تعاملاً يتميز بانفصال أكثر من ذي قبل، لأسباب بعضها سلبي وبعضها إيجابي، كان بمقدور الشعراء أن يتمثلوا (التجربة)، وأن يصوغوها أداءً أكثر (فنية) من ذي قبل، وأكثر بهاءً وجمالاً...

إنها مجرد احتمالات فحسب، احتمالات تقوم على التخمين الذي قد يتأكد وقد يبقى ظناً... وإلا فبماذا نفسر عجز الشعر الإسلامي يومها،

ولنقلها بصراحة، عن أن يكون عملاقاً. . . عملاقاً على مستوى التجربة التي كان يعايشها، ويتشكل معها، ويعبر عنها؟

٦

ومع ذلك. . . فثمة لمحات منحنا إياها هذا الشاعر أو ذاك، نستذوق فيها بعضاً مما جاء به الدين الجديد. . . لمحات تكسب قيمتها من قدرتها على تجاوز التقليد الشعري الراهن، والطموح، المحدود بطبيعة الحال، إلى ملامسة معطيات الدين الجديد. . . ولكنها ـ على أية حال ـ تبقى استثناء من قاعدة، ولمن يريد التثبت أن يرجع إلى دواوين الشعراء المسلمين الأوائل فيقرأ فيها. . .

إنه حتى هذه النماذج التي سيطلع عليها القارئ، والتي انتقيناها بعناية، لا يمكن أن تكون أبداً بحجم الرؤية التي طرحها هذا الدين. . . تبقى دونها بكثير. . . تعاني من الهبوط الشعري ـ إذا صح التعبير ـ والمباشرة والوعظية. . وبإحالتها على ما قدمته الأجيال التالية من عطاء شعري. . . بمقارنتها بذلك السيل المتألق. . . يبدو البون شاسعاً. . . بعيداً. . .

لنقرأ ـ أولاً ـ بعضاً من هذه النماذج، ولنواصل ـ من ثم ـ رحلتنا المسرعة باتجاه الزمن التالي. . .

حسان بن ثابت وهو يصف الرسول عليه السلام:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

❁ ❁ ❁

متى يبد في الداجي البهيم جبينه يلح مثل مصباح الدجى المتوقد

فمن كان؟ أو من ذا يكون كأحمد   نظام لحق أو نكال... لملحد

ويتصدى للزبرقان بن بدر، شاعر تميم، بطلب من الرسول عليه السلام ذاك يتحدث عن مفاخر القبيلة (القديمة)، وهذا يعارضه بقيم وأمجاد الأمة (الجديدة):

إن الذوائب من فهر وإخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته   تقوى الإله، وبالأمر الذي شرعوا
سجية تلك منهم غير محدثة   إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم   عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهم   فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
ولا يضنون عن مولى بفضلهم   ولا يصيبهم في مطمع طبع[1]
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم   في فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم   لا يطبعون ولا يرديهم الطمع
كم من صديق لهم نالوا كرامته   ومن عدو عليهم جاهد جدعوا
أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم   فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم   أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم   أهل الصليب ومن كانت له البيع
خذ منهم ما أتى عضواً إذا غضبوا   ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم ـ فاترك عداوتهم ـ   شراً يخاض عليه الصاب والسلع[2]

---

(١) الطبع: الدنس.
(٢) السلع: نبات مسموم.

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
أكرم بقول رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمعوا(١)

ويرثي شهداء المسلمين في معركة بني قريظة:

تذكرت عصراً قد مضى فتهافتت ... بنات الحشى وانهل مني المدامع
صبابة وجد ذكرتني أحبة ... وقتلى مضى فيها طفيل ورافع
وسعد، فأضحوا في الجنان وأوحشت ... منازلهم، فالأرض منهم بلاقع
وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم ... ظلال المنايا والسيوف اللوامع
دعا فأجابوه بحق... وكلهم ... مطيع له في كل أمر سامع
فما نكلوا حتى تولوا جماعة ... ولا يقطع الآجال إلا المصارع
لأنهم يرجون منه شفاعة ... إذا لم يكن إلا النبيون شافع

ويتحدث عن (بدر) مستلهماً آيات من كتاب الله:

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
دلّاهم بغرور ثم أسلمهم ... إن الخبيث لمن والاه غرار(٢)
وقال: إني لكم جار فأوردهم ... شر الموارد فيه الخزي والعار

وعبد الله بن رواحة يخاطب نفسه في معركة مؤتة، وقد تسلم الراية بعد استشهاد رفيقيه: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب (رضي الله عنهم).

---

(١) شمعوا: هزلوا.
(٢) الضمير هنا للشيطان.

يخاطب نفسه مستجيشاً فيها الأقدام والفدائية بمواجهة الموت المحتوم، بعد تردد وخوف!!

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... طائعة أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه[1] ... ما لي أراك تكرهين الجنه؟
وطالما قد كنت مطمئنه ... هل أنت إلا نطفة في شنه[2]؟

❊ ❊ ❊

هل أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لاقيت؟
يا نفس ألا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت
وإن تأخرت ... فقد شقيت

وينشد وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله عليه السلام يطوف بالبيت في عمرة القضاء:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير مع رسوله
نحن ضربناكم على تأويله ... كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله
يارب إني مؤمن بقيله

ويرتجز أبياتاً تصبح نشيد المسلمين في محنة الخندق، وهم يحفرون الأرض وينقلون التراب:

تالله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

---

(١) الرنة: صيحة الحرب.
(٢) الشنة: القربة الصغيرة.

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ويصف رسول الله ﷺ:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات إن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع
واعلم علماً، ليس بالظن، إنني إلى الله محشور هناك وراجع !!

وينشده:

إني تغرست فيك الخير أعرفه والله يعلم أن ما خانني البصر
أنت النبي، ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرت به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

وكعب بن مالك يتحدث عن يوم بدر:

عجبت لأمر الله والله قادر على ما أراد، ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشراً بغوا، وسبيل البغي بالناس جائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره وأن رسول الله بالحق ظاهر
وكان رسول الله قد قال أقبلوا فولوا وقالوا: إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حمه الله زاجر !!

وعن محنة الخندق:

وسائلة تسائل ما لقينا ولو شهدت رأتنا صابرينا

صبرنا، لا نرى لله عدلاً ... على ما نابنا متوكلينا

وكان لنا النبي وزير صدق ... به نعلو البرية أجمعينا

نقاتل معشراً ظلموا وعقوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا

كما قد ردكم فلا شريداً ... بغيضكم خزايا خائبينا

خزايا لم تنالوا - ثم - خيراً ... وكدتم أن تكونوا دامرينا

ويلخص إحدى المهمات الصعبة التي نفذها الرسول عليه السلام ببيت واحد:

لم الإله به شعثاً ورم به ... أمور أمته والأمر منتشر

وكعب بن زهير ينشد عليه السلام ويصف أصحابه في (لاميته) الشهيرة:

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

في فتية من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا: زولوا

زالوا فما زال أنكاس[1] ولا كشف[2] ... عند اللقاء، ولا خور معازيل[3]

وصرمة بن قيس يؤرخ لدور الأنصار في التمكين للدعوة الجديدة:

تولى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر، لو يلفي صديقاً مواتيا

ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوي، ولم ير داعيا

فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسروراً بطيبة راضيا

وأصبح ما يخشى ظلامة ظالم ... بعيداً ولا يخشى من الناس باغيا

(١) الأنكاس: الضعفاء.

(٢) الكشف: الذين ينكشفون عند اللقاء.

(٣) المعازيل: الذين لايملكون سلاحاً.

بذلنا له الأموال من جل مالنا   وأنفسنا، عند الوغى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم   جميعاً، وإن كان الحبيب المواتيا
ونعلم أن الله لا شيء غيره   وأن كتاب الله أصبح هاديا

وخبيب يقبل على الشهادة بصدر رحب، ويصف الدقائق التي سبقت إعدامه على أيدي المشركين... صورة صادقة من صور إباء المسلم وعدم اكتراثه للموت... في كل مكان وزمان... وأبيات ظل يرددها شهداء الحركة الإسلامية عبر المكان والزمان:

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا   قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم   وقربت من جذع طويل ممنع
وكلهم يبدي العداوة جاهداً   علي، لأني في وثاق بمضيع
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي   وما جمع الأحزاب لي عند مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزع
وقد عرضوا بالكفر والموت دونه   وقد ذرفت عيناي من غير مدمع
وما بي حذار الموت، إني لميت   ولكن حذاري حر نار تلفع
فلست بمبد للعدو تخشعاً   ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي
ولست أبالي حين أقتل مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي!

وأبو سفيان بن الحارث يعبر عن إحساسه بمصيبة وفاة الرسول عليه السلام:

لقد عظمت مصيبتنا وجلت   عشية قد قيل قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها   تكاد بنا جوانبها تميل !!
فقدنا الوحي والتنزيل فينا   يروح به ويغدو جبرئيل

وذاك أحق ما سالت عليه   نفوس الناس أو كادت تسيل

وعامر بن الطفيل يشير ببيتين، وهو يرثي الرسول عليه السلام، إلى دوره الكبير:

بكت الأرض والسماء على النو   ر الذي كان للعباد سراجا

من هدينا به إلى سبل الحـ   ـق وكنا لا نعرف المنهاجا

ولبيد بن ربيعة العامري يذكر طول عمره وسأمه من الحياة، وإن الموت آت لا ريب فيه:

قضي الأمر وأنجز الموعود   والله ربي ماجد محمود

وله الفواضل والنوافل والعلى   وله أثيث الخير والمعدود

ولقد بلت أرم وعاد كيده   ولقد بلته، بعد ذاك، ثمود

خلوا ثيابهم على عوراتهم   فهم بأفنية البيوت همود

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيد؟

وفي قصيدة أخرى يطرح هذه التأملات الإيمانية ذات النفس الشعري الدافئ العميق:

إنما يحفظ التقى الأبرار   وإلى الله يستقر القرار

وإلى الله ترجعون وعند اللـ   ـه ورد الأمور والإصدار

كل شيء أحصى كتاباً وعلماً   ولديه تجلت الأسرار

إن يكن في الحياة خير فقد أنـ   ـظرت لو كان ينفع الإنظار

عشت دهراً، ولا يدوم على الأيا   م إلا يلملم... وتعار[١]

(١) يلملم وتعار: أسماء جبال.

والنجوم التي تتابع بالليـ ل وفيها ذات اليمين ازورار
دائب مورها، ويصرفها الغو ر، كما تعطف الهجان الظؤار(١)
ثم يعمى إذا خفين علينا أطوال أمراسها أم قصار؟
هلكت عامر فلم يبق منها برياض الأعراف إلا الديار
فعلى عامر سلام وحمد حيث حلوا من البلاد وساروا

وتأملات أخرى يطرحها في قصيدة ثالثة:

لله نافلة الأجل الأفضل وله العلى وأثيث كل مؤثل
لا يستطيع الناس محو كتابه أنى؟ وليس قضاؤه بمبدل
سوى فأغلق دون غرة عرشه سبعاً طباقاً فوق فرع المنقل(٢)
والأرض تحتهم مهاداً راسياً ثبتت خوالقها بصم الجندل(٣)
والماء والنيران من آياته فيهن موعظة لمن لم يجهل
بل كل سعيك باطل إلا التقى فإذا انقضى شيء كأن لم يفعل

وفي قصيدة أخرى يعود لبيد إلى القضايا الكبرى نفسها: الحياة والموت والقضاء والقدر، والسعي البشري والمصير... وهو على عتبات الإسلام يرثي أخاه، والقصيدة لا تقل انسيابية غنائية، ودفئاً وجدانياً عن رائيته السابقة:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا، والمصانع

(١) الهجان الظؤار: الإبل التي تعطف على غير ولدها.
(٢) المنقل: ظهر الجبل.
(٣) الخوالق: الجبال الجرداء.

وقد كنت في أكناف جار مظنة ... ففارقني جار بأربد نافع

فلا جزع إن فرق الدهر بيننا ... وكل فتى يوماً به الدهر راجع

فلا أنا يأتيني طريف بفرحة ... ولا أنا مما أحدث الدهر جازع

وما الناس إلا كالديار وأهلها ... بها يوم حلوها وغدواً بلاقع

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يمور رماداً بعد إذ هو ساطع

وما البر إلا مضمرات من التقى ... وما المال إلا معمرات ودائع

وما المال والأهلون إلا وديعة ... ولا بد يوماً أن ترد الودائع

ويمضون أرسالاً ونخلف بعدهم ... كما ضم أخرى التاليات المشايع[1]

وما الناس إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبني وآخر رافع

فمنهم سعيد آخذ لنصيبه ... ومنهم شقي بالمعيشة قانع

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع؟

أخبر أخبار القرون التي مضت ... أدب كأني كلما قمت راكع

فأصبحت مثل السيف غير جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع[2]

فلا تبعدن إن المنية موعد ... عليك فدان للطلوع وطالع

أعاذل ما يدريك إلا تظنياً ... إذا ارتحل الفتيان من هو راجع؟

أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى ... وأي كريم لم تصبه القوارع؟

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

سلوهن إن كذبتموني متى الفتى ... يذوق المنايا؟ أو متى الغيث واقع؟

---

(١) التاليات: أواخر الإبل، والمشايع الذي يزجرها.

(٢) القيق: الحداد.

وعمير بن ضابئ اليشكري، يرتد قومه في اليمامة، ويستجيبون لداعي مسيلمة الكذاب، ويظل هو وعدد من أصحابه على دينهم، متحدين الفتنة العمياء:

فتن القوم بالشهادة والله عزيز ذو قوة ومحال
إن ديني دين النبي وفي القو م رجال على الهدى أمثالي
إن تكن منيتي على فطرة اللـ ـه حنيفاً فإنني لا أبالي

وعمير بن الحصين النجراني ينشد قومه محذراً إياهم من الفتنة:

أهل نجران أمسكوا وكونوا يداً على الكفار
لا تكونوا بعد اليقين إلى الشك وبعد الرضا إلى الإنكار
واستقيموا على الطريقة فيه وكونوا كهيئة الأنصار

والصلصال بن الدلهمس يتحدث عن الحياة والموت والعمل:

تجنب خليطاً من مقالك إنما قرين الفتى في القبر ماكان يفعل
ولا بد بعد الموت من أن تعده ليوم ينادي المرء فيه فيقبل
وإن كنت مشغولاً بشيء فلاتكن بغير الذي يرضى به الله تشغل
ولن يصحب الإنسان من قبل موته ومن بعده إلا الذي كان يعمل
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله يقيم قليلاً بينهم ثم يرحل

والحطيئة يتوسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يطلقه من سجنه، مستثيراً فيه حسه الرقيق:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر؟
غيبت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بها الأثر

والخلفاء الراشدون أنفسهم كانوا يتغنون بأبيات من الشعر بين الحين والحين، لا ندري أهم مبدعوها، أم مرسلوها فحسب، أم إنها قيلت في عصر تال ونسبت إليهم... والأمر سواء، ما دامت تتضمن لمسات ندية مما جاء به الدين الجديد...

يحكي أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن محنته النفسية وتغربه بوفاة الرسول عليه السلام:

لما رأيت نبينا متجدلاً ... ضاقت علي بعرضهن الدور

وارتعت روعة مستهام واله ... والعظم مني واهن مكسور

أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى ... وبقيت منفرداً وأنت حسير

ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه كان ينشد:

هون عليك فإن الأمور ... بكف الإله مقاديرها

فليس بآتيك منهيها ... ولا قاصد عنك مأمورها

وينشد:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياح له ... والجن والإنس فيما بينها ترد

حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوماً كما وردوا

ويستعد علي رضي الله عنه للموت... كأنه يراه بعينيه:

اشدد حيازيك للموت فإن الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت، إذا حل بواديكا

وعبر حركة الجهاد والفتح ـ في العصر الراشدي ـ تلتمع قصائد ومقاطع وأبيات، في هذه الجبهة أو تلك، تصويراً لواقعة أو تعبيراً عن معاناة. . . لكن العثور على الرؤية الإسلامية الجديدة في آفاقها الرحبة وامتدادها العميق، يغدو صعباً هاهنا أيضاً، رغم كثرة ما قيل[١].

في معركة نهاوند على حدود بلاد فارس يقول عبدة بن الطبيب:

نرجو فواضل رب سيبه حسن ... وكل خير لديه فهو مقبول
رب حبانا بأموال مخولة ... وكل شيء حباه الله تخويل
والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل

وفي المعركة نفسها ينشد عروة بن زيد الخيل الطائي:

ألا طرقت رحلي وقد نام صحبتي ... بإيوان شيرين المزخرف خلتي
ولو شهدت يومي جلولاء حربنا ... ويوم نهاوند المهول استهلت
إذاً لرأت ضرب امرئ غير خامل ... مجيد بطعن الرمح أروع مصلت
وكم من عدو أشوس متمرد ... عليه بخيلي في الهياج أظلت
وكم كربة فرجتها. . . وكريهة ... شددت لها أزري إلى أن تجلت
وقد أضحت الدنيا لدي ذميمة ... وسليت عنها النفس حين تسلت
وأصبح همي في الجهاد ونيتي ... فلله نفسي أدبرت وتولت
فلا ثروة الدنيا نريد اكتسابه ... إلا أنها عن وفرها قد تجلت
وماذا أرجي من كنوز جمعتها ... وهذي المنايا شرعاً قد أظلت؟

(١) يعد كتاب النعمان عبدالمتعال القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الذي سبق وأن أشرنا إليه، أوسع دراسة قدمت عن شعر الفتوح لحد الآن، وقد انتقينا منه معظم الأبيات والمقاطع التالية.

ويبكي أبو ذؤيب الهذلي بنيه الخمسة الذين احتوشهم طاعون ألمَّ بمصر... معلناً عن استسلامه لقضاء الله...

أمن المنون وريبه تتوجع — والدهر ليس بمعقب من يجزع
أودى بني وأعقبوني حسرة — بعد الرقاد وعبرة لا تقلع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب — وإخال أني لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم — فإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها — ألفيت كل تميمة لا تنفع !!
لا بد من تلف مقيم فانتظر — فبأرض قومك أم بأخرى المصرع
ولقد أرى إن البكاء سفاهة — ولسوف يولع بالبكا من يفجع
ولتأتين عليك يوم مرة... — يبكي عليك مقنعاً لا تسمع
وتجلدي للشامتين أريهم — أني لريب الدهر لا أتضعضع

ويصور عبد الله بن سبرة الجرشي احتسابه يده عند الله، بما فعلته هذه اليد في سبيله فقد قتلت أرطبون الروم في مبارزة فقدت فيها يوم فلطاس:

ويل أم جار غداة الروع فارقني — أهون علي به إذ بان فانقطعا
يمنى يدي غدت مني مفارقة — لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا
وما ضننت عليها إن صاحبها... — ولقد حرصت على أن نستريح معا!!
وقائل غاب عن شأني وقائلة — هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا؟
وكيف أتركه يسعى بمنصله — نحوي وأعجز عنه بعدما وقعا؟
ما كان ذلك يوم الروع من خلقي — ولو تقارب مني الموت فاكتنعا
يمشي إلى مستميت مثله بطل — حتى إذا أمكنا سيفيهما قطعا

حاسيته الموت حتى اشتف آخره فما استكان لما لاقى ولا جزعا
فإن يكن أرطبون الروم قطعها فقد تركت بها أوصاله قطعا !!
وإن يكن أرطبون الروم قطعها فإن فيها بحمد الله منتفعا
بنانتين وجرموزاً أقيم بها صدر القناة إذا ما أنسوا فزعا

ويعتصر جندي مجهول حنينه إلى نجد شعراً مؤثراً وهو يعاني الغربة في البلاد البعيدة:

أكرر طرفي نحو نجد وإنني برغمي وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنيناً إلى أرض كأن ترابها - إذا أمطرت - عود ومسك وعنبر
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظري من نحو نجد بنافع أجل لا، ولكني إلى ذاك أنظر
أفي كل يوم نظرة ثم عبرة لعينك مجرى مائها يتحدر؟
متى يستريح القلب؟ إما مجاوز بحرب وإما نازح يتذكر؟!

ويعلن عروة بن زيد الخيل عن (الوصية) التي ينقلها الآباء إلى الأبناء... قتال العدو حتى النصر... وهو على يديه يستحيل جهاداً في سبيل الله:

صبرت لأهل القادسية معلماً ومثلي إذا لم يصبر القرن أصبر
فطاعنتهم بالرمح حتى تبددوا وضاربتهم بالسيف حتى تكركروا
بذلك أوصاني أبي وأبو أبي كذلك أوصاه فلست أقصر
صمدت إلهي إذ هداني لدينه فلله أسعى ما حييت وأشكر

ويصرخ النابغة الجعدي بالناس، في كل مكان وزمان، أن ينظروا في

المصير الذي آلت إليه دولة الفرس، وكيف أدال الله منها، فكأنها لم تكن سوى حلم من الأحلام:

يا أيها الناس هل ترون إلى ... فارس بادت وجدها رغما؟
أمسوا عبيداً يرعون شاءكم ... كأنما كان ملكهم حلما!
أو سبأ الحاضرين مأرب إذ ... يبنون من دون سيله العرما؟

وهو يمهد لصرخته بأبيات تتنفس كلماتها وتعابيرها في (أجواء) الدين الجديد، وكتابه المبين:

الحمد لله لا شريك له ... من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل في النهار وفي ... الليل نهاراً يفرج الظلما
الخافض الرافع السماء على ... الأرض ولم يبن تحتها دعما
الخالق البارئ المصور في الـ ... أرحام ماء حتى يصير دما
من نطفة قدرها مقدرها ... يخلق منها الأبشار والنسما
ثم عظاماً أقامها عصب ... ثمّت لحماً كساه فالتأما
والصوت واللون والمعايش والـ ... أخلاق شتى وفرق الكلما
ثمت لا بد أن سيجمعكم ... والله جهراً شهادة قسما
فائتمروا الآن ما بدا لكم ... واعتصموا إن وجدتم عصما
في هذه الأرض والسماء ولا ... عصمة منه إلا لمن رحما

وفي أبيات أخرى يخاطب زوجته التي توسلت إليه أن يبقى إلى جوارها ولا يخرج إلى الأصقاع النائية، مجاهداً:

باتت تذكرني بالله قاعدة ... والدمع ينهل من شأنيهما سبلا

يا بنت عمي كتاب الله أخرجني ـ كرهاً ـ وهل أمنعن الله ما بذلا؟
فإن رجعت فرب الناس أرجعني وإن لحقت بربي فابتغي بدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني أو ضارعاً من ضنى لم يستطع حولا

ومالك بن الريب يرثي نفسه في الغربة، وهو يقبل على الموت مجاهداً في بلاد فارس بعيداً عن أهله:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا؟
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا مزار ولكن الغضا ليس دانيا !!
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحفرا برابية إني مقيم لياليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي وردا على عينيّ فضل ردائيا
خذاني فجراني ببردي إليكما وقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا
تفقدت من يبكي علي فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وبالرمل منا نسوة لو شهدنني بكين وفدين الطبيب المداويا
عجوزي وأختاي اللتين أصيبتا بموتي وبنت لي تهيج البواكيا
يقولون: لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا؟!

٧

والآن... فإننا لو مضينا مسرعين في بحر الزمن، وخلّفنا وراءنا العقود والقرون... فإننا سنجد أنفسنا أمام تيار متدفق من العطاء الشعري الإسلامي الملتزم الذي ينأى عن التقريرية والمباشرة، ويعبر عن قيم الإسلام وآفاقه بعمق وعفوية... وتمتد رؤاه بعيداً، بعيداً، وهي تجهد في أن تصل إلى مشارف رؤية الإسلام ذاتها لتغطيها، وتستجيب لنداءاتها وأمانيها!!

بمرور الزمن يتحرر الشعر الإسلامي من رواسب البدايات الجاهلية شكلاً ومضموناً... وبمرور الزمن يكتسب الشعر الإسلامي خبرة ومرونة وطول نفس، وتجد العملية الشعرية نفسها أكثر قدرة على الحركة والامتداد بما منحه الزمن إياها عبر نموها الدينامي...

وإذا كنا في العقود الأولى لانكاد نعثر إلا على لمحات مبعثرة هنا وهناك... تكد العين في الوقوع عليها... فإننا في القرون التالية نجد أنفسنا في إسار صعوبة من نوع آخر تماماً... الكثرة المحيرة !!.. بحر من العطاء الشعري الذي لا يدري الإنسان ماذا يأخذ منه وماذا يدع!!

إن عشرات، بل مئات، من الدواوين الشعرية المجموعة أو المفرقة في تواريخ الأدب وكتب النقد والموازنة والمنوعات، لا نكاد نقلب صفحاتها حتى تقع أعيننا على القصائد ذوات العدد؛ مما يمكن أن ندرجه تحت مصطلح (الشعر الإسلامي) ذلك الذي يصدر عن رؤية إسلامية أصيلة، ويمتد بعطائه الزاخر، المؤثر، إلى بعض ما تمتد إليه...

(بعض)؟ نعم... ذلك أن كثيراً من الطرق التي شقها الإسلام في قلب العالم... والآفاق الرحبة التي مد إليها الرؤية الإيمانية في مدى الكون... لم يمسها الشعر العربي عبر عصوره جميعاً، لا من قريب ولا من بعيد... والذي فعله هو أن تناول زوايا محددة فحسب، لا تعدو أصابع اليدين... بينما الرؤية التي صنعها الإسلام يمكن أن يمسها الشعر من ألف زاوية وزاوية...

ومهما يكن من أمر فإن (اختيار) الشواهد الشعرية هنا مسألة صعبة، ومحيرة، لأن الأبواب المشرعة كثيرة، ولا يدري أحد من أي باب يدخل!!

وأحرى، في حالة كهذه، أن يتولى أديب، شاعر، متفرغ... أو لجنة من الأدباء، تنفيذ مهمة نحن بأمس الحاجة إليها، ولا تزال تفتقدها مكتبة

الأدب الإسلامي المعاصر... تلك هي القيام بجرد أكبر قدر ممكن من الأعمال الشعرية عبر تاريخنا الأدبي كله، وعلى ضوء معايير نقدية إسلامية محددة سلفاً، يتم انتقاء القصائد أو المقطوعات التي تصب في مجرى الشعر الإسلامي، وترفد تياره الصافي...

وبعد الانتقاء والتجميع يمكن أن تبدأ عملية الفرز والتنسيق، ثم الدراسة والنقد والتحليل، لكي ما يلبث (العمل) أن يخرج بها على الناس في مجلد واحد أو مجلدين أو عدة مجلدات حسبما تحتم المادة المنتقاة... وأحرى كذلك أن يعنون هذا العمل بـ (ديوان الشعر الإسلامي)...

لقد سبق وأن قام آخرون بتجربة كهذه، ولكن باتجاهات أخرى لا صلة لها بالرؤية الإسلامية، فانتقوا قصائد من الشعر، وعرضوها، مدروسة، محللة، في مطبوع واحد أسموه (ديوان الشعر العربي)... والجهود قائمة في هذا السبيل، لا تزال...

ونحن لم نبدأ بعد، وقد آن لنا أن نقطع الخطوات الأولى... والجهد مغر... وحشود القصائد الإسلامية مطمورة هناك في خضم تراثنا الأدبي، وليس سهلاً الاطلاع عليها كما لو كانت منتقاة ومعروضة في مكان واحد... إننا، حيثما تصفحنا ديواناً من الدواوين، أو كتاباً من كتب تاريخ الأدب أو النقد وجدنا ضالتنا من غير ماعناء: القصيدة، أو المقطوعة الإسلامية التي يتجاوز جمعها وتحليلها أهدافه الأكاديمية الصرفة إلى خلق تيار من الوعي الشعري والنقدي الإسلامي، قد يلعب دوراً خطيراً في مجرى عطائنا الإبداعي والنقدي المعاصرين بما يضعه في طريقهما من معالم ومؤشرات، وبما يرفد به الوجدان الإسلامي المعاصر من وقود أصيل خلاق...

ولن نترك الموضوع الذي بين أيدينا قبل أن نعرض لعدد من الشواهد لم يكن وراء انتقائها قصد مرسوم، إن على مستوى النمط الفني أو على مستوى

التاريخ.. لم نفعل سوى أن نادتنا القصائد المنبثة هنا وهناك... فلبينا النداء !!

وقد تعمدت ألا أضع عناوين للقصائد... تاركاً للقارئ أن يختار العنوان الذي تمنحه إياه الأبيات... ولم أشأ أن أملأ ذيول القصائد تعليقات وشروحاً، وهي متواجدة بوفرة في هوامش الدواوين المحققة التي اعتمدتها، كي لا أخرج بالقارئ عن متعة التعامل المباشر مع العمل الفني... والقصيدة الممتازة تحكي بنفسها... فلا تحتاج إلى أن يتحدث عنها أحد !!

وقد أغفلت في بعض القصائد والمقطوعات عدداً من الأبيات، مجموعة أو منفردة، دون أن أشير إلى أماكن الإغفال الذي رأيته ضرورياً لتجاوز الأبيات التي تفقد القصيدة شدها وتوترها، أو تخرج بها أحياناً عن الهدف الذي توخي في اختيارها... فعذراً...




(الشافعي)
أخلاق الرجال...

١

دع الأيام تفعل ما تشاء	وطب نفساً إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي	فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلاً على الأهوال جلداً	وشيمتك السماحة والوفاء
وإن كثرت عيوبك في البرايا	وسرك أن يكون لها غطاء
تستر بالسخاء فكل عيب	يغطيه ـ كما قيل ـ السخاء
ولا تر للأعادي قط ذلاً	فإن شماتة الأعدا بلاء
ولا ترج السماحة من بخيل	فما في النار للظمآن... ماء
ورزقك ليس ينقصه التأني	وليس يزيد في الرزق العناء
ولا حزن يدوم... ولا سرور	ولا بؤس عليك ولا رخاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع	فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا	فلا أرض تقيه ولا سماء
وأرض الله واسعة... ولكن	إذا نزل القضا ضاق الفضاء

دع الأيـام تـغـدر كـل حـيـن فـمـا يـغـنـي عـن الـمـوت الـدواء

٢

إذا اصفر لون المرء وابيض شعره تنغص من أيامه مستطابها
فدع عنك سوءات الأمور فإنها حرام على نفس التقي ارتكابها
وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم فخير تجارات الكرام اكتسابها
ولا تمشين في منكب الأرض فاخراً فعما قليل يحتويك ترابها
ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غروراً... وباطلاً كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أولعت قعر دارها مغلقة الأبواب مرخى حجابها

٣

ولرب نازلة يضيق بها الفنى ذرعاً، وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت، وكنت أظنها لا تفرج

٤

إذا أصبحت عندي قوت يومي فخل الهم عني يا سعيد
ولا تخطر هموم غد ببالي فإن غداً له رزق جديد
أسلم إن أراد الله أمراً فأترك ما أريد لما يريد

٥

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديـ ـب وفيضي آبار تكرور تبرا
إنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم... قبرا
همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا
وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أزور زيداً وعمرا؟!

٦

ورب ظلوم قد كفيت بحربه فأوقعه المقدور أي وقوع
فما كان في الإسلام إلا تعبداً وأدعية لا تتقى بدروع
مريشة بالهدب من كل ساهر منهلة أطرافها.. بدموع !!

٧

إن الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك في أبوابهم ظل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك، وإن أرضيتهم ملوا؟
فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً إن الوقوف على أبوابهم ذل !!

٨

إن لله عبادا فطنا تركوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي... وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

٩

سهرت أعين ونامت عيون في أمور تكون أو لا تكون

فادرأ الهم ما استطعت عن النفـ ـس فحملانك الهموم جنون

إن رباً كفاك بالأمس ما كا ن سيكفيك في غد ما يكون!




(أبو العتاهية) تأملات في الحياة والموت والمصير

١

الخير والشر عادات وأهواء وقد يكون من الأحباب أعداء
للحلم شاهد صدق من تعمده وللحليم عن العورات إغضاء
كل له سعيه والسعي مختلف وكل نفس لها في سعيها شاء
لكل داء دواء عند عالمه من لم يكن عالماً لم يدر ما الداء
الحمد لله يقضي ما يشاء ولا يقضى عليه وما للخلق ما شاؤوا
لم يخلق الخلق إلا للفناء معاً تفنى وتبقى أحاديث وأسماء
يا بعد من مات ممن كان يلطفه قامت قيامته والناس أحياء
يقصي الخليل أخاه عند ميتته وكل من مات أقصته الأخلاء
لم تبك نفسك أيام الحياة لما تخشى وأنت على الأموات بكاء
أستغفر الله من ذنبي ومن سرفي إني وإن كنت مستوراً لخطاء
لم تقتحم بي دواعي النفس معصية إلا وبيني وبين النور ظلماء
كم راتع في رياض العيش تتبعه منهن داهية ترتج دهياء

وللحوادث ساعات مصرفة فيهن للحين إدناء وإقصاء
كل ينقل في ضيق وفي سعة وللزمان به شد وإرخاء !!

٢

لعمرك ما الدنيا بدار بقاء كفاك بدار الموت دار فناء
فلا تعشق الدنيا أخي فإنما يرى عاشق الدنيا بجهد بلاء
حلاوتها ممزوجة بمرارة وراحتها ممزوجاً بعناء
فلا تمش يوماً في ثياب مخيلة فإنك من طين خلقت وماء
لقل امرؤ تلقاه لله شاكراً وقل امرؤ يرضى له بقضاء
ولله نعماء علينا عظيمة ولله إحسان وفضل عطاء
وما الدهر يوماً واحداً في اختلافه وما كل أيام الفتى بسواء
وما هو إلا يوم بؤس وشدة ويوم سرور مرة ورخاء
وما كل ما لم أرج أحرم نفعه وما كل ما أرجوه أهل رجاء !
أيا عجباً للدهر لا بل لريبه يخرم ريب الدهر كل إخاء
وشتت ريب الدهر كل جماعة وكدر ريب الدهر كل صفاء
إذا ما خليلي حل في برزخ البلى فحسبي به نأياً وبعد لقاء
أزور قبور المترفين فلا أرى بهاء وكانوا قبل أهل بهاء !
وكل زمان واصل بصريمة وكل زمان ملطف بجفاء
يعز دفاع الموت عن كل حيلة ويعيا بداء الموت كل دواء
ونفس الفتى مسرورة بنمائها وللنقص تنمو كل ذات نماء

وكم من مفدى مات لم ير أهله … حبوه ولا جادوا له بفداء

أمامك يا ندمان دار سعادة … يدوم البقا فيها ودار شقاء

خلقت لإحدى الغايتين فلا تنم … وكن بين خوف منهما ورجاء

٣

المرء آفته هوى الدنيا … والمرء يطغى كلما استغنى

إني رأيت عواقب الدنيا … فتركت ما أهوى لما أخشى

فكرت في الدنيا وجدتها … فإذا جميع جديدها يبلى

وإذا جميع أمورها دول … بين البرية قلما... تبقى

وبلوت أكثر أهلها فإذا … كل امرئ في شأنه يسعى

ولقد بلوت فلم أجد سبباً … بأعز من قنع ولا أغلى

ولقد طلبت فلم أجد كرماً … أعلى بصاحبه من التقوى

ولقد مررت على القبور فما … ميزت بين العبد والمولى

ما زالت الدنيا منغصة … لم يخل صاحبها من البلوى

دار الفجائع والهموم ودار … البؤس والأحزان والشكوى

بينا الفتى فيها بمنزلة … إذ صار تحت ترابها ملقى

تقفو مساويها محاسنها … لا شيء بين النعي والبشرى

ولقلّ يوم ذر شارقه … إلا سمعت بها لك ينعى

لا تعتبن على الزمان فما … عند الزمان لعاتب عتبى

ولئن عتبت على الزمان لما … يأتي به فقل ما ترضى

المرء يوقن بالقضاء وما ينفك أن يعنى بما يكفى
للمرء رزق لا يموت وإن جهد الخلائق دون أن يفنى
يا باني الدار المعد لها ماذا عملت لدارك الأخرى؟
وممهد الفرش الوثيرة لا تغفل فراش الرقدة الكبرى
ولقد دعيت وقد أجبت لما تدعى له فانظر لما تدعى
أتراك تحصي من رأيت من الأحياء ثم رأيتهم موتى؟
فلتلحقن بعرصة الموتى ولتنزلن محلة الهلكى
من أصبحت دنياه غايته فمتى ينال الغاية القصوى؟
بيد الفناء جميع أنفسنا ويد البلى فلها الذي يبنى
لا تغترر بالحادثات فما للحادثات على امرئ بقيا
لا تغبطن فتى بمعصية لا تغبطن خلاً أخا التقوى
سبحان من لا شيء يعدله كم من بصير قلبه أعمى
سبحان من أعطاك من سعة سبحان من أعطاك ما أعطى
فلئن عقلت لتشكرن وإن تشكر فقد أغنى وقد أقنى
ولئن بكيت لرحلة عجلاً نحو القبور فمثلها أبكى
ولقلّ من تصفو خلائقه ولقلّ من يصفو له المحيا
والحق أبلج لا خفاء به مذ كان يبصر نوره الأعمى
والمرء مسترعى أمانته فليرعها بأصح ما يرعى
والرزق قد فرض الإله لنا منه ونحن بجمعه نعنى
عجباً عجبت لطالب ذهباً يغنى ويرفض كل ما يبقى

حقاً لقد سعدت وما شقيت ... نفس امرئ رضيت بما تعطى

٤

جل رب أحاط بالأشياء ... واحد ماجد بغير خفاء

جل عن مشبه له ونظير ... وتعالى حقاً على القرناء

عالم السر كاشف الضر يعفو ... عن قبيح الأفعال يوم الجزاء

ما على بابه حجاب ولكن ... هو من خلقه سميع الدعاء

لذ به أيها الغفول وبادر ... تحظ من فضله بنيل العطاء

٥

أذل الحرص والطمع الرقابا ... وقد يعفو الكريم إذا استرابا

إذا اتضح الصواب فلا تدعه ... فإنك كلما ذقت الصوابا

وجدت له على اللهوات برداً ... كبرد الماء حين صفا وطابا

وليس بحاكم من لا يبالي ... أأخطأ في الحكومة أم أصابا

وإن لكل تلخيص لوجهاً ... وإن لكل مسألة جوابا !

وإن لكل حادثة لوقتاً ... وإن لكل ذي عمل حسابا

وإن لكل مطلع لحداً ... وإن لكل ذي أجل كتابا

وكل سلامة تعد المنايا ... وكل عمارة تعد الخرابا

وكل مملك سيصير يوماً ... وما ملكت يداه معاً ترابا

أبت طرفات كل قرير عين ... بها إلا اضطراباً وانقلابا

كان محاسن الدنيا سراب ... وأي يد تناولت السرابا؟

وإن يك منية عجلت بشيء ... تسرّ به فإن لها ذهابا

فيا عجباً تموت وأنت تبني ... وتتخذ المصانع والقبابا

أراك وكلما أغلقت باباً ... من الدنيا فتحت عليك بابا

ألم تر أن غدوة كل يوم ... تزيدك من منيتك اقترابا؟

وحق لموقن بالموت أن لا ... يسوغه الطعام ولا الشرابا

يدبر ما ترى ملك عزيز ... به شهدت حوادثه وغابا

أليس الله في كلّ قريباً ... بلى من حيث ما نودي أجابا

ولم تر سائلاً لله أكدى ... ولم تر راجياً لله... خابا

رأيت الروح جدب العيش لما ... عرفت العيش مخضاً واحتلابا

ولست بغالب الشهوات حتى ... تعد لهن صبراً واحتسابا

فكل مصيبة عظمت وجلت ... تخف إذا رجوت لها ثوابا

كبرنا أيها الأتراب حتى ... كأنا لم نكن حيناً شبابا

وكنا كالغصون إذا تثنت ... من الريحان مونعة رطابا

إلى كم طول صبوتنا بدار ... رأيت لها اغتصاباً واستلابا؟

نزعت إلى خضاب الشيب مني ... وإن نصوله فضح الخضابا

مضى عني الشباب بغير ودي ... فعند الله أحتسب الشبابا

٦

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ما مضى ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

لهونا لعمر الله حتى تتابعت ... ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن في توباتنا فنتوب
إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهم ... وخلّفت في قرن فأنت غريب!
وإن امرأ قد سار خمسين حجة ... إلى منهل، من ورده لقريب
نسيبك من ناجاك بالود قلبه ... وليس لمن تحت التراب نسيب
فأحسن جزاء ما اجتهدت فإنما ... بقرضك تجزى والقروض ضروب

٧

أنلهو وأيامنا تذهب ... ونلعب والموت لا يلعب؟
عجبت لذي لعب قد لها ... عجبت وما لي لا أعجب؟
أيلهو ويلعب من نفسه ... تموت ومنزله يخرب؟
نرى كل ما ساءنا دائباً ... على كل ما سرنا يغلب
نرى الخلق في طبقات البلى ... إذا ما هم صعدوا صوبوا
نرى الليل يطلبنا والنهار ... لم ندر أيهما أطلب؟
أحاط الجديدان جمعاً بنا ... فليس لنا عنهما مهرب
وكل له مدة تنقضي ... وكل له أثر يكتب
وما زلت تجري بك الحادثات ... تسلم منهن أو تنكب
ستعطى وتسلب حتى تكون ... نفسك آخر ما يسلب

٨

كل إلى الرحمن منقلبه ... والخلق ما لا ينقضي عجبه

سبحان من جل اسمه وعلا ... ودنا ووارت عينه حجبه !
ولرب غادية ورائحة ... لم ينج منها هارباً هربه
ولرب ذي نشب تكنفه ... حب الحياة وغره نشبه
قد صار مما كان يملكه ... صفراً وصار لغيره سلبه
يا صاحب الدنيا المحب لها ... أنت الذي لا ينقضي تعبه
أصلحت داراً نصحها أشب ... جم الفروع كثيرة شعبه
إن استهانتها بمن صرعت ... لبقدر ما تسمو به رتبه
وإن استوت للنمل أجنحة ... حتى يطير فقد دنا عطبه!
إني حلبت الدهر أشطره ... فرأيته لم يصف لي حلبه
فتوق دهرك ما استطعت ولا ... تغررك فضته ولا ذهبه
كرم الفتى التقوى وقوته ... محض اليقين ودينه حسبه
حلم الفتى مما يزينه ... وتمام حلية فضله أدبه
والأرض طيبة وكل بني ... حواء فيها واحد نسبه
رأيت الأمور وأنت تبصرها ... لا تأتي ما لم تدر ما سببه!

٩

عجبت للنار نام راهبها ... وجنة الخلد نام راغبها
عجبت للجنة التي شوّق ... الله إليها إذ نام طالبها
إني لفي ظلمة من الحب ... للدنيا وأهل التقى كواكبها
من لم تسعه الدنيا لبلغته ... ضاقت على نفسه مذاهبها

من سامح الحادثات ذلت له ... الأرض ولانت له مناكبها

والمرء ما دام في الحياة فلا ... ينفك من حاجة يطالبها

يا عجباً للدنيا كذا خلقت ... مادحها صادق وعائبها !

١٠

لم لا نبادر ما نراه يفوت ... إذ نحن نعلم أننا سنموت؟

من لم يوال الله والرسل التي ... نصحت له فوليه الطاغوت

علماؤنا منا يرون عجائباً ... وهم على ما يبصرون سكوت؟

تفنيهم الدنيا بوشك زوالها ... فجميعهم بغرورها مبهوت

وبحسب من يسمو إلى شهوات ما ... يكفيه من شهواته ويقوت

يا برزة الموتى الذي نزلوا به ... فهم رقود في ثراه خفوت

كم فيك ممن كان يوصل حبله ... قد صار بعد وحبله مبتوت؟

١١

إن كنت تطمع في الحياة فهات ... كم من أب لك ليس في الأموات؟

ما أقرب الشيء الجديد من البلى ... يوماً وأسرع كل ما هو آت

الليل يعمل والنهار ونحن عما ... يعملان بأغفل الغفلات

ياذا الذي اتخذ الزمان مطية ... وخطا الزمان كثيرة العثرات

ماذا تقول وليس عندك حجة ... لو قد أتاك مهدم اللذات؟

أو ما تقول إذا سئلت فلم تجب ... وإذا دعيت وأنت في الغمرات؟

أو ما تقول إذا حللت محله ... ليس الثقات لأهلها بثقات؟

أو ما تقول وليس حكمك نافذاً فيما تخلقه من التركات؟
ما من أحب رضاك عنك بخارج حقاً تقطع نفسه حسرات
زرت القبور، قبور أهل الملك في الدنيا وأهل الرتع في الشهوات
كانوا ملوك مآكل ومشارب وملابس وروائح عطرات
فإذا بأجساد عرين من الكسا وبأوجه في الترب منعفرات
لم تبق منها الأرض غير جماجم بيض تلوح وأعظم نخرات

١٢

أما والذي يحيا به ويمات لقل فتى إلا له هفوات
وما من فتى إلا سيبلى جديده وتفني الفتى الروحات والدلجات
يغر الفتى تحريكه وسكونه ولا بد يوماً تسكن الحركات
ومن يتتبع شهوة بعد شهوة ملحاً تقسم عقله الشهوات
ومن يأمن الدنيا وليس بحلوها ولا مرها فيما رأيت ثبات؟
أجابت نفوس داعي الله فانقضت وأخرى لداعي الموت منتظرات
وما زالت الأيام بالسخط والرضا لهن وعيد مرة وعدات !!
إذا ازددت مالاً قلت مالي وثروتي ومالك إلا الله والحسنات

١٣

إن ذا الموت ما عليه مجير يهلك المستجار والمستجير
إن تكن لست خابراً بالليالي وبأحداثها فإني خبير
هن يدنيننا من الموت قدماً فسواء صغيرنا والكبير

أيها الطالب الكثير ليغنى ... كل من يطلب الكثير فقير

وأقل القليل يغني ويكفي ... ليس يغني وليس يكفي الكثير

كيف تعمى عن الهدى كيف تعمى؟ ... عجباً، والهدى سراج منير؟

قد أتاك الهدى من الله نصحاً ... وبه جاءك البشير النذير

ومع الله أنت ما دمت حياً ... وإلى الله بعد ذاك تصير

والمنايا روائح... وغواد ... كل يوم لها سحاب مطير

لا تغرنك العيون فكم ... أعمى تراه وإنه لبصير

أنا أغنى العباد ما كان لي ... كنّ وما كان لي معاش يسير

١٤

حتى متى يستفزني الطمع ... أليس لي بالكفاف متسع؟

ما أفضل الصبر والقناعة ... للناس جميعاً لو أنهم قنعوا

وأخدع الليل والنهار لأقوام ... أراهم في الغي قد رتعوا

أما المنايا فغير غافلة ... لكل حي من كاسها... جرع

أي لبيب تصفو الحياة له ... والموت ورد له ومنتجع

والخلق يمضي يوماً ببعضهم ... بعضاً فهم تابع ومتبع

يا نفس مالي أراك آمنة ... حيث يكون الروعات والفزع؟

ما عد للناس في تصرف ... حالاتهم من حوادث تقع

لقد حلبت الزمان أشطره ... فكان فيهن الصاب والسلع

مالي بما قد أتى به فرح ... ولا على ما ولي به جزع

لله در الدنى لقد لعبت قبلي بقوم فما ترى صنعوا؟
بادوا ووفتهم الأهلة ما كان لهم والأيام والجمع
أثروا فلم يدخلوا قبورهم شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدموا لأنفسهم أعظم نفعاً من الذي ودعوا
غداً ينادي من القبور إلى هول حساب عليه يجتمعوا
غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
تبارك الله كيف قد لعبت بالناس هذه الأهواء والبدع؟
شتت حب الدنا جماعتهم فيها فقد أصبحوا وهم شيع

١٥

تعالى الواحد الصمد الجليل وحاشا أن يكون له عديل
هو الملك العزيز وكل شيء سواه فهو منتقص ذليل
وما من مذهب إلا إليه وإن سبيله لهو السبيل
وإن له لمناً ليس يحصى وإن عطاءه لهو الجزيل
وإن عطاءه عدل علينا وكل بلائه حسن جميل
وكل مفوه أثنى عليه ليبلغه فمنحسر كليل
أيا من قد تهاون بالمنايا ومن قد غره الأمل الطويل
ألم تر أنما الدنيا غرور وأن مقامنا فيها قليل؟

١٦

هل على نفسه امرؤ محزون موقن أنه غداً مدفون؟

فهو للموت مستعد معد ... لا يصون الحطام فيما يصون

يا كثير الكنوز إن الذي يكفيك ... مما اكتنزت منها لدون

كلنا يكثر المذمة للدنيا ... وكل بحبها مفتون !!

لتنالنّك المنايا ولو أنك ... في شاهق عليك الحصون

وترى من بها جميعاً كأن قد ... غلقت منهم ومنك الرهون

أي حي إلا سيصرعه الموت ... وإلا ستستبيه المنون؟

أين آباؤنا وآباؤكم، قبل ... وأين القرون أين القرون؟

كم أناس كانوا فأفنتهم الأيام ... حتى كأنهم لم يكونوا

للمنايا ولابن آدم أيا ... م ويوم لا بد منه خؤون

والتصاريف جمة غاديات ... رائحات والحادثات فنون

ولمرء الفناء في كل يوم ... حركات كأنهن سكون

والمقادير لا تناولها الأوهام ... لطفاً ولا تراها العيون

وسيجري عليك ما كتب الله ... ويأتيك رزقه المضمون

وسيكفيك ذا التعزز والبغي ... من الدهر حده المسنون

واليقين الشفاء من كل هم ... ما يثير الهموم إلا الظنون

فاز بالروح والسلامة من ... كانت فضول الدنيا عليه تهون

والغنى أن تحسن الظن في الله ... وترضى بكل أمر يكون

والذي يملك الأمور جميعاً ... ملك جل نوره المكنون

وسع الخلق قدره فجميع ... الخلق، فيها، محدد موزون

كل شيء فقد أحاط به الله ... وأحصاه علمه المخزون

إن رأيـاً دعـا إلـى طـاعـة الله ... لـرأي مـبـارك مـيـمـون

١٧

إن السلامة أن نرضى بما قضيا ... ليسلمن بإذن الله من رضيا

المرء يأمل والآمال كاذبة ... والمرء تصحبه الآمال ما بقيا

يا رب باك على ميت وباكية ... لم يلبثا بعد ذاك الميت أن بكيا

ورب ناع نعى حيناً أحبته ... ما زال ينعى إلى أن قيل قد نعيا

كم من أخ تغتذي دود التراب به ... وكان صباً بحلو العيش مغتذيا

يبلى مع الميت ذكر الذاكرين له ... من غاب غيبة من لايرتجى نسيا

إن الرحيل عن الدنيا ليزعجني ... إن لم يكن رائحاً بي كان مغتديا

الحمد لله طوبى للسعيد ومن ... لم يسعد الله بالتقوى فقد شقيا

كم غافل عن حياض الموت في لعب ... يمسي ويصبح ركاباً لما هويا

ومنقض ما تراه العين منقطع ... ماكل شيء بدا إلا لينقضيا!




(العماد الأصفهاني)
مجاهدون في القمة...

١

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب
ما اخترت بعدك، لكن الزمان أتى كرهاً بما ليس، يا محبوب، محبوبي
أرجو إيابي إليكم ظافراً عجلاً فقد ظفرت بنجم الدين أيوب[1]
موفق الرأي، ماضي العزم، مرتفع على الأعاجم مجداً والأعاريب
أحبك الله إذ لازمت نجدته على جبين بتاج الملك معصوب
أخوك وابنك، صدقاً منهما، اعتصما بالله، والنصر وعداً غير مكذوب
هما هُمامان في يومي وغى وقرى تعودا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان في الكفار نار وغى بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غداً تحظى النفوس بتأنيس وتطييب
ويستقر بمصر يوسف، وبه تقر بعد التنائي عين يعقوب

(١) والد الناصر صلاح الدين يوسف، والقصيدة موجهة إليه، وفيها إشارة إلى دور ابنه الناصر وأخيه أسد الدين شريكوه في حماية مصر من تهديد الصليبيين. والقصيدة التي تليها موجهة إلى أسد الدين في أعقاب إرغامه الصليبيين على الانسحاب من مصر في ظروف صعبة عام ٥٦٣م.

ويلتقي يوسف فيها بإخوته والله يجمعهم من غير تثريب

٢

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت له ومن له مثل ما أثرته أثر؟
أسرت أم بسراك الأرض قد طويت فأنت إسكندر في السير أم خضر؟
أوردت خيلاً بأقصى النيل صادرة عن الفرات بقاضي وردها الصدر
تناقلت ذكرك الدنيا، فليس لها إلا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت من زانت الأيام سيرته وزاد فوق الذي جاءت به السير
لو في زمان رسول الله كنت، أتت في هذه السيرة المحمودة السور
أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً فقل لنا: أعلي أنت أم عمر؟
إسكندر ذكروا أخبار حكمته ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته وصار فيك عياناً ذلك الخبر
افخر، فإن ملوك الأرض أذهلهم ما قد فعلت، فكل فيك مفتكر
سهرت إذ رقدوا، بل هجت إذ سكنوا وصلت إذ جبنوا، بل طلت إذ قصروا
يستعظمون الذي أدركته عجباً وذاك في جنب ما نرجوه محتقر
قضى القضاء بما نرجوه عن كثب حتماً، ووافقك التوفيق والقدر
شكت خيولك إدمان السرى وشكت من فلها البيض بل من حطمها السمر
يسر فتح بلاد كان أيسرها لغير رأيك قفلاً فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم، فاتسقت مآرب لك عنها أسفر السفر

ومن يكون بنور الدين مهتدياً في أمره، كيف لايقوى له المرر[1]

يرى برأيك ما في الملك يبرمه فأنت منه بحيث السمع والبصر

لقد بغت فئة الإفرنج فانتصفت منها، بإقدامك، الهندية البتر

غرست في أرض مصر من جسومهم أشجار خط لها من هامهم ثمر

وسال بحر نجيع في مقام وغى به الحديد غمام، والدم المطر

أنهرت منهم دماء بالصعيد جرى منها إلى النيل في واديهم نهر

رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا نصراً فما عبروا حتى قد اعتبروا

تحت الصوارم هام المشركين كما تحت الصوالج يوماً خفت الأكر

أفنت سيوفك من لاقت فإن ركبت قوماً فهم نفر من قبلها نفروا

لم ينج إلا الذي عافته من خبث وحش الفلا، وهو للمحذور منتظر

والساكنون القصور القاهرية قد نادى القصور عليهم أنهم قهروا

وشاور شاوروه في مكائدهم فكاده الكيد لما خانه الحذر[2]

كانوا من الرعب موتى في جلودهم وحين أمنتهم من خوفهم نشروا

وإن من (شيركوه) الشرك منخزل والكفر منخذل، والدين منتصر

عول على فئة عند اللقاء وفت وعد من تركمان قبله غدروا

---

(١) الإشارة إلى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي أمير الشام (٥٤١-٥٦٩هـ) وأحد كبار أبطال المقاومة الإسلامية ضد الغزاة الصليبيين. وقد تمكن خلال فترة حكمه من توحيد مصر واليمن والشام وشمال العراق في دولة واحدة، وتحقيق انتصارات حاسمة ضد الصليبيين مهد بها الطريق لتحرير فلسطين على يد الناصر صلاح الدين أحد كبار ضباطه. أما أسد الدين شيركوه فقد كان بمثابة قائد لقوات نور الدين (انظر كتابي: عماد الدين زنكي، نور الدين محمود: الرجل والتجربة، للمؤلف).

(٢) شاور: هو أحد الخونة المتعاملين مع الغزاة طمعاً في استعادة وزارته على مصر.

وكيف يخذل جيش أنت مالكه والقائدان له التأييد والظفر؟
أجاب فيك إله الخلق دعوة من يطيب بالليل من أنفاسه السحر

٣

لو حفظت يوم النوى عهودها ما مطلت بوصلكم وعودها
محمد يحمد عيش.. بلدة مالكها بعدله محمودها[1]
مؤيد أموره... بعزمة من السموات العلى تأييدها
آثاره حميدة، وينما للمرء من آثاره حميدها
إن الورى بحبه وبغضه يعرف من شقيها سعيدها
قد جاءكم نور من الله فمن به اهتدى فإنه رشيدها
جلا ظلام الظلم نور الدين عن أرض الشام، فله تحميدها
إن الرعايا منه في رعاية ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر، بل لأمنها يخاف، بل يخصبها بجودها
بالدين والملك له قيامه وللملوك عنهما قعودها
ودأبه تلم ثغور الكفر، لا لثم ثغور ناقع برودها
قد أسبغ الله لنا بعدله ظلال أمن وارف مديدها
غدا ملوك الروم في دولته وهم على رغمهم عبيدها
لما أبت هاماتهم سجودها لله، أضحى للظبا سجودها
إن فارقت سيوفه غمودها فإن هاماتهم غمودها !!

(١) الإشارة إلى نور الدين محمود، والقصيدة موجهة إليه، وكذلك القصائد التي تليها.

كم مغلقات من حصون عزمه ... مفتاحها، وسيفه إقليدها
قد ودت الفرنج لو فرت، نجت ... منك، ولكن روعها يبيدها
قهرتها حتى لود حيها ... من ذلة لو أنه فقيدها
أماتها رعبك في حصونها ... كأنما حصونها لحودها
وإن مصراً لك تعنو بعدما ... لسيفك العضب عنا صعيدها
والملة الغراء خال بالها ... عال سناها، بك حال جيدها
مفترة ثغورها، ممنوعة ... ثغورها، محفوظة حدودها
وإن بغى جالوتها ضلالة ... فأنت في إهلاكه داودها
يابن قسيم الدولة الملك الذي ... خرت له من الملوك صيدها
دع العدا بغيظها فإنما ... يذيب أكباد العدا حقودها
يا دولة نورية أمن الورى ... وخصبها، وجودها، وجودها !
ما مثل الدنيا لمن يجمعها ... بالحرص، إلا قزة ودودها
أنت الذي يرفضها عن قدرة ... فلا يشوب زهده زهيدها
فابق لنا يا ملكاً، بقاؤه ... في كل عام للرعايا عيدها
في نعمة جديدة سعودها ... ودولة سعيدة جدودها

٤

اسلم لبكر الفتوح مفترعا ... ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك ... غدا بعبء الخطوب مضطلعا
إن ضاق أمر فغير همته ... لكشف ضيق الأمور لن يسعا

يا محيي العدل بعد ميتته ... ورافع الحق بعدما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الشرك ... ، وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان في العفاف وفي الـ ... ـملك، وتحكي بزهدك اليسعا
حزت البقا، والحياء، والكرم المحـ ... ـض، وحسن اليقين والورعا
أسقطت أقساط ما وجدت من المكـ ... ـس بعدل، والقاسط ارتدعا
ولم تدع في ابتغاء مصلحة الد ... ين لنا باقياً، ولن تدعا
وكل ما في الملوك مفترق ... من المعالي لملكك اجتمعا
همتك الربط والمدارس تبـ ... ـنيها ثواباً وتهدم البيعا
ما زلت ذا فطنة مؤيدة ... على غيوب الأسرار مطلعا
ببأسك البيض والطلى اصطحبت ... بعدلك الذئب والطلا رتعا
كم صائد لم يقع له قنص ... في شرك وهو فيه قد وقعا؟
ومالك، حين رمت قلعته ... غدا مطيعاً للأمر متبعا[1]
عنا خشوعاً لرب مملكة ... لغير رب السماء ما خشعا
كان مقيماً منها على الفلك الـ ... أعلى شهاباً بنوره سطعا
لكنما الشهب ما تنير إذا ... لاح عمود الصباح فانصدعا
يدفعها طائعاً إليك وكم ... عنها إباء بجهده دفعا
هي التي في علوها زحل ... كر على وردها وما كرعا
وهي التي قاربت عطارد في الـ ... أفق فلاحاً والفرقدين معا

(١) الإشارة إلى حادثة تسليم شهاب الدين مالك العقيلي لقلعة ججو المنيعة، المطلة على الفرات إلى نور الدين محمود، وكان أبوه عماد الدين زنكي قد اغتيل عند أسوارها.

هضبة عز لولاك ما ارتقيت وطود ملك لولاك ما فرعا
ما قبلت في ارتقاء ذروتها من ملك، لا رقى ولا خدعا
عزت على المالك الشهيد وأعـ طتك قياداً ما زال ممتنعا
للأب لو جل خطبها لغدا محرماً لابنه وما شرعا
ما زلت محموداً في أمورك محمو لاً بثوب الإقبال مترعا

٥

هل لعاني الهوى من الأسر فادي ولساري ليل الصبابة هادي؟
جنبوني خطب البعاد فسهل كل خطب سوى النوى والبعاد
قد حللتم من مهجتي في السويدا ء، ومن مقلتي محل السواد
سمتموني تجلداً واشتياقاً ومحال تجمع الأضداد !!
إبقاء بعد الأحبة يا قلـ بي ! ما هذا شروط الوداد
ذاب قلبي وسال في الدمع لما دام من نار وجده في اتقاد
ما الدموع التي تحددها الأشـ واق إلا فتائت الأكباد
حبذا ساكنو فؤادي وعهدي بهم يسكنون سفح الوادي
أتمنى بالشام أهلي ببغدا د، وأين الشام من بغداد؟
ما اعتياضي عن حبهم يعلم الله تعالى إلا بحب الجهاد !!
واشتغالي بخدمة الملك العا دل محمود، الكريم، الجواد
أنا منه على سرير سروري راتع العيش في مراد مرادي
قد وردت البحر الخضم وخلفـ ت ملوك الدنيا به كالثماد

هو نعم الملاذ من نائب الدهـ ر ونعم المعاذ عند المعاد

جل رزء الفرنج فاستبدلوا منه بلبس الحديد لبس الحداد!!

فرق الرعب منه في أنفس الكفار بين الأرواح والأجساد!!

سطوة زلزلت بسكانها الأر ض وهدت قواعد الأطواد[1]

أخذتهم بالحق رجفة بأس تركتهم صرعى صروف العوادي

خفضت في قلاعها كل عال وأعادت قلاعها كالوهاد

أنفذ الله حكمه فهو ماض مظهر سر غيبه فهو بادي

آية أثرت ذوي الشرك بالهلك وأهل التوحيد بالإرشاد

والأعادي جرى عليهم من التدمير ما قد جرى على قوم عاد

أشركت في الهلاك بين الفريقين: دعاة الإشراك والإلحاد

ولقد حاربوا القضاء فأمضى حكمه فيهم بغير جلاد

والإله الرؤوف في الشام عنا دافع لطفه بلاء البلاد

٦

عقدت بنصرك راية الإيمان وبدت لعصرك آية الإحسان

يا غالب الغلب الملوك وصائد الصيد الليوث وفارس الفرسان

يا سالب التيجان من أربابها حزت الفخار على ذوي التيجان

محمود المحمود ما بين الورى في كل إقليم بكل لسان

يا واحداً في الفضل غير مشارك أقسمت: مالك في البسيطة ثانِ

(١) إشارة إلى الزلزلة التي ضربت المنطقة بعنف عام ٥٦٥هـ.

أحلى أمانيك الجهاد وإنه لك مؤذن أبداً بكل أمان
كم بكر فتح ولدته ظباك من حرب لقمع المشركين عوان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها قد سار في الآفاق والبلدان
وملكت رق ملوكهم، وتركتهم بالذل في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم وسحبتهم هوناً على الأذقان
إذ في السوابغ تحطم السمر القنا والبيض تخضب بالنجيع القاني
وعلى غناء المشرفية في الطلى والهام رقص عوالي المرّان
وكأن بين النقع لمع حديدها نار تألق من خلال دخان
في مأزق ورد الوريد مكفل فيه بري الصارم الظمآن
غطى العجاج به نجوم سمائه لتنوب عنها أنجم الخرصان[1]
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا طرق الضلال ومركب الطغيان؟
أصبحت للإسلام ركناً ثابتاً والكفر منك مضعضع الأركان
قوضت أساس الضلال بعزمك الماضي، وشدت مباني الإيمان
قل: أين مثلك في الملوك مجاهد لله في سر وفي إعلان؟
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة لكن وثقت بنصرة الرحمن
ما زال عزمك مستقلاً بالذي لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ ما كان في وسع ولا إمكان
دانت لك الدنيا فقاصيها إذا حققته - لنفاذ أمرك - دانِ

(١) الرماح.

فمن العراق إلى الشآم إلى ذرا ... مصر، إلى قوص إلى أسوان
لم تله عن باقي البلاد وإنما ... ألهاك فرض الغزو عن همذان
للروم والإفرنج منك مصائب ... بالترك والأكراد والعربان
أذعنت لله المهيمن إذ عنت ... لك أوجه الأملاك بالإذعان
أنت الذي دون الملوك وجدته ... ملآن من عرف ومن عرفان
في بأس عمرو، في بسالة حيدر ... في نطق قس، في تقى سلمان
سير لو أن الوحي ينزل أنزلت ... في شأنها سور من القرآن
فاسلم طويل العمر ممتد المدى ... صافي الحياة، مخلد السلطان

(أبو نواس)
الباب المفتوح...

١

أيا من ليس لي منه مجيرُ ... بعفوك من عذابك أستجيرُ
أنا العبد المقر بكل ذنب ... وأنت السيد المولى الغفور
فإن عذبتني فبسوء فعلي ... وأن تغفر فأنت به جدير
أفر إليك منك... وأين إلا ... إليك يفر منك المستجير؟

٢

رضيت لنفسك سوءاتها ... ولم تأل جهداً لمرضاتها
وحسنت أقبح أعمالها ... وصغرت أكبر زلاتها
وكم من طريق لأهل الصبا ... سلكت سبيل غواياتها
فأي دواعي الهوى عفتها ... ولم تجر في طرق لذاتها؟
وهذي القيامة قد أشرفت ... تريك مخاوف نزعاتها
وقد أقبلت... بمواعيدها ... وأهوالها، فارع لوعاتها
وإني لفي بعض أشراطها ... وآياتها، وعلاماتها
تبارك رب دحا أرضه ... وأحكم تقدير أقواتها

وصيرها محنة للورى تغر الغوي بغزواتها
فما ترعوي لأعاجيبها... ولا لتصرف حالاتها
ننافس فيها، وأيامها تردد فينا بآفاتها
أما يتفكر أحياؤها فيعتبرون بأمواتها؟

٣

يا بني النقص والعبر وبني الضعف والخور
وبني البعد في الطبا ع على القرب في الصور
والشكول التي تبا ين في الطول والقصر
أإحتساء من الحرا م، وختماً على الصدر؟
أين من كان قبلكم من ذوي البأس والخطر؟
سائلوا عنهم المدا ئن، واستبحثوا الخبر
سبقونا إلى الرحيـ ـل وإنا على الأثر
من مضى عبرة لنا وغداً نحن معتبر!!
إن للموت أخذة تسبق اللمح بالبصر
فكأني بكم... غداً في ثياب من المدر
قد نقلتم من القصو ر إلى ظلمة الحفر
حيث لا تضرب القبا ب عليكم، ولا الحجر
حيث لا تظهرون فيـ ـها للهو ولا سمر
رحم الله مسلماً ذكر الله فازدجر

غفر الله ذنب من ... خاف فاستشعر الحذر

٤

لا تفرغ النفس من شغل بدنياها ... رأيتها لم ينلها من تمناها
إنا لنفس في دنيا مولية ... ونحن قد نكتفي منها بأدناها
حذرتك الكبر لا يعلقك ميسمه ... فإنه ملبس نازعته الله
يا بؤس جلد على عظم مخرقة ... فيه الخروق إذا كلمته تاها
يرى عليك به فضلاً يبين به ... إن كان في العاجل السلطان والجاها
مثن على نفسه، راض بسيرتها ... كذبت يا خادم الدنيا ومولاها
إني لأمقت نفسي عند نخوتها ... فكيف آمن مقت الله إياها؟
أنت اللئيم الذي لم تعد همته ... إيثار دنيا إذا نادته لباها
يا راكب الذنب قد شابت مفارقه ... أما تخاف من الأيام عقباها؟

٥

الموت منا قريب ... وليس عنا بنازحْ
في كل يوم نعي ... تصيح منه الصوائح
تشجى القلوب وتبكي ... مولولات النوائح
حتى متى أنت تلهو ... في غفلة، وتمازح؟
والموت في كل يوم ... في زند عيشك قادح؟
فاعمل ليوم عبوس ... من شدة الهول كالح
ولا يغرنك دنيا ... نعيمها عنك نازح

وبغضها لك زين ... وحبها لك فاضح

٦

سكن يبقى له سكنُ ... ما لهذا يؤذن الزمنُ
نحن في دار يخبرنا ... ببلاها ناطق لحن
دار سوء لم يدم فرح ... لامرئ فيها ولا حزن
كل حي عند ميتته ... حظه من ماله الكفن

٧

أفنيت عمرك، والذنوب تزيدُ ... والكاتب المحصي عليك شهيدُ
كم قلت لست بعائد في سوءة ... ونذرت فيها ثم صرت تعود
حتى متى لا ترعوي عن لذة ... وحسابها يوم الحساب شديد؟
وكأنني بك قد أتتك منية ... لا شك أن سبيلها مورود

٨

سبحان علام الغيوبِ ... عجباً لتصريف الخطوبِ
تغدو على قطف النفو ... س، وتجتني ثمر القلوب
حتى متى يا نفس تغـ ... ـترين بالأمل الكذوب؟
يا نفس توبي قبل أن ... لا تستطيعي أن تتوبي
واستغفري لذنوبك الـ ... ـرحمن غفار الذنوب
إن الحوادث كالريا ... ح عليك دائمة الهبوب

والموت شرع واحد ... والخلق مختلفو الضروب
والسعي في طلب التقى ... من خير مكتسب الكسوب
ولقلما ينجو الفتى ... بتقاه من لطخ العيوب !

٩

كل ناع فسينعى ... كل باك فسيبكى
كل مذخور سيفنى ... كل مذكور سينسى
ليس غير الله يبقى ... من علا فالله أعلى
إن شيئاً قد كفينا ... ه له نسعى ونشقى
إن للشر، وللخيـ ... ـر لسيما ليس تخفى
كل مستخف بسر ... فمن الله بمرأى
لا ترى شيئاً على اللـ ... ـه من الأشياء يخفى

١٠

أية نار قدح القادحُ ... وأي جد بلغ المازحُ؟
لله در الشيب من واعظ ... وناصح لو سمع الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك إلى نسوة ... مهورهن العمل الصالح
لا يجتلي الحوراء من خدرها ... إلا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذي ... سيق إليه المتجر الرابح
شمر فما في الدين أغلوطة ... ورح لما أنت له رائح !!

١١

أيا رب وجه في التراب عتيقٍ ويا رب حسن في التراب رقيقِ

ويا رب حزم في التراب ونجدة ويا رب رأي في التراب وثيق

أرى كل حي هالكاً وابن هالك وذا نسب في الهالكين عريق

فقل لقريب الدار إنك ظاعن إلى منزل نائي المحل سحيق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

١٢

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ

إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم؟

مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك... ثم إني مسلم

١٣

سبحان من خلق الخلـ ق من ضعيف مهينِ

يسوقه من هواء إلى قرار مكين

في الحجب شيئاً فشيئاً يحور دون العيون

حتى بدت حركات مخلوقة من سكون

١٤

إن مع اليوم ـ فاعلمن ـ غداً فانظر بما ينقضي مجيء غده

ما ارتد طرف امرئ بلذته إلا وشيء يموت من جسده

١٥

انقضت شرتي فعفت الملاهي إذ رمى الشيب مفرقي بالدواهي

ونهتني النهى فملت إلى العد ل، وأشفقت من مقالة ناه

أيها الغافل المقيم على السهـ و، ولا عذر في المقام لساه

لا بأعمالنا نطيق خلاصاً يوم تبدو السماء فوق الجباه

غير أني على الإساءة والتفـ ـريط راج لحسن عفو الله

١٦

إلهنا ما أعدلكْ مليك كل من ملكْ

لبيك قد لبّيت لك

لبيك إن الحمد لك والملك، لا شريك لك

ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك

لولاك يا رب هلك

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

كل نبي وملك وكل من أهل لك

وكل عبد سألك سبح أو لبى فلك

لبيك إن الحمد لك والملك، لا شريك لك

والليل لما إن حلك والسابحات في الفلك

على مجاري المنسلك

لــبــيــك إن الــحــمــد لــك   والــمــلــك، لا شــريــك لــك
اعــمــل وبــادر أجــلــك   واختــم بــخــيــر عــمــلــك
لــبــيــك إن الــحــمــد لــك   والــمــلــك. . لا شــريــك لــك !!

١٧

اصبر لمر حوادث الدهرِ   فلتحمدن مغبة الصبرِ
وامهد لنفسك قبل ميتتها   واذخر ليوم تفاضل الذخر
فكأن أهلك قد دعوك، فلم   تسمع، وأنت محشرج الصدر
وكأنهم قد عطروك بما   يتزود الهلكى من العطر
وكأنهم قد قلبوك على   ظهر السرير وظلمة القبر
ياليت شعري كيف أنت على   ظهر السرير، وأنت لا تدري؟
أو ليت شعري كيف أنت إذا   وضع الحساب صبيحة الحشر
ما حجتي فيما أتيت وما   قولي لربي، بل وما عذري؟
أن لا أكون قصدت رشدي أو   أقبلت ما استدبرت من أمري
يا سوأتا مما اكتسبت، ويا   أسفي على ما فات من عمري



(البوصيري)
رحلة مؤثرة إلى رسول الله...

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماءُ؟
لم يساووك في علاك وقد حا ... ل سنا منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما ... تصدر إلا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم ... الغيب ومنها لآدم الأسماء
لم تزل في ضمائر الكون تختا ... ر لك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من الرسل إلا ... بشرت قومها بك الأنبياء
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياء
وبدا للوجود منك كريم ... من كريم آباؤه كرماء
نسب تحسب العلا بحلاه ... قلدته نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماء
ومحيا كالشمس منك مضيء ... أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذي كان للدين ... سروراً بيومه... وازدهاء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد ... ولد المصطفى وحق الهناء
وتداعى إيوان كسرى ولولا ... آية منك ما تداعى البناء

وغــدا كــل بــيــت نــار وفــيــه كــربــة مــن خــمــودهــا وبــلاء
وعيـون للـفـرس غـارت فـهـل كـا ن لـنـيـرانـهـم بـهـا إطـفـاء؟
فـهـنـيـئـاً بـه لآمـنـة الـفـضـل الــذي شــرّفــت بــه حــواء !!

❀ ❀ ❀

ألـف الـنـسـك والـعـبـادة والـخـلـوة طـفـلاً... وهـكـذا الـنـجـبـاء
وإذا حـلـت الـهـدايـة قـلـبـاً نـشـطـت فـي الـعـبـادة الأعـضـاء
بـعـث الله عـنـد مـبـعـثـه الـشـهـب حـراسـاً وضـاق عـنـهـا الـفـضـاء
تـطـرد الـجـن عـن مـقـاعـد لـلـسـمـع كـمـا تـطـرد الـذئـاب الـرعـاء
فـمـحـت آيـة الـكـهـانـة آيـا ت من الـوحـي مـا لـهـن إمـحـاء!!

❀ ❀ ❀

ثـم قـام الـنـبـي يـدعـو إلـى الله وفـي الـكـفـر نـجـدة... وإبـاء
أمـمـاً أشـربـت قـلـوبـهـم الـكـفـر، فـداء الـضـلال فـيـهـم عـيـاء
ورأيـنـا آيـاتـه فـاهـتـديـنـا وإذا الـحـق جـاء زال الـمـراء
رب إن الـهـدى هـداك وآيـا تـك نـور تـهـدي بـهـا مـن تـشـاء
كـم رأيـنـا مـا لـيـس يـعـقـل قـد ألـهـم مـا لـيـس يـلـهـم الـعـقـلاء
إذ أبـى الـفـيـل مـا أتـى صـاحـب الـفـيـل ولـم يـنـفـع الـحـجـا والـذكـاء
والـجـمـادات أفـصـحـت بـالـذي أخـرس عـنـه لأحـمـد الـفـصـحـاء
ويـح قـوم جـفـوا نـبـيـاً بـأرض ألـفـتـه ضـبـابـهـا والـظـبـاء
وسـلـوه وحـن جـذع إلـيـه وقـلـوه ووده الـغـربـاء

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء
واختفى منهم على قرب مرآ ه ومن شدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتا قت إليه من مكة الأنحاء
فطوى الأرض سائراً والسموا ت العلا فوقها له أسراء
فصف الليلة التي كان للمختار فيها على البراق استواء
وترقى به إلى قاب قوسين وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأماني حسرى دونها ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكراً إذ أتته من ربه النعماء
وتحدى فارتاب كل مريب أو يبقى مع السيول الغثاء؟
وهو يدعو إلى الإله وإن شق عليه كفر به وازدراء
ويدل الورى على الله بالتو حيد وهو المحجة البيضاء
فبما رحمة من الله لانت صخرة من إبائهم صماء
واستجابت له بنصر وفتح بعد ذاك الخضراء والغبراء
وأطاعت لأمره العرب العر باء والجاهلية الجهلاء
وتوالت للمصطفى الآية الكبرى عليهم والغارة الشعواء
فإذا ما تلا كتاباً من الله تلته كتيبة خضراء !!
وكفاه المستهزئين وكم سا ء نبياً من قومه استهزاء
لا تخل جانب النبي مضاماً حين مسته منهم الأسواء
كل أمر ناب النبيين فالشدة فيه محمودة... والرخاء
لو يمس النضار هون من النا ر لما اختير للنضار الصلاء

كـل يـد عـن نـبـيـه كـفـهـا الله. . . وفـي الـخـلـق كـثـرة واجـتـراء !!

۞ ۞ ۞

فتنزه في ذاته ومعانيه استماعاً إن عـز مـنـهـا اجـتـلاء
واملأ السمع من محاسن يمليها عـلـيـك الإنـشـاد والإنـشـاء
كـل وصـف لـه ابـتـدأت بـه اسـتـو عب أخـبـار الـفـضـل منه ابـتـداء
سيد ضحكه التبسم والمشي الـهـويـنـى ونـومـه الإغـفـاء
مـا سـوى خـلـقـه الـنـسـيـم ولا غـيـر مـحـيـاه الـروضـة الـغـنـاء
رحـمـة كـلـه وحـزم وعـزم ووقـار وعـصـمـة. . . وحـيـاء
لا تـحـل الـبـأسـاء مـنـه عـرا الـصـبـر ولا تـسـتـخـفـه الـسـراء
كـرمـت نـفـسـه فـمـا يـخـطـر الـسـو ء عـلـى قـلـبـه ولا الـفـحـشـاء
عـظـمـت نـعـمـة الإلـه عـلـيـه فـاسـتـقـلـت لـذكـره الـعـظـمـاء
جـهـلـت قـومـه عـلـيـه فـأغـضـى وأخـو الـحـلـم دأبـه الإغـضـاء
وسع الـعـالـمـيـن عـلـمـاً وحـلـمـاً فـهـو بـحـر لـم تـعـيـه الأعـبـاء
مستقل دنياك أن ينسب الإمساك مـنـهـا إلـيـه والإعـطـاء
خـفـيـت عـنـده الـفـضـائـل وانـجـا بـت بـه عـن عـقـولـنـا الأهـواء
أمـع الـصـبـح لـلـنـجـوم تـجـل أم مع الـشـمـس لـلـظـلام بـقـاء؟
معجز القول والفعال كريم الخلـ ق والـخـلـق مـقـسـط مـعـطـاء
كل فضل في العالمين فمن فضـ ـل الـنـبـي، اسـتـعـاره الـفـضـلاء

۞ ۞ ۞

لـيـتـه خـصـنـي بـرؤيـة وجـه زال عـن كـل مـن رآه الـشـقـاء !!

مسفر يلتقي الكتيبة بسا ... ماً إذا أسهم الوجوه اللقاء
جعلت مسجداً له الأرض فاهتز ... به للصلاة فيها حراء
مظهر شجة الجبين على البر ... ء كما أظهر الهلال البراء[1]
ستر الحسن منه بالحسن فاعجب ... لجمال له الجمال... وقاء
فهو كالزهر لاح من سجف الأكـ ... مام والعود شق عنه اللحاء
كاد أن يغشي العيون سنا منـ ... ه لسر فيه حكته ذكاء
صانه الحسن والسكينة أن ... تظهر فيه آثارها البأساء
فإذا شمت بشره... ونداه ... أذهلتك الأنوار والأنداء
أو بتقبيل راحة كان لله، ... وبالله، أخذها والعطاء
تتقي بأسها الملوك وتحظى ... بالعف من نوالها الفقراء
لا تسل سيل جودها إنما يكـ ... فيك من وكف سحبها الأنداء

❁ ❁ ❁

عجباً للكفار زادوا ضلالاً ... بالذي فيه للعقول اهتداء
والذي يسألون منه كتاب ... منزل قد أتاهم... وارتقاء
أو لم يكفهم من الله ذكر ... فيه للناس رحمة وشفاء؟
أعجز الإنس آية منه والجن ... فهلا يأتي بها البلغاء؟!
كل يوم تهدي إلى سامعيه ... معجزات من لفظه القراء
تتحلى به المسامع والأفواه ... فهو الحلي والحلواء !!
إنما تجتلي الوجوه إذا ما ... جليت عن مرآتها الأصداء

---

(١) أول ليلة من الشهر.

سور منه أشبهت صوراً منا ... ومثل النظائر النظراء

والأقاويل عندهم كالتماثيل، ... فلا يوهمنك الخطباء

كم أبانت آياته من علوم ... عن حروف أبان عنها الهجاء

فهي كالحب والنوى أعجب الزرا ... ع منه سنابل و زكاء

فأطالوا فيه التردد والريب ... فقالوا سحر وقالوا افتراء

وإذا البينات لم تغن شيئاً ... فالتماس الهدى بهن عناء

وإذا ضلت العقول على علم، ... فماذا تقوله النصحاء؟

❊ ❊ ❊

أي نور وأي نور شهدنا ... يوم أبدت لنا القباب قباء؟

قر منها دمعي وفر اصطباري ... فدموعي سيل وصبري جفاء

فترى الركب طائرين من الشو ... ق إلى طيبة لهم ضوضاء

وكأن الزوار ما مست البأ ... ساء منهم خلقاً ولا الضراء

كل نفس منها ابتهال وسؤل ... ودعاء ورغبة وابتغاء

وزفير تظن منه صدوراً ... صادحات يعتادهن زقاء[1]

وبكاء يغريه بالعين مد ... ونحيب يحثه استعلاء

وجسوم كأنما رحضتها ... من عظيم المهابة الرحضاء[2]

ووجوه كأنما ألبستها ... من حياء ألوانها الحرباء

ودموع كأنما أرسلتها ... من جنون سحابة وطفاء

(١) صوت الطيور.
(٢) العرق الكثير من أثر الحمى.

فحططنا الرحال حيث يحط الوزر عنا وترفع الحوجاء

وقرأنا السلام أكرم خلق الله من حيث يسمع الإقراء

وذهلنا عند اللقاء وكم أذ هل صبا من الحبيب لقاء

ووجمنا من المهابة حتى لا كلام منا ولا إيماء!!

ورجعنا وللقلوب التفاتات إليه وللجسوم انثناء

وسمحنا بما نحب، وقد يسمح عند الضرورة البخلاء !!

❀ ❀ ❀

يا أبا القاسم الذي ضمن إقسا مي عليه مدح له وثناء

بالعلوم التي عليك من الله بلا كاتب لها إملاء

ومسير الصبا بنصرك شهراً فكأن الصبا لديك رخاء

وبأصحابك الذين هم بعدك فينا الهداة.. والأوصياء

أحسنوا بعدك الخلافة في الدين وكل لما تولى إزاء

أغنياء نزاهة فقراء علماء.. أئمة.. أمراء

زهدوا في الدنا فما عرف الميل إليها منهم ولا الرغباء

أرخصوا في الوغى نفوس ملوك حاربوها أسلابها إغلاء

كلهم في أحكامه ذوو اجتهاد وصواب وكلهم أكفاء

رضي الله عنهم ورضوا عنه فأنى يخطو إليهم خطاء؟

جاء قوم من بعد قوم بحق وعلى المنهج الحنيفي جاؤوا

ما لموسى ولا لعيسى حواريون في فضلهم ولا نقباء

الأمان الأمان إن فؤادي ... من ذنوب أتيتهن هواء !!

قد تمسكت من ودادك بالحبل ... الذي استمسكت به الشفعاء

وأبى الله أن يمسني السو ... ء بحال ولي إليك التجاء

قد رجوناك للأمور التي أبردها ... في فؤادنا رمضاء

وأتينا إليك أنضاء فقر ... حملتنا إلى الغنى أنضاء

وانطوت في الصدور حاجات نفس ... ما لها عن ندى يديك انطواء

فاغتناء يا من هو الغوث والغيث ... إذا أجهد الورى اللأواء

والجواد الذي به تفرج الغمة ... عنا وتكشف الحوباء[١]

يا رحيماً بالمؤمنين إذا ما ... ذهلت عن أبنائها الرحماء

يا شفيعاً في المذنبين إذا ... أشفق من خوف ذنبه البرآء

جد لعاص وما سواي هو العا ... صي ولكن تنكري استحياء

وتداركه بالعناية ما دا ... م له بالذمام منك ذماء[٢]

أخرته الأعمال والمال عما ... قدم الصالحون والأغنياء

كل يوم ذنوبه صاعدات ... وعليها أنفاسه صعداء

فبكى ذنبه بقسوة قلب ... نهت الدمع فالبكاء مكاء[٣]

وغدا يعتب القضاء ولا عذ ... ر لعاص فيما يسوق القضاء

أوثقته من الذنوب ديون ... شددت في اقتضائها الغرماء

ما له حيلة سوى حيلة المو ... ثق، إما توسل أو دعاء

---

(١) الجهد والحاجة أو الهم والغم.

(٢) بقية الروح.

(٣) الصفير.

راجياً أن تعود أعماله السو ... ء بغفران الله وهي هباء
أو ترى سيئاته حسنات ... فيقال استحالت الصهباء
كل أمر تعنى به تقلب ... الأعيان فيه وتعجب الدجواء
آه مما جنيت إن كان يغني ... ألف من عظيم ذنب وهاء
أرتجي التوبة النصوح وفي القلب ... نفاق وفي اللسان رياء
ومتى يستقيم قلبي وللجسم ... اعوجاج من كبرتي وانحناء؟
كنت في نومة الشباب فما ... استيقظت إلا ولمتي شمطاء
وتماديت أقتفي أثر القو ... م فطالت مسافة واقتفاء
فورا السائرين وهو أمامي ... سبل وعرة وأرض عراء
حمد المدلجون غب سراهم ... وكفى من تخلف الإبطاء!!
رحلة لم يزل يفندني الصيف ... إذا ما نويتها، والشتاء
يتقي حر وجهي الحر والبر ... د وقد عز من لظى الاتقاء
ضقت ذرعاً مما جنيت فيومي ... قمطرير وليلتي درعاء[1]
وتذكرت رحمة الله فالبشر ... لوجهي أنى انتحى تلقاء !!
فألح الرجاء والخوف بالقلب، ... وللخوف والرجا إحفاء[2]
صاح لا تأس إن ضعفت عن ... الطاعة واستأثرت بها الأقوياء
إن لله رحمة، وأحق الناس ... منه بالرحمة الضعفاء !!
فابق في العرج عند منقلب الذو ... د ففي العود[3] تسبق العرجاء

(١) مظلمة.
(٢) منازعة.
(٣) قافلة الابل.

لا تقل حاسداً لغيرك هذا ... أثمرت نخلة ونخلي عفاء

وائت بالمستطاع من عمل البر ... فقد تسقط الثمار الإتاء(١)

وبحب النبي فابغ رضا الله ... ففي حبه الرضا... والحباء

يا نبي الهدى استغاثة ملهو ... ف أضرت بحالة الحوباء

يدعي الحب وهو يأمر بالسو ... ء ومن لي أن تصدق الرغباء(٢)

إن يكن عظم زلتي حجب رؤيا ... ك فقد عز داء قلبي الدواء

كيف يصدأ بالذنب قلب محب ... وله ذكرك الجميل جلاء؟

هذه علتي وأنت طبيبي ... ليس يخفى عليك في القلب داء

ومن الفوز إن أبثك شكوى ... هي شكوى إليك وهي اقتضاء

ضمنتها مدائح مستطاب ... فيك منها المديح والإصغاء

قلما حاولت مديحك إلا ... ساعدتها ميم ودال وحاء!

حق لي فيك أن أساجل قوماً ... سلمت منهم لدلوي الدلاء

إن لي غيرة وقد زاحمتني ... في معاني مديحك الشعراء

ولقلبي فيك الغلو وأنى ... للساني في مدحك الغلواء؟

فأثب خاطراً يلذ له مد ... حك علماً بأنه اللألاء(٣)

حاك من صنعة القريض بروداً ... لك لم تحك وشيها صنعاء

أعجز الدر نظمه فاستوت ... فيه اليدان الصناع والخرقاء

فأرضه أفصح امرئ نطق الضا ... د فقامت تغار منها الظاء

---

(١) كثرة الثمر.

(٢) الرغبة في التوبة.

(٣) الفرح التام.

أبذكر الآيات أوفيك مدحاً ... أين مني وأين منها الوفاء؟

أم أماري بهن قوم نبي ... ساء ما ظنه بي الأغبياء

ولك الأمة التي غبطتها ... بك لما أتيتها الأنبياء

لم نخف بعدك الضلال وفينا ... وارثو نور هديك العلماء

فأنقضت آي الأنبياء وآيا ... تك في الناس مالهن انقضاء

والكرامات منهم معجزات ... حازها من نوالك الأولياء

إن من معجزاتك العجز عن ... وصفك إذ لا يحد الإحصاء

كيف يستوعب الكلام سجايا ... ك وهل تنزع البحار الركاء[١]

ليس من غاية لوصفك أبغيها ... وللقول غاية وانتهاء

إنما فضلك الزمان وآيا ... تك فيما نصده الإناء

غير أني ظمآن وجد ومالي ... بقليل من الورود ارتواء

فسلام عليك تترى من الله ... وتبقى به لك البأواء[٢]

وسلام عليك منك فما غيرك ... منه لك السلام... كفاء

وسلام من كل ما خلق الله ... لتحيا بذكرك الأملاء[٣]

وصلاة كالمسك تحمله مني ... شمال إليك أو نكباء[٤]

وسلام على ضريحك تخضل ... به منه تربة وعساء[٥]

---

(١) إناء صغير.
(٢) الفخر.
(٣) جمع ملأ.
(٤) الريح.
(٥) الرملة اللينة.

وثناء قدمت بين يدي نجواي   إذ لم يكن لدي ثراء
ما أقام الصلاة من عبد   الله وقامت بربها الأشياء !!

فها نحن إزاء رؤية إسلامية لأكثر من مسألة، يتناولها فن شعري يتميز بقدر كبير من النضج، والعمق، وطول النفس: الله... الحياة والموت والمصير... السعي البشري والجزاء... البعث والثواب والعقاب... محبة الرسول المعلم عليه السلام ورسم ملامح شخصيته الفذة وتصوير الدور الكبير الذي نفذه في العالم... الندم بعد الخطيئة، والتوبة بعد الضلال... والعودة إلى طريق الله النقي المتوحد المضيء، بعد حياة ملأى بالظلمة والاعوجاج والضياع... تسليم سعيد متوحد بقضاء الله وقدره... تأكيد للقيم الأخلاقية والاجتماعية الصادقة التي يتوجب أن تسود في مجتمع نظيف، متماسك، سعيد... تحقق بالحرية التي أكدها الإسلام واستعلاء على القهر والإذلال... رفض للممارسات اللاأخلاقية الهابطة... تقييم مؤثر للقيادة المجاهدة التي لا تكف عن (الحركة) بجماهير المسلمين لتحرير أرض مغتصبة، أو تقويض طاغوت باغ، وتغن بالتزامها الفذ وتوحدها الصعب.. نفاذ شاعري إلى قلب الوجود، وطموح كادح للتحقق بالمصير...

وقيم ومواقف ورؤى تتداعى عبر القصائد التي اخترناها، وهي ليست سوى نماذج لا يتيح المجال المحدود الاسترسال فيها... ومن بين يديها، ومن خلفها، حشد كبير عسى أن يتاح له يوماً من يعكف على جمعه وتنسيقه، ودراسته وتحليله في عمل مستقل، فرداً كان أم مجموعة من الباحثين والأدباء والنقاد...

شيء عن الالتزام في شعر جلال الدين الرومي

١

منذ عشر سنوات على وجه التحديد، قرأت في المجلدين الأول والثاني المترجمين إلى العربية من (المثنوي) للشاعر الصوفي الكبير جلال الدين الرومي[(١)]... فاستوقفتني بعض أبياته.

(الجدار... إذا كان يلقي على الأرض ظلاً طويلاً

فإن هذا الظل يرتد نحوه

وهذا العالم جبل، وأما أعمالنا فنداء

ولابد أن يعود إلينا صوت ندائنا !!) (ص ٩٣)

أعجبتني الصورة الرحبة التي تمتد بكلماتها القلائل لكي تشمل العالم كله... الإنسان في العالم بعبارة أخرى...

ما الذي يجعله يقدر على هذا؟ إنها قوة الخيال... ليس هذا فحسب ولكنها حرارة التجربة وتوهج الانفعال... واصلت القراءة:

(انظر إلى قدرتك فإن هذه القدرة من الله

---

(١) ترجمة وشرح ودراسة الدكتور محمد عبد السلام كفافي، المكتبة العصرية، بيروت ـ١٩٦٦.

وهي نعمة منه جل شأنه

لا تطفئ شموع الأبصار

فإن البصر هو الشمع الذي ينير الطريق للتأمل الباطني

وإذا أنت تركت النظر، وتركت الخيال

كنت كمن أطفأ في منتصف الليل شمع الوصال..) (ص ١١٨)

(لا تمضِ في طريق اليأس ففي الكون آمال!

ولا تتجه نحو الظلمات ففي الكون شموس) (ص ١٤١)

ليس قوة الخيال فحسب، ولا ألق التوهج فحسب، ولكنها مسؤولية الالتزام وهندسته الفذة أيضاً...

وواصلت القراءة لكي أزداد اقتناعاً بهذا التوافق الصعب بين قوة الخيال، وحر التجربة، وهندسة الالتزام...

(كل يرجع من حيث أتى

فمن قمم الجبال تمضي السيول المندفعة

ومن أجسامنا تمضي الأرواح الممتزجة بالعشق) (ص ١٤٥)

(إن هذه النار حجاب للعين يمنع عنها الرؤية

فها هي ذي الرحمة قد أطلت من الخفاء

فتعالي ياأمي وانظري برهان الحق...

تعالي وانظري الماء الذي يتبدى لك ناراً

ودعي هذا العالم الذي هو نار تبدو كالماء !

تعالي وانظري أسرار إبراهيم الذي وجد في النار السرو والياسمين

لقد رأيت الموت ساعة مولدي منك، وكان خوفي عظيماً إذ كنت أنفصل عنك.

وعندما ولدت، خلصت من حبس ضيق إلى عالم طيب الهواء، جميل الألوان !

وإنني الآن أرى العالم مثل الرحم

بعد إذ رأيت في النار هذه السكينة

لقد رأيت في هذه النار عالماً في كل ذرة منه نفس (عيسى) الذي يهب الحياة...

أقبلي وادعي الآخرين للحضور معك

فإن الملك الحق قد أقام في النار الخوان

بل أقبلوا أيها المؤمنون جميعاً

فكل شيء سوى هذه العذوبة عذاب !

أقبلوا جميعاً مثل الفراش!

أقبلوا إلى ذلك الحظ، فهنا مئة ربيع !) (ص ١٤٧ ـ ١٤٨).

وعندما بلغت هذه الأبيات:

(... ما أهنأ العين التي تبكي من أجله

وما أسعد القلب الذي يحترق في سبيله

وكل بكاء عاقبته الضحك، والبصير بالعواقب عبد مبارك

فأينما وجد الماء الجاري وجدت الخضرة

وحيثما وجد الدمع المنهمر وجدت الرحمة

فكن مثل الساقية باكياً مبتل العينين

حتى تثبت الخضرة في رحاب روحك

وإن أردت الدموع فرفقاً بمن تفيض منه الدموع...) (ص ١٥٠).

أدركت أن الأمر ليس مجرد قراءة سريعة في ديوان مترجم كالدواوين ! إن معايشة الرومي في جزء من عطائه البالغ نحواً من خمسة وعشرين ألف بيت ! لتحتاج إلى أسابيع وأشهر... وربما سنوات...

أن تشبع نهمك إلى خياله البعيد، وتوهجه الذي يكوي، والتزامه الذي يهز العقل... أن تقتنع بهذا التوافق الصعب... عليك أن تضحي بشيء غير قليل من وقتك وإلا كان ضربك في اليم عبثاً، وخروجك إلى الشاطئ تحمل في قبضتيك حفنة من اللآلي... أمراً مستحيلاً...

ومضى عقد من الزمن... وعثرت على الوقت... وها أنا ذا وجهاً لوجه مرة أخرى مع جلال الدين الرومي، لا أفعل سوى أن أغوص مرتين وثلاثاً فحسب، لكي أعرض على القراء الذين يطيب لهم أن يستنيروا بالوهج... ويحترقوا به، شيئاً من تجربة الرجل لكي تعينهم على الطريق...

أما البقاء طويلاً في الأعماق فلا آمن عليه نفسي... إن نفسي قصير، وأنا أخشى الموت غرقاً!!

٢

إن الشعر حصان جموح لن يسلس قياده إلا للقلة الفذة... إنه تدفق عفوي يند عن سيطرة العقل وأحكامه... تخلق ذاتي يجيء من وراء أبواب الرسم والإرادة والتخطيط... إنه عالم بذاته ولذاته... ومن ثم لن نستغرب

إذا طالعنا رأي (سارتر) المعروف بأن العطاء الشعري عطاء غير ملتزم. . . وبقدر ما يتاح الالتزام في ساحة النثر، فإنه في ميدان الشعر يصعب، بل يستحيل أحياناً. . .

والقرآن الكريم يطرح المسألة من زاوية أكثر موضوعية وشمولاً. . . إنه يؤكد على أن التجربة الشعرية هي تجربة هيمان غير عقلاني يتحول، دونما ضابط أو مبرر، من مكان إلى مكان ومن موقف إلى موقف. . . فهو غير ملتزم أبداً. . . إلا أن يأوي إلى حظيرة الإيمان، وإلا أن يكون مجاهداً أو مقاتلاً ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

فإذا ما أضفنا إلى جموح الشعر عنفوان التجربة الصوفية التي يعانيها بعض الشعراء؛ أدركنا كم هو صعب مبهظ أن يكون الشاعر الصوفي ملتزماً. . .

وهاهنا. . . من التزام الرومي، الشاعر الصوفي، وهندسته المرسومة لكلماته وتعابيره وأفكاره ومضامينه وصوره وأخيلته وتراكيبه. . . من قدرته الفذة على تطويع التجربة المتدفقة من وراء الوعي والشعور والتعقل. . . من تمكنه من لوي عنقها واستخدامها لما هو أكبر: رؤيته الدينية الشاملة، وإيمانه العميق. . . من هنا عبقرية الرومي وتألق الدور الذي لعبه ليس على مسرح الشعر الإسلامي فحسب، بل على مسرح الشعر العالمي كله !!

إن الرومي يتميز بقوة الخيال. . . وهذه بإضافتها إلى عنفوان التجربة التي يصنعها الإحساس الشعري والمعاناة الصوفية، تصنع شاعراً ممتازاً من المصاف الأول. . .

---

(١) سورة الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

لكن الأمر عند الرومي لم يقف عند هذا الحد، بل إنه أعطى شعره ميزة أخرى... القدرة على الالتزام، وعدم السماح للتخلق الشعري بالهيمان غير المسؤول في وديان المعاني، والتفجرات، والصور، والأفكار...

إنه كان يقاتل جاهلية عصره... والشعر المقاتل يكون ملتزماً دائماً، لأن المقاتل الحق لا يحمل إلى المعركة سلاحاً لا يعرف كيف يطلق منه رصاصة أو سهماً...

إن معركة الشعر المقاتل هي معركة شعراء كبار عرفوا كيف ينحتون الكلمة، وكيف يضربون بها الأهداف...

ليس ثمة فوضى... ليس ثمة تخبط... ليس ثمة ضرب في غير هدف على الإطلاق... إن التزام الرومي الإسلامي !! ليتبدى في كل مثنوية من مثنوياته وفي كل بيت من أبياته... إنه يعرف كيف ينظر إلى العالم، وهو يكتوي بحر التجربة الملتهبة، فلا ينصهر ويخرج عن دائرة الالتزام... يعرف كيف ينظر من نافذة العقيدة التي انتمى إليها... كيف يطل على العالم من فوق، من المكان العالي الذي رفعه إليه الإسلام، ورفع كل الذين آثروا اختياره وحده من بين عشرات، بل مئات، المناهج والأديان التي شرعها للعباد عباد مثلهم من الوضاعين والكهنة والمرتزقة والطواغيت...

وفي عدد غير قليل من قصائده يبدو التزامه متألقاً في كل جزئية من جزئياته... لنقل إنه الدم الذي يتفجر في أوردة عطائه الشعري وشرايينه، ينبثق عفوياً صافياً حلواً من باطنها، ويتخلق معها، لأنه يصدر عن الرجل الذي يعيش التجربة ولايدعيها... وفرق نوعي كبير بين أن يأتي الالتزام من فوق لكي يضبط التجربة بقالبه الصارم، ورؤيته الحادة، وبين أن يتدفق من باطن التجربة، ويجري في أوصالها وهي تتخلق كما يجري الدم النقي في شرايين الأجنة فيهبها الحركة والحياة...

٣

وإذا لاحظ القارئ في شعر الرومي طغياناً للفكرة على التعبير، وللمعنى على التركيب اللفظي، وللمضمون على الأسلوب، فلا يصدمنه ذلك فيصدر حكمه متسرعاً متعجلاً... ذلك أن نقل التجربة الشعرية من مناخها الأصلي... تحويلها عن لغتها الأولى التي صيغت بها إلى مناخ جديد ولغة غريبة، سيفقد التجربة ـ ولا ريب ـ الكثير، من تألقها التعبيري وجمالياتها الأدائية، وسيضعف من قدرتها اللغوية... ومهما كان المترجم بارعاً، كالدكتور محمد عبد السلام كفافي، في الجزءين اللذين بين أيدينا، فإنه محتوم عليه أن يهبط بلغة التجربة إلى المرتبة الثانية، لكي لايتبقى هناك في القمة إلا المعنى... فلا بأس!!

ومع ذلك، فالقارئ لابد أن يلاحظ، وهو يقرأ في (المثنوي)، جنوح الرومي في عدد غير قليل من مقطوعاته إلى نوع من المناقشات الفكرية التي تتميز بالصرامة والجفاف، وتقطع التدفق الوجداني، الغنائي، لمعطيات الديوان... وفي مقطوعات أخرى يتبدى ميل الرومي إلى الوعظ والإرشاد، الأمر الذي يصبغها بروح من المباشرة والتعليمية التي تهبط بها عن تلك المستويات العليا التي حلقت فيها مقطوعاته التي عالجت الفكرة الملتزمة من بعيد، ومن وراء مجازات الشعر وتكويناته التعبيرية وأدواته الجميلة وصوره وأخيلته... ولعل ممارسة الرومي لمهام الوعظ والإرشاد في المراحل المختلفة من حياته الفكرية قد طبع بصماته على ملامح عدد من قصائده... ومرة أخرى، فإن نقل التجربة الشعرية من مناخها الأصلي يفقدها ـ ولا ريب ـ شيئاً غير قليل من تألقها وجمالها...

وثمة مآخذ أخر يبدو واضحاً في التفصيل الذي يمارس فيه الرومي طرح بعض مواضيعه، متتبعاً الجزئيات بأكبر قدر من الأمانة، مسلطاً الضوء على

كل مساحات الموضوع وزواياه، غير تارك للقارئ أيما قدر من الحدس والتخمين والمتابعة الفكرية والوجدانية للمعضلات التي قد تتفجر من خلال الطرح الشعري... إن التفصيل هو نقيض التركيز، وتغطية الجزئيات يفقد القصيدة توترها وتأثيريتها وشدها للفكر والوجدان...

ومن حق قارئ القرن العشرين ألا يستسيغ ـ كذلك ـ العناوين القصصية المطولة لقصائد (المثنوي)... ويشعر بارتطام قاس... بصلابة هذه العناوين، وتكوينها النثري التقريري السائد، والتي أريد بها أن تكون مفتاحاً يقود القارئ إلى صميم العمل الفني المترع شاعرية، وعذوبة، ونداوة... إن عنوان القصيدة، كما اعتاد قارئ القرن العشرين، يتوجب أن يكون متوتراً عذباً، ومركزاً لماحاً قديراً بإثارته للتداعيات على تهيئة القارئ للتجاوب والتناغم مع المناخ الوجداني والفكري للعمل الشعري.

إننا نقرأ ـ على سبيل المثال ـ عناوين كهذه لقصائده العذبة (حكاية عشق ملك لإحدى الجواري وشراء الملك هذه الجارية)، (كيف ظهر للملك عجز الحكماء عن معالجة الجارية، وكيف توجه الملك إلى حضرة الله فرأى ولياً في المنام)، (الدعاء إلى الله ولي التوفيق أن يوفقنا لرعاية الأدب في جميع الأحوال، وبيان وخامة الأضرار التي تنجم عن فقدان الأدب)، (لقاء الملك للطبيب الإلهي الذي بشر بلقائه في المنام)، (بيان أن قتل الصائغ وإعطاءه السم كان بإشارة إلهية وليس نتيجة لهوى النفس والتأمل الفاسد...) إلى آخره من العناوين التي تذكرنا بأشباهها في حوليات (الطبري) وفصول (ابن سينا) وغيرهما من المؤرخين والفلاسفة والحكماء... ولعله تقليد سائد يومها أن تعنون القصائد بصيغ تقريرية كهذه... تماماً كما كان تقليداً سائداً ألا تعنون القصيدة العربية، وأن يكتفى بإيراد المناسبة التي قيلت فيها... وإنه ما كان للرومي ـ إنصافاً له ـ إلا أن يساير التقليد...

وهذا يقودنا إلى مسألة (فنية) أخرى قد يختلف فيها القراء... تلك هي اعتماد الرومي التكنيك القصصي إطاراً لمثنوياته... ذلك أن الرجل يخاطب جيله... ويومها كان الأداء القصصي، نثراً وشعراً، هو الطريقة الفنية الأكثر قبولاً وتاثيراً... وما أكثر الأعمال الشعرية الكبيرة في آداب الشرق والغرب على السواء، تلك التي اعتمدت هذه الطريقة في طرح معطياتها، ابتداء من عصر الملاحم اليونانية الأولى... الإلياذة والأوديسّة وحتى عصر الملاحم الإسلامية والفارسية التي أبدعها شعراء كبار كالفردوسي وسنائي والعطار وسعدي وشيرازي والرومي... وها نحن في القرن العشرين نقلب صفحات دواوينه الشعرية التي دبجتها أيد شرقية وغربية؛ فنجد الكثير من صفحاته يعتمد التكنيك القصصي نفسه إطاراً لعروضه...

ومهما يكن من أمر فإن القصة لدى الرومي لا تعدو أن تكون مجرد أداة لتمرير الحوار الأخاذ على ألسنة أبطاله وشخوصه، ذلك الحوار الذي يتفجر حكمة وعذوبة ودهشة وتداعياً ونداوة وجمالاً...

٤

ولد جلال الدين محمد بن أحمد البلخي ثم القونوي المعروف بالرومي في مدينة بلخ عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) وقد لقب بالرومي نسبة إلى أرض الروم (بلاد الأناضول) حيث قضى معظم حياته. كان أبوه فقيهاً من أتباع المذهب الحنفي، والظاهر أنه أحرز مكانة مرموقة حتى لقب بسلطان العلماء. وحين شعر بقرب هجوم المغول غادر بلخ عام ٦٠٩ هـ مصطحباً أسرته، يتنقل بها من مدينة إلى أخرى... نيسابور، بغداد، مكة، ثم بلاد الأناضول حيث استقر بقونية بشاعرنا المقام، وكانت عاصمة للسلطان السلجوقي الذي يتزعم سلاجقة آسيا الصغرى، وقد توفي أبو الشاعر في هذه المدينة عام ٦٢٨ هـ.

تلقى الرومي أول الأمر تعليمه على أبيه ثم على عدد من الشيوخ، وما لبث أن غادر قونية إلى دمشق حيث أقام سنين طويلة، وعاد إلى قونية لكي يتولى التدريس فيها عام ٦٢٨ هـ، وبقي فيها لايفارقها إلا ليعود إليها، وهناك تجمع حوله عدد من التلامذة والمريدين.

ظهرت عبقرية الرومي كشاعر في فترة كان قد بلغ فيها مرحلة متقدمة من النضج الفكري والنفسي، ولكن العجيب في تلك العبقرية أنها جعلت إنتاجه العقلي بعد أن قارب الأربعين يختلف اختلافاً كلياً عن إنتاجه السابق على ذلك. لقد كان واعظاً وعد من الفقهاء الأحناف، فأصبح صوفياً فناناً شاعراً، وحكيماً أخلاقياً، وفيلسوفاً إنسانياً.

كيف حدث كل هذا؟ إن المصادر تصور لنا هذا الانتقال بأنه كان فجائياً نشأ من التقاء الشاعر بصوفي كثير التجوال كان يدعى شمس الدين التبريزي، قضى معه مدة عام أو عامين ٦٤٢ - ٦٤٣ هـ وكان له أعمق الأثر في نفس جلال الدين، حتى ليقال إنه أنشأ طريقته الصوفية ـ التي عرفت فيما بعد بالطريقة المولوية ـ ذكرى لأستاذه شمس الدين. ولكن وقوع الانقلاب في حياة الرومي لايمكن أن يحدث بتلك الصورة المفاجئة. فلابد أن الرومي كان ميالاً إلى التصوف، نزاعاً إلى ذلك التأمل الروحي العميق، وأنه بعد التقائه بذلك الصوفي وجد نفسه وأدرك حقيقته، فانطلق في الطريق الذي كان مقدراً له أن يخلد اسمه على الأيام، ويضعه في مصاف الخالدين من شعراء العالم ومفكريه.

عاش الشاعر حياة قديس، يعلم ويرشد ويحضر مجالس السماع والطرب الصوفية، وقد أحاط به عدد كبير من التلاميذ والمريدين إلى أن توفي في جمادى الثانية عام ٦٧٢ هـ ولقي بعد موته من التكريم ما لقي في حياته، وبني له ضريح أقيمت فوقه قبة عرفت بالقبة الخضراء، أضيف إليها بعد انتهائها مبان أخرى.

ترك الرومي بعد وفاته ثلاثة مؤلفات نثرية تتضمن مواعظ وخطباً ورسائل وأحاديث ومحاضرات، وهي (المجالس السبعة) و (مجموعة الرسائل) و (فيه مافيه) الذي جمعه أحد أبنائه أو مريديه، كما ترك ثلاثة أعمال شعرية هي (شمس تبريز) في ذكرى صديقه وموجهه الروحي شمس الدين التبريزي، و(الرباعيات) و(المثنوي).

وكلمة المثنوي تعني ذلك النظم الذي يعرف بالمزدوج في العربية، وهو يعتمد في التقفية على توحيد القافية بين شطري كل بيت من أبيات المنظومة. فكل بيت من الأبيات تكون له قافيته المستقلة، وبهذا تتحرر المنظومة من القافية الموحدة التي طالما عاقت شعراء العرب عن نظم المطولات. وينقسم الكتاب إلى ستة مجلدات تضم نحواً من خمسة وعشرين ألف بيت (كل جزء من الأجزاء الستة يشتمل على نيف وأربعة آلاف بيت)، ولا تتصل تسمية الكتاب بموضوعه، وإنما بشكل قوافيه، فهي تسمية شكلية بحتة[١].

٥

ما هي أبعاد الالتزام ومؤشراته في شعر الرومي؟

هاهنا، من خلال التعامل المباشر مع الشاهد الفني، كما يريد زعماء النظرية الحديثة في النقد: (سوريو) و(بايير)، وغيرهما، يمكن أن نتبين الكثير من هذه الأبعاد والمؤشرات: التصور الإيماني الموزون لمسألة القدر والحرية... التوحيد المطلق لله سبحانه والتأدب المرسوم في الحوار بعيداً عما يسمى بالشطحات الصوفية التي تند أحياناً عن الذوق الإيماني

(١) انظر بالتفصيل د. محمد عبد السلام كفافي: مثنوي جلال الدين الرومي، الكتاب الأول، ترجمة وشرح ودراسة، ص ١ـ١٤، المكتبة العصرية، بيروت ـ١٩٦٦، جلال الدين الرومي: حياته وشعره، ص ٢١ـ٥٤، دار النهضة العربية، بيروت ـ١٩٧١.

الصافي... التأكيد على القيم والأخلاقيات الإسلامية... اعتماد معطيات القرآن والسنة، المحبة الإلهية التي تستقيم فلا ينحرف بها طريق... الرؤية الشمولية للوجود والتي تتجاوز جدران المادية إلى ما وراء، وشدها المبهظ إلى فوق... الواقعية الإيجابية والتوازن...الصراع الدائم بين الخير والشر... بين الإنسان والشيطان... بين المحبة والبغضاء... الإحساس المتفائل بالتجدد والتغير والأمل... الحنين العميق إلى الأصول الأولى... التناغم الميتافيزيقي مع الكون والعالم والمخلوقات والأشياء... قوة الروح والكلمة وخلودها... رفض الطغيان، والاستعلاء على الطواغيت...

تلك هي رؤوس أقلام عريضة (مانشيتات) لعدد فحسب من أبعاد الالتزام ومؤشراته... وهي كما نرى تنبثق عن رؤية إسلامية أصيلة وتتعانق معها...

وعلى مستوى الشكل أيضاً يعود الرومي لكي يؤكد التزامه: الاتكاء على قصص الأنبياء عليهم السلام (إطاراً) لكثير من معطياته الشعرية... اعتماد العديد من الشخصيات الإسلامية عبر التاريخ لبناء حواره... استخدام الرموز الحيوانية في أجواء تسودها الألفة الميتافيزيقية بما يتجاوز دائرة الحكمة الصرفة باتخاذ الحيوانات كمجرد أدوات أو وسائط لتمرير الحوار على طريقة (كليلة ودمنة)... تأجيج الصراع الدائم ضد الشر والقبح والرذيلة متمثلة بالشيطان... وضد الطاغوت متمثلاً (بفرعون)، الأمر الذي يمنح قصائده بعداً درامياً مثيراً...

وها نحن ندلف، بعد هذه الأسطر القلائل إلى عالم الرومي الرحيب، لنقف عند بعض جوانب التزامه... فلا يروعنّ القارئ كثرة ماسنورده من شواهد، لأن هذه الصفحات ليست دراسة لشعر الرجل[1]، بقدر ماهي

(١) انظر: كفافي: المرجعين السابقين، والمؤلف المذكور هو أستاذ الآداب الإسلامية بجامعتي القاهرة وبيروت العربية، وصاحب القدح المعلى في تعريف القارئ العربي بعالم ابن الرومي الفني، وحياته.

(تأكيداً) لالتزامه من خلال تحديد أنماط هذا الالتزام وعرض عدد من قرائنه... وسنقف عند البيت رقم (٢٠٠٠) من الكتاب الأول... وهو ـ كما رأينا ـ واحد من ستة كتب يتضمنها المثنوي، كي لايطول بنا السرى ويتشعب الطريق... وألفا بيت هي ولا ريب مجال طيب لمتابعة التزام الرجل، وتذوقه... راجين ألا يكون اعتمادها نوعاً من الاقتطاع القسري...

٦

يتناول الرومي مسألة القدر والحرية في مساحات واسعة من شعره... تلح عليه... فيعرضها بالطريقة الوجدانية التي تتميز بالنقاء، والرؤية الشمولية، والتوازن والتقدير البصير لموقع الإنسان في العالم، ودوره في الخارطة الكونية، وأحاطته بإرادة الله الذي وسع كل شيء علماً... الطريقة الوجدانية التي تصل إلى هدفها دونما غبش ولا تعتيم مما يثير نقع معارك الجدل الكلامي والتمحل الفلسفي؛ الذي عاناه بعض أجدادنا ممن أوقرت عقولهم وأفئدتهم أكداس من فلسفة اليونان الوثنية، فانحنوا أمامها خاشعين، وتجاوزوا، على إيمانهم العميق وذكائهم المتوقد، إنه ليس بالمنطق العقلاني الصرف تحل مسألة هي خارج نطاق العقل الصرف، وأوسع بكثير من قدرته على الامتداد... إنهم سعوا إلى أن يعطوا رقماً نهائياً لحاصل جمع عشرين رقماً ينتمي كل منها إلى فصيلة هي غير الفصيلة التي تنتمي إليها الأرقام الأخرى...

إن الرومي، وهو يستمد رؤيته من كتاب الله مباشرة، يعطينا المفتاح، بضربات الفن الوجدانية التي تعرف كيف تسوي النتوءات التي تصد العقل، فتمنح الطريق حتى نهايته... متوازياً... مضيئاً... مستقيماً... لولا أنه ينحرف أحياناً باتجاه مواضعات الفكر وجفافه... ربما بسبب ترجمة شعره

إلى لغة أخرى، فيفقد بذلك وزنه وإيقاعه وموسيقاه، فكأننا ـ أحياناً ـ لا نقرأ شعراً، وإنما نتابع نقاشاً فلسفياً:

(ليس لأحد قوة تجعله يحرك يدا للدفاع... ولا نطق ينبس بكلمة عن الضر والنفع فاقرأ في القرآن تفسير البيت (السابق) فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

فإذا رمينا بسهم فليس اندفاع السهم منا، فنحن القوس.

وأما الذي يلقي بالسهم فهو الله.

وليس ذلك قولاً بالجبر، وإنما هو معنى الجبروت، وذكر الجبروت جاء لكي يستشعر الذلة.

وذلنا دليل اضطرارنا، وأما خجلنا من الآثام فهو دليل اختيارنا.

ولو لم يكن هناك اختيار، فما هو الخجل من الإثم، وما ذلك الأسف والتحرج والحياء؟

ولماذا يكون زجر الأساتذة للتلاميذ؟ ولماذا ينصرف الخاطر عما استقر عليه من تدبير؟.

فإن كنت لا ترى جبره، فلا تتحدث عنه، وإن كنت تراه فأين دليل ذلك؟

إنك لترى قدرة نفسك عياناً في كل عمل يكون لك ميل إليه.

ولكنك ـ عندما لا يكون العمل وفق ميلك وعلى مرادك ـ تصبح مجبراً وتقول: إن هذا من الله!!) (ص ١٣٢ ـ ١٣٣).

فهاهنا يعرف الرومي كيف يرسم لنا بفرشاته حركة الإنسان الحسية والنفسية بين الجبر والاختيار، وهو يرفض، في مقطع آخر، الفكرة الفلسفية

القائلة بحتمية فعل الصفات الشيئية، فالنار لابد أن تحرق وحد السيف لابد أن يقطع... يقول: إن الله هو الذي منح النار صفة الإحراق، وهو قادر في حالات ما ولحكمة ما أن يكفها عن الإحراق... ويضرب لذلك مثلاً:

(لقد اتجه الملك إلى النار وقال: أيتها الحادة الطبع!

أين طبعك الذي من شأنه أن يحرق الدنيا؟

كيف لا تحرقين؟ وأين خصائصك؟ هل انعكست نيتك لسوء طالعنا؟

إنك لا ترحمين عابدك، فكيف نجا منك من لا يعبدك؟..

عجباً لهذه النار المشتعلة العالية، كيف لا تحرق؟

أفوق عيني غشاوة، أم على عقلي حجاب؟

فقالت النار: إنني لم أتبدل! أنا النار؟ ادخل الآن في فتشعر بضرامي!

وطبعي لم يتغير ولا عنصري! أنا سيف الحق أقطع بإذنه!..

فإذا كانت نار طبعك تبعث الغم في نفسك فإنها تحرقك بأمر مليك الدين.

وإن كانت نار طبعك تبعث في نفسك السرور فإن مليك الدين قد وضع فيها السرور.

وإذا أصابك الغم فاستغفر الله، إن الغم جاءك بأمر الله فلا تقف جامداً.

فهو إذا شاء صار الغم سروراً، وأصبح القيد في القدمين حرية وانطلاقاً!!

(إن) السبب الروحي يجعل السبب الظاهري عاملاً فعالاً في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى يجعله عاطلاً لا ثمرة له.

وهذا السبب الظاهري تألفه عقول عامة البشر،

وأما الأسباب الروحية فلا يألفها إلا الأنبياء...

إن الهواء يصبح ناراً بأمر الحق، وكل منهما سكران من خمر الحق.

وإنك لترى - يا بني - إذا أحسنت النظر، أن ماء الحلم ونار الغضب هما من الله.

ولو لم تكن الريح عارفة بالحق، فكيف كانت تفرق بين المؤمنين والكفار من قوم عاد؟) (ص ١٥٠ - ١٥٢).

إنها إرادة الله... لكن حرية الإنسان تظل عاملة ضمن دائرتها الكبرى لمن أراد أن يعمل (فلا تقف جامداً، فهو إذا شاء صار الغم سروراً، وأصبح القيد في القدمين حرية وانطلاقاً)!

(إن نار الشهوة لم تصب أهل الدين، ولكنها هبطت بمن عداهم إلى قاع الثرى.

وموج البحر - إذا تدفق بأمر الله - ميز بين قوم موسى وبين أهل مصر.

والأرض - عندما جاءها الأمر - سحبت قارون بذهبه وعرشه إلى قاعها.

والماء والطين - حينما ارتويا من أنفاس عيسى؛

انبثقت لهما قوادم وخوالف وأصبحا طائراً يحلق.

ولقد رقص جبل الطور لما رأى نور موسى، وأصبح صوفياً كاملاً، وبرئ من النقص.

وأي عجب إذا صار الجبل صوفياً عزيزاً؟

أو لم يخلق جسم موسى أيضاً من قطعة من طين؟) (ص ١٥٣ - ١٥٤).

وهكذا يتخلق فعل الإنسان فيتشكل معه وجوده ويتحدد مصيره، خيراً كان أم شريراً، نبياً كان أم شيطاناً... إنه الفعل الذي يرفع ويخفض...

ينجي ويغرق... يطير ويرتكس... يصل بالإنسان إلى الكمال وينحط به إلى الدرك الأسفل... الفعل الذي يجعل من كتلة الطين جبلاً صوفياً أو بشراً نبياً... حيثما التقت إرادة الله بحرية الإنسان المتاحة ضمن دائرتها الكبرى... ومن لم يسع للصعود بفعله إلى فوق فلا يأمنن من الغرق إذا جاء الطوفان ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[1].

وهذا حوار بين الأسد والوحوش فيه شيء غير قليل من جفاف المعادلات الفكرية، ولكن فيه كذلك تأكيد وتوسيع لأطروحات الرومي ورؤيته لمسألة القدر والحرية... إن التوكل على الله مطلوب، وما هو مطلوب كذلك الأخذ بالأسباب التي بثها الله في العالم وأودعها فينا؛ لكي نقدر على أداء مهمتنا في الأرض...

(قال الأسد: إذا كان التوكل هو المرشد الصادق فإن الإفادة من الأسباب هي أيضاً سنة النبي.

فقد نادى الرسول بأعلى صوته: (اعقل فخذ بعيرك وتوكل على الله).

واستمع إلى مغزى قول القائل (الكاسب حبيب الله).

ولا تكن بتوكلك متراخياً عن الأسباب والوسائل.

فقالت الوحوش للأسد: اعلم أن الكسب من ضعف الخلق.

فليس هناك كسب أحسن من التوكل، وأي شيء أحب إلى الله من التسليم؟

فكم يفر المرء من بلاء ليقع في بلاء آخر، وكم يهرب المرء من الثعبان ليلقى التنين !!

---

(١) النساء: ١٢٣.

لقد احتال الإنسان فكانت حيلته شركاً وقع فيه، وكان موته فيما حسب أنه حياته !

فقد أوصد الباب والعدو في منزله، وإن حيلة فرعون لم تكن إلا قصة من ذلك النوع، فهذا الحقود قد قتل ألوف الأطفال، بينما كان الطفل الذي يبحث عنه في منزله !

إن بصرنا يعاني الكثير من العلل، فاذهب وأفن بصرك في بصر الحبيب!

فإذا أصبح إبصارنا إبصاره فما أجمل العوض؟ إنك ببصره تجد كل أمل تتطلع

إليه . . .

فذلك الإله الذي ينزل الغيث من السماء، قادر أن يمنحنا الخبز رحمة منه وإشفاقاً.

فقال الأسد: نعم ! ولكن رب العباد وضع سلماً أمام أقدامنا.

فالواجب أن نصعد السلم درجة درجة نحو القمة، وأما القول بالجبر هنا فإنه طمع ساذج.

إن لك ساقين، فكيف تجعل من نفسك إنساناً أعرج؟ وإن لك يدين فكيف تخفي أصابعك؟

فالسيد عندما يضع الفأس في يد عبده يتضح مراده دون حاجة إلى القول.

فاليد مثل الفأس، إشارة منه إلينا لنسعى، والتفكر في العقبى عباراته الموجهة إلينا.

فإن جعلت إشاراته في قليل، ضحيت بروحك من أجل تحقيق ما أشار به فإشاراته تمنحك الأسرار، وتضع عنك وزرك، وترفع قدرك.

وإن حمل أمانته ليجعلك محمولاً إلى عليين، وأن تقبل أوامره ليجعلك مقبولاً عنده.

وإذا قبلت أمره أصبحت ناطقاً بأمره، وإن كنت تبغي الوصل أصبحت واصلاً من بعد ذلك القبول.

إن السعي لشكر نعمته لهو القدرة والاختيار، وأما إنكار النعمة فهو الجبر.

فشكرك على القدرة يزيد من قدرتك وحرية إرادتك، وأما الجبر فيخرج تلك النعمة من يديك.

واعتقادك الجبر مثل النوم في الطريق، فلا تنم! وكن يقظاً حتى ترى الباب والصرح!

حذار أيها الجبري الذي لا يعتبر! لا تنم إلا تحت هذه الشجرة المثمرة!

فلسوف تهز الريح الغصون في كل لحظة فتساقط على النائم نقلاً وزاداً.

إن اعتقاد الجبر كالنوم بين قطاع الطرق، وهل يجد الأمان طائر لم يكتمل جناحاه؟!

فإذا توكلت على الله فتوكل عليه في عملك.

ألق البذور ثم توكل على الخالق الجبار!!) (ص ١٥٨ ـ ١٦٢).

وبعد أن يطرح المزيد من الصور لتأكيد رؤيته (ص ١٦٣ ـ ١٦٤) يقول:

(ليس الجهاد في مغالبة القضاء، ذلك لأن القضاء هو الذي فرض علينا ذلك الغلاب. إنك لست مكسور الرأس، فلا تعصب رأسك!

وابذل جهدك يوماً أو يومين ثم اضحك إلى الأبد!..

فالجهد حقّ كما أن الدواء حق، والمرض حق، وما منكر الجهد إلا جاهد في إنكار جهده) (ص ١٦٥ ـ ١٦٦).

وفي مكان آخر يعود إلى (الفكرة) ذاتها.. هجوم ساخر على الجبر بمفهومه السلبي؛ الذي يشل فاعلية الإنسان وقدراته التي أودعها الله فيه...

(... كل من بقي ـ لتراخيه وكسله ـ بلا شكر ولا صبر، فهو يعلم أنه يسير في طريق الجبر.

وكل من اتخذ الجبر مذهباً، أمرضه الجبر، ولازمه حتى يودعه قبره. ولقد قال الرسول: (إن من يتمارض يمرض حتى يموت كما ينطفئ السراج).

فما الجبر؟ إنه ربط لعضو قد كسر، أو وصل لعرق قد قطع.

فإذا لم تكن قدمك قد كسرت في تلك الطريق فممن تهزأ؟ ولماذا ربطت تلك القدم؟

ومن يكسر قدمه في طريق الاجتهاد ويصل إليه براق يمتطيه...)(ص ١٧٤ ـ ١٧٥).

وإن في الأبيات الأخيرة حقاً لواحدة من مئات الصور الكاريكاتورية الساخرة التي ترسمها ريشة الرومي فتنطبع في الذهن والوجدان... فلا تفارقهما!!

وفي مقابل هذه السخرية يضع لمسة واحدة، بكلمات قلائل، توجز البديل المطلوب، وتصور، في الوقت نفسه، قدرته على الفاعلية والانطلاق...

والإنسان معرض في (فعله) للضياع في كل لحظة... لخداع البصر أو عمى الألوان... فلا يكاد يرى الأشياء على حقيقتها... فيقع في مظنة

الهوى والأوهام. . . صحيح أن الله سبحانه قد منح الإنسان الحرية في مساحة ما من حياته، إلا أن عليه أن يكون حذراً. . . حتى أشد المؤمنين إيماناً. . . بل إن أشدهم إيماناً، لهو بأمس الحاجة إلى الحذر. . . ففعل الإنسان دونما معونة من الله ذي الإرادة المطلقة، لن يقدر على الكشف النهائي عن طبيعة القيم والأشياء. . . وقد يضيع. . . ومن ثم يرسل الرومي هذا الدعاء، ويلح على الآخرين أن يرسلوه. . . نقياً. . . عميقاً. . . خالصاً:

(. . . يا علام الغيوب! لا تسحقنا بحجر من مكر السوء.

وإن كنا قد أتينا فعل الكلاب، فلا تطلق علينا الأسد من مكمنه يا خالق الأسد!

ولا تجعل للماء العذب صورة النار، ولا للنار صورة الماء!

إنك حين تسكرنا بشراب قهرك، تجعل للعدم صورة الوجود.

فما السكر؟ إنه حجاب للعين عن الأبصار، فيظهر لها الحجر جوهراً والصوف عقيقاً!

وما فقدان الوعي؟ إنه إبدال للحس، فيبدو للعين خشب الطرفة صندلاً). (ص ١٨٦).

وما الإنسان؟ وما حريته؟ إزاء (قضاء) الله الشامل الذي يحيط بكل الخلائق والموجودات والأشياء؟ إن الرومي يرجع فيؤكد الجانب الأكبر والأخطر في الصورة كيلا يتوهم أحد أنه يذهب إلى الطرف الأقصى في التأكيد على حرية الإنسان، وتفلته من كل قيد، فوقياً كان أم تحتياً. . . إنه كمؤمن صادق الإيمان، يملك في وجدانه وفؤاده جوانب الصورة كلها بألوانها وظلالها وخطوطها وتكويناتها ومساحاتها، كما علمه القرآن أن تكون. . . فهو إذاً ما حدث وإن ضرب فرشاته لتعميق مجرى حرية الإنسان

عاد فضربها لكي ترسم لنا دائرة القضاء الإلهي الشامل الذي يلف، فيما يلف، حرية الإنسان بما أنه جزء لايتجزأ من قدر الله، وقضائه في الكون... والعالم... والتاريخ...

(... إن الغراب المنكر لحكم القضاء كافر، ولو كانت له آلاف العقول!!.

إنني أبصر الفخ في الهواء، إذا لم يحجب القضاء عين عقلي.

وحينما يأتي القضاء ينام العلم، ويغدو القمر أسود، ويحجب الشمس.

فمتى كانت مثل هذه التعمية نادرة من القضاء؟

اعلم أن من القضاء أن ينكر المرء القضاء!) (ص ١٨٩).

هكذا... حتى تمرد الإنسان على القضاء هو في نهاية الأمر محكوم بالقضاء، لأنه موقف، ومواقف الإنسان جميعاً محسوبة في دائرة الإرادة الإلهية النافذة وعلمه الشامل المحيط.

وقد يسأل سائل، وكثيراً ما يسأل: كيف يختم الله على قلب هذا الإنسان بالكفر وقلب ذاك بالإيمان؟

إن الذين عايشوا القرآن، وعاشوه، يعرفون الجواب جيداً... إن الله سبحانه يعلم علماً لدنياً يعلو على جدران الزمان، مجرى الفعل البشري: أين يبدأ، وكيف يلتوي به الطريق، وفي أي مكان يصب... ومن ثم يصدر حكمه، دون أن يشكل هذا الحكم أي تقاطع مع حرية الإنسان الذاتية في اختيار هذا الطريق أو ذاك، رغم أنه صائر إلى هذا المصير أو ذاك... إن الذين يتدبرون القرآن يعرفون الأمر جيداً... والرومي يطرح هاهنا بداهاته الإيمانية بصوت الشعر، وصوره، وأخيلته، وقناعاته الوجدانية:

(إن عندنا لكل شيء اسمه الظاهري، وأما سر هذا الاسم فلدى الخالق.

فالخشبة التي كان يمسك بها موسى، كان اسمها عنده عصا، وأما عند الخالق فكان اسمها حية، وقد كان لعمر هنا في الدنيا اسم عابد الأصنام.

ولكن اسم الإيمان كان له من قبل أن يولد.

فكل ما كان عندنا في عداد النطف كان ماثلاً أمام الحق كأنه معه.

لقد كانت هذه النطفة صورة في العدم، ولكنها كانت موجودة أمام الحق بدون زيادة أو نقصان.

إن عاقبة أمرنا هي التي تمثل حقيقة اسمنا عند الخالق،

فهو يسمي المرء بعاقبته، لا بما يكون عارية مؤقتة.

إن عين آدم حين أبصرت بالنور الطاهر تجلت لها أرواح الأسماء وأسرارها.

وعندما أبصر الملائكة أنوار الحق في آدم خروا وسارعوا لتمجيده.

لقد أدرك كل هذا، ولكنه حين وقع القضاء أخطأ في إدراك نهي واحد.

فقد عجب، أهذا النهي كان من أجل التحريم، أم أنه كان قابلاً للتأويل ومجالاً للوهم؟

وعندما رجح في قلبه التأويل، سارع طبعه في حيرة نحو القمح.

فلما أصابت الشوكة قدم البستاني (آدم).

وجد اللص (إبليس) فرصته وسارع إلى حمل الثمار.

وحينما خلص آدم من حيرته، عاد إلى الطريق السوي فوجد أن اللص قد سرق المتاع من دكانه فتأوه قائلاً: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

يعني أن الظلمة قد حلت وضاع الطريق، فهذا القضاء سحاب يحجب وجه الشمس، وهو يجعل الأسد والتنين مثل النار، فإن كنت لا أرى

الفخ عند نزول القضاء، فلست وحدي الجاهل في تلك الطريق، فما أسعد من استمسك بالعمل الصالح، وتخلى عن العنف، ولزم الضراعة...) (ص ١٩٠ ـ ١٩٢).

وهكذا ينتهي الرومي إلى ما أكده قبل قليل، إن حرية الإنسان وحدها لا تكفي، ولابد لها من إضاءة من فوق كي تعرف الطريق؛ فلا تقع في الفخ، أو تصاب بعمى الألوان والضلال...

والفخ الذي يكمن في طريق الإنسان عند نزول القضاء، ليس ـ بحال ـ فخ التراجيديات اليونانية حيث يحلو للآلهة أن تعبث بالإنسان وأن تلعب معه لعبة القط والفار، وأن تنصب في طريقه المصائد والأفخاخ للإيقاع به والإطباق عليه، دونما تفريق بين المحسن والمسيء، والمصيب والخاطئ، والصالح والطالح... بل إنها ليلذ لها أحياناً أن تختار العناصر الممتازة من بني آدم لكي تدخلها حلبة الصراع فيكون لهزيمتها وقع أشد في نفوس الآلهة المتعطشة للانتقام.

لا... ليس الفخ الذي يعنيه الرومي هو ذاك الذي لا تزال أوربة تخافه وترهبه وتقاتل دونه، إنما هو الفخ الذي ينصبه جهل الإنسان، وغفلته، وقصوره، وممارساته الخاطئة، وكفره، ومروقه... لنفسه، فيقع فيه يوم نزول القضاء الذي لا راد له... يقع في الحفرة التي حفرها بيديه ومخالبه وأسنانه وفرجه وبطنه... ومن ثم فإن بمقدور الإنسان أن يسلك طريقاً لا أفخاخ فيه صعداً إلى الأفق الوضيء السعيد... (فما أسعد من استمسك بالعمل الصالح...) كما يقول الرومي في أبياته تلك...

ثم هاهو ذا يجمع على صعيد واحد الجبر والاختيار، ولا يجد ثمة استحالة في ذلك، أو صعوبة، كما يتصور أصحاب النظرة الأحادية الذين يأسرهم وجه العملة الواحد، فيتعامون عن النظر إلى الوجه الآخر مصرين على إنكار وجوده... إن الرومي يعرف كيف يستشرف بحسه البصير جوانب الحقيقة

كلها . . . وبما أنه يصدر عن موقف إيماني فإنه يجد نفسه ملزماً بهذا الاستشراف الشامل . . . والنتيجة . . . هي القدرة على جمع وتوحيد ما يبدو للناس تناقضاً وتقاطعاً، وما هو في حقيقته إلا الأوجه المختلفة للجوهر الواحد . . .

(إن الذين يعرفون الجبر - يا بني - هم أولئك الذين فتح الله لهم بصراً في قلوبهم؛ فانكشف لهم الغيب المقبل، وتلاشى عندهم ذكر الماضي.

فالاختيار والجبر عندهم غيرهما عند الآخرين . . . إن القطر في الأصداف جوهر.

فكم خارج الأصداف من قطرة صغيرة أو كبيرة، ولكنها في الأصداف درة صغيرة أو كبيرة . . .

إن الاختيار والجبر كانا عندك خيالاً، ولكنهما، عندما حلا فيهم، أصبحا نور الجلال!

فالخبز على المائدة هو ذلك الجماد، ولكنه في جسم الإنسان يصبح روحاً مبتهجة.

فهو لايتحول عن طبيعته في قلب المائدة، ولكن الروح هي التي تحوله عنها بمائه السلسبيل . . .

إن كتلة اللحم الآدمية ذات العقل والروح تشق الجبل والبحر والمنجم.

ولو أزاح القلب الغطاء عن وعاء الأسرار لهرعت الروح منطلقة نحو العرش . . .) (ص ٢١١ - ٢١٢).

والرجل يطرح في مواضع كثيرة أخرى من ديوانه تصوره الإيماني المتوازن للقدر والحرية، أو للجبر والاختيار[١].

---

(١) انظر كذلك: الصفحات ٧٧-٧٩، ٩٣-٩٤، ١٠٩-١١٠، ٢١٢-٢١٤، ٢٢٩-٢٣٢ للاطلاع على المزيد من النماذج.

والنتيجة الأخيرة؟

إن الإنسان حر، ولكنه بحريته هذه إنما يتحرك ضمن مشيئة الله وفي توازٍ معها... ليس ثمة تعارض أو صراع... إنما هو التجاوب والامتداد...

إن الإنسان هو بإرادة الله... وما أفعاله سوى تعبير عن هذه الإرادة من خلال صيرورتها الإنسانية.

يقول الرومي مفسراً آية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1]:

(إنا لو أتينا إلى الجهل فهذا سجنه، ولو جئنا إلى العلم فهذا إيوانه، وإذا استسلمنا للكرى فإننا سكارى به، وإذا صحونا فإنا طوع يديه.

وإذا بكينا فإننا سحابه المحمل بالرزق، وإذا ضحكنا فإننا حينذاك برقه.

ونحن ـ في الغضب والحرب ـ صدى لقهره! ونحن ـ حين الصلح والصفح ـ صدى لحبّه! فمن نحن في هذا العالم المعقد؟

إننا كالألف، فماذا تملك الألف من الحركة؟ لا شيء قط) (ص ٢١٦).

وإذا كان قضاء الآلهة في ميثولوجيا اليونان، والغرب عموماً، هو قضاء الغدر والأنانية والكراهية والبغضاء... فإن قضاء الله، في التصور الإسلامي، هو قضاء المحبة والمواساة والفرح والأمن... القضاء الذي يأخذ بيد الإنسان مهما بدا من قسوته! وعنفه وفجاءته... صعداً إلى القمة... لكي يضرب له مخيماً في أعالي السماء!

(... فالقضاء إذا كان يغشاك بظلمة الليل، فإنه يأخذ بيدك في عاقبة

---

(١) سورة الحديد: ٤.

الأمر. والقضاء إذا قصد روحك مئة مرة، فإنه أيضاً يهبك الروح، ويداويك. إن هذا القضاء، لو سد الطريق أمامك مئة مرة.

فإنه يضرب لك مخيماً فوق أعالي السماء!) (ص ١٩٢).

وصدق الله العظيم:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١].

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[٢].

٧

والتزام الرومي يتبدى في موقفه الموزون، المتأدب، النقيَ، الذي لا غبش فيه ولا توتر ولا (شطحات)... من الذات الإلهية... وهو موقف ليس سهلاً ميسوراً على شاعر متصوف عاشق في الوقت نفسه، تلهمه تجربة الشعر، وتكويه نار التصوف والمحبة...

وغير الرومي كثيرون من الشعراء والمتصوفة لم يطيقوا البقاء طويلاً عند نقطة التوازن الصعبة، فآثروا السقوط السهل في خطابهم لله، ووصفهم لذاته سبحانه، وهم يحسبون أنهم يعبرون عن مدى تجربتهم... اسمعه يقول:

(إنا نرجو من الله أن يوفقنا للأدب، فإن من لا أدب له يبقى محروماً من لطف الرب. إن من لا أدب له لايقتصر أذاه على نفسه، وإنما هو يشعل النار في جميع الآفاق.

لقد كانت مائدة تتنزل من السماء بدون عناء، وبدون بيع أو شراء.

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) النساء: ١٩.

ولكن جماعة من بين قوم موسى قالوا بوقاحة: أين الثوم والعدس؟

فانقطع عنهم خبز السماء ومائدتها، وبقي لهم عناء الزراعة والكدح بالفأس والمنجل، ولكن عندما شفع عيسى لدى الحق، أرسل لهم الخوان والغنيمة على الطبق.

فعاد أهل الوقاحة إلى ترك الأدب، وتخاطفوا الطعام كالشحاذين،

فناداهم عيسى قائلاً: إن هذه المائدة دائمة، ولن ينقطع ورودها إلى الأرض.

إن سوء الظن والحرص ـ أمام مائدة العظيم ـ كفر.

لقد أغلق باب الرحمة على الناس من جراء هؤلاء الذين أعماهم الحرص.

إن السحب لاتجيء إذا منعت الزكاة، ومن الزنى يقع الوباء في جميع الجهات.

فكل ما أصابك من ظلمات وغم ليس إلا نتيجة للتبجح والتوقح.

وكل من أبدى توقحاً في طريق الحبيب فهو قاطع الناس، ولا رجولة عنده.

فمن الأدب امتلأ بالنور الفلك. . .

ومن الوقاحة كان كسوف الشمس، ومن الجراءة رد الشيطان عن الباب)

(ص ٨٠ ـ ٨١).

واسمعه يقول:

(. . . لقد قال الشيطان: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فهذا الشيطان الدنيء قد أخفى فعله.

وقال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، وهو مثلنا لم يكن غافلاً عن فعل الله.

وقد أخفى فعل الله في ذنبه - تأدباً - فجنى ثماراً لنسبته الذنب إلى نفسه.

وبعد التوبة قال له الله: يا آدم! ألم أخلق فيك هذا الجرم وتلك المحن؟

ألم يكن هذا تقديري وقضائي؟ فلماذا أخفيت ذلك وقت اعتذارك؟

فقال آدم: لقد خشيتك فلم أتخل عن الأدب.

فقال الله: وإني أيضاً قد حفظت لك أدبك...) (ص ٢١٣ - ٢١٤).

واسمعه يقول:

(... وكان من غرورهم إن لم يقولوا ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأظهر لهم الله عجز البشر.

إن ترك الاستثناء عندي قسوة.

ولست أعني به مجرد القول الذي هو حالة عارضة لا يؤمن بها القلب،

فكم من متكلم لا يأتي في قوله بعبارة (الاستثناء).

ومع ذلك فروحه مقترنة بروح تلك العبارة...

ولما رأى الملك عجز الحكماء، جرى عاري القدمين نحو المسجد،

ودخل المسجد، واتجه نحو المحراب، وابتل مكان السجود بما جرى من دمعه،

فلما أفاق من الغرق في لجة الفناء، أطلق لساناً جميلاً بالمدح والثناء فقال:

يا من هو على الدوام ملجؤنا عند الحاجة، إنا ضللنا السبيل مرة أخرى،

ولكنك أنت قد قلت: إنني أعرف سرك فسارع إلى إعلانه.

فلما ارتفع الصياح من أعماق روحه، جاش بحر العطاء...)(ص٧٧ـ٧٨).

فها هو ذا الرومي في المقاطع الثلاثة، وغيرها كثير، يؤكد على خصيصة من أبرز خصائص العقيدة الإسلامية في معطياتها عن الله سبحانه... إن الفرق بين الخالق والمخلوق هائل... هائل... لا يحده حد ولا يقيسه مقياس... وإن على المخلوق أن يعرف جيداً حجمه الحقيقي، وأن يتخذ موقفه المتأدب من خالقه لا يتجاوزه خطوة واحدة إلى الأمام أو إلى الوراء...

وفرق وأي فرق بين هذا الموقف المحسوب بين الله وعباده في منظور الرومي المستمد من أخلاقية الإسلام وبين مواقف الغربيين، القدماء والمحدثين من الله في ميثولوجياتهم وفلسفاتهم وآدابهم وسلوكهم اليومي... بينه وبين مواقف بعض المتصوفة الذين تشطح بهم قوة التجربة إلى حيث يسقطون الميزان!

وهو يناجي الله سبحانه بالنبرة المتأدبة الرقيقة نفسها التي ترد الأمر كله لله...

(يا من أنت في ساعة الألم راحة لنفسي!

ويا من أنت في مرارة الفقر كنز لروحي

إن مالا يحمله الوهم ولا يبصره الفهم

يصل إلى روحي منك لأنك قبلتي

ففي ركعات الصلاة يكون خيالك أيها الملك

واجباً ولازماً لي لزوم السبع المثاني) (ص ٣٣ ـ ٣٤).

وهو عندما يحكي لنا عن تجربة المحبة التي تصهر وتذيب يظل على توازنه؛ فلا يسقط أو يحاول القفز إلى فوق كما يفعل بعض غلاة الصوفية:

(إن الروح التي ليس شعارها الحب الحقيقي

من الخير ألا توجد، فليس وجودها سوى عار!

كم ثملا بالحب، فإن الوجود كله محبة

وبدون التعامل مع الحب فلا سبيل إلى الحبيب

يقولون: ما الحب؟ قل: هو ترك الإرادة

ومن لم يتخلص من إرادته فلا إرادة له

إن المحب ملك والعالمين نثار عند قدميه

إن المحبة والمحب باقيان إلى الأبد

فلا تربط قلبك بسواهما لأنه عرض زائل

عانق الروح وإن كانت لا حدود لها

فالأزهار التي تتولد في الربيع تموت في الخريف

وبستان المحبة لا مدد له من الربيع وتلك الورود التي يجيء بها الربيع مقترنة بالأشواك

كما أن خمر العصير لا تخلو من خمار

فلا ترتعد فوق حصان الجسد، وسر مسرعاً على قدميك!

فإن الله يهب جناحين لمن تخلى عن حصان الجسد) (ص ٣١ ـ ٣٢).

وفي مناجاة أخرى يحكي لنا الرومي عن احتراقه بنار المحبة... لكنه الاحتراق الذي لايفقده توازنه لحظة...

((أيها الحبيب! إني لم أر طرباً في الكونين بدونك

لقد رأيت كثيراً من العجائب، ولكني لم أر عجباً مثلك!

يقولون إن الاحتراق بالنار نصيب الكافر

ولم أر محروماً من نارك سوى أبي لهب

ولكم وضعت إذاً الروح على نافذة القلب

فسمعت كلاماً كثيراً ولكني لم أر شفتين)) (ص ٣٣).

وفي مقطوعة ثالثة يضع لمساته الموحية وهو يتحدث عن العاشق والمعشوق..

((إن المعشوق هو الكل وأما العاشق فحجاب

والمعشوق هو الحي وأما العاشق فميت

وحينما لا تكون للعاشق رعاية من العشق

فإنه يبقى تعساً كطائر بلا جناح

وكيف يكون لي عقل يدرك ما أمامي وما ورائي

حينما لا يكون نور حبيبي أمامي وورائي؟

إن العاشق يقتضينا أن نبوح بهذا القول

وإلا فكيف تكون المرآة إذا لم تعكس المرئيات؟

أو تدري لم أظلمت صفحة مرآتك؟

إنها أظلمت لأن الصدأ قد علاها ولم ينفصل عنها)) (ص ٧٥ - ٧٦).

وكثيرة هي الشواهد على هذه الرؤية النقية التي نظر الرومي من خلالها إلى الله سبحانه... والاستثناءات قليلة لا تكاد تعد... أما القاعدة فتكاد تغطي الديوان كله[1].

وتظل نداءات الرومي المؤثرة تطرق وجداننا لكي تنطبع هناك «إن روحي

(١) انظر كذلك الصفحات: ٧٨ - ٧٩.

وقلبي لا طاقة لهما بذلك الجيشان، فمع من أتحدث وليس في هذا العالم أذن تسمع؟» (ص ١٢١) «فيا من قلوبهم تحت جلودهم متحللة بالفناء، عودوا من العدم بنداء الحبيب»! (ص ١٤١).

۞ ۞ ۞

وموقف الرومي المتوازن، المتأدب، الصافي من الله سبحانه ينسحب على أنبيائه الكرام لكي ما يلبث أن ينتهي عند خاتمهم عليه الصلاة والسلام... فهو ليس من أولئك الشعراء والمتصوفة الذين ينسون رسل الله سبحانه، وهم يتحدثون عن المحبة التي تلف العالم في وحدتها، وهو ليس من أولئك الفلاسفة الذين إذا تحدثوا عن الروح والدين والقيم مزجوا الأديان جميعاً، دونما تفريق بين مراحل نموها الزمني... وضيعوا على الإسلام، عامدين أو غير عامدين. تفرده، وتميزه، واكتماله... باسم وحدة الأديان!! لا هو من هؤلاء ولا من هؤلاء... فهو - من جهة - يحشد في مثنوياته الكثير الكثير من مواقف الأنبياء عليهم السلام، ويستمد من القيم والتعاليم التي جاؤوا بها ونفذوها، نهراً متدفقاً من العطاء... ونظرة سريعة إلى عناوين قصائده ترينا حجمه وأبعاده... ونسمعه يقول:

(... *ضلت جملة أهل العالم، فقليل من الناس من يعرف أبدال الحق*

فقد ادعوا أنهم مساوون للأنبياء، وظنوا أنفسهم مثل الأولياء

وقالوا: انظروا! إننا بشر وهم بشر، ونحن وإياهم أسارى للنوم والطعام

ومن عماهم لم يدركوا أن هناك فرقاً لا نهاية له بينهم وبين هؤلاء

فالنحل كلها تأكل من مكان واحد

ولكن يجيء من بعضها اللدغ ومن بعضها الآخر يأتي العسل

ومن القصب صنفان يشربان من ماء واحد

ولكن أحدهما خال والآخر حافل بالسكر

فتأمل مئة ألف من أمثال هذه الأشياء

وانظر كيف يفصل بينها طريق طوله سبعون عاماً!

فهذا يأكل فتتولد منه القذارة، وذاك يأكل فيصبح كله نوراً إلٰهياً!

وهذه أرض طيبة، وتلك مالحة رديئة...

فلو تشابهت الصورتان فذاك جائز، فالماء المالح والماء العذب شبيهان في الصفاء!

ومن الناس من يقيس السحر بالمعجزة، فيظن أن كليهما مبني على المكر

فالسحرة من أجل منازعتهم لموسى أمسكوا عصا مثل عصاه

لكن بين هذه العصا وتلك العصا فرقاً واسعاً ؛

وبين هذا العمل وذاك العمل طريق عظيم) (ص ٩٧ ـ ٩٩).

ونسمعه يقول:

(لقد كانت لفرعون آلاف من الرماح

ولكن موسى حطمها جميعاً بعصا واحدة!

وجالينوس كانت له في الطب آلاف من طرق العلاج

وكلها ـ أمام عيسى ونفسه ـ لم تكن إلا خرافة

وكانت هناك آلاف من دفاتر الشعر

ولكنها جميعاً باءت بالعار أمام حرف من النبي الأمي..) (ص ١٢٣).

ونسمعه يقول:

(... في كل لحظة للنفس مكر، وكل مكر يغرق مئة فرعون مع أتباعهم.

فاهرب إلى إله موسى وإلى موسى، ولا ترق ماء الإيمان بطبيعة فرعونية

واربط يدك بالإله الأحد، وبأحمد، وتخلص يا أخي من (أبي جهل) البدن (ص ١٤٦).

ويقول:

(... نعم! ولكن انظروا أيضاً إلى الجهود التي بذلها الأنبياء والمؤمنون!

لقد بارك الله تعالى جهودهم، وما لاقوه فيها من جفاء وحر وبرد

فجاءت تدابيرهم في جملة الأحوال لطيفة، وكل ما جاء من لطيف فهو لطيف.

لقد صادت شباكهم طائر الفلك، وتحققت لهم الزيادة في كل ما كان ينقصهم.

فاجتهد أيها السيد ما استطعت في اتباع طريق الأنبياء والأولياء...) (ص ١٦٤)

ويقول:

(... فكل نبي كان يدعو أمته ـ مثلما أدعوكم ـ حتى يخلصها

فهو الذي رأى في السماء طريق النجاة، على حين ظل هذا الطريق ـ في نظر الناس ـ منطوياً في الخفاء كأنه إنسان العين

لقد رآه الناس صغيراً كإنسان العين

ولكن ما يسلك أحد منهم سبيل التفكر في عظمة ذلك الإنسان الصغير)
(ص ١٦٨ ـ ١٦٨).

ويقول:

(ما أسعد الرجل الذي تخلص من ذاته وأصبح متحداً مع وجود حي!
وواهاً على ذلك الحي الذي جلس مع الميت
لقد أصبح ميتاً وفرت منه الحياة!
فإن أنت فزعت إلى قرآن الحق فقد امتزجت بأرواح الأنبياء
فالقرآن أحوال الأنبياء، وهؤلاء أسماك بحر الكبرياء الطاهر...
إن الأرواح التي تحررت من أقفاصها إنما هي الأنبياء المرشدون الفضلاء
فمن الخارج يأتيك صوتهم، صوت الدين قائلاً:
هذا طريقك للخلاص... هذا...) (ص ٢١٩).

ولكن الرومي، وهو يقف وقفة التمجيد والتكريم هذه للأنبياء جميعاً عليهم السلام، بما يتطلب منه موقفه الإيماني المشبع بالفهم عن القرآن... لا ينسى لحظة أنه مسلم أولاً وأخيراً... تابع من أتباع النبي الأمي الأخير محمد عليه السلام... وأن إسلامه إذا كان يفرض عليه احترام رسل الله كافة، والإيمان بوحدة رسالاتهم، فإنه يفرض عليه في الوقت نفسه الالتزام الكامل بالرسالة الأخيرة، والمحبة المطلقة لرسولها... والتمييز بينها وبين سائر الأديان السماوية الأخرى التي انحرف بها الطريق، ونسخها الدين الأخير...

إن عدداً من الشعراء والفلاسفة وأصحاب النظريات الأخلاقية كثيراً ما ينسون هذا؛ فلا يميزون بين الأديان بحجة وحدة مصدرها وغايتها على

السواء. . . لكن التمييز ـ بالمقياس الذي تحدثنا عنه ـ ضروري لشاعر ملتزم كالرومي. . . ومن ثم فهو يتدفق في مثنوياته بين الحين والحين ـ وهو يعود فيؤكده بين الآن والآخر. . . وهو يعلن التزامه المتميز هذا بوضوح:

(إن السنة هي أسلم الطرق، والجماعة هم خير رفقاء الطريق. . .) (ص ٣٨).

ونستمع إليه يقول:

(إن اسم أحمد كان في الإنجيل، وكان نعته أنه رأس الأنبياء وبحر الصفاء

كان في الإنجيل ذكر لمحاسنه وشكله، وكان فيه ذكر لغزوه وصومه وأكله

وكانت هناك طائفة من النصارى، عندما تصل إلى ذلك الاسم وذلك الخطاب

فإنها من أجل ثواب الله، تقبل ذلك الاسم الشريف، وتضع وجهها على ذلك الوصف اللطيف.

لقد كان هؤلاء آمنين من الفتنة والخوف، مستجيرين بالتجائهم إلى اسم أحمد

وقد خلف من بعد هؤلاء ذرية كبيرة، صار نور أحمد لها هادياً ورفيقاً

وأما ذلك الفريق الآخر من النصارى، فقد كان يستهين باسم أحمد

فحاق بهؤلاء الهوان والذل. . . وأصاب الاضطراب دينهم وأحكامهم

بما جاءتهم به تلك الصحف المعوجة البيان

إن اسم أحمد أفاض مثل ذلك العون، فكان لنوره مثل تلك الرعاية

فإذا كان اسم أحمد قد صار حصناً حصيناً

فكيف تكون ذات هذا الروح الأمين؟!) (ص ١٤١ ـ ١٤٢).

ويرفع صوته منادياً:

(ما أحلى رسائل الخالق! إنها خالدة من أولها إلى آخرها

إن خطب الملوك تفنى، كما يفنى سلطانهم

ويخلد مجد الأنبياء كما تخلد أقوالهم

ذلك لأن مجد الملوك من الهواء، وأما مجد الأنبياء فمن مقام الكبرياء!

وأسماء الملوك ترفع من الدراهم بعد موت هؤلاء

وأما اسم أحمد فيظل يطبع فوقها إلى الأبد!!

واسم أحمد هو اسم جميع الأنبياء

فعندما يصل العدد إلى المئة، يكون التسعون معنا!) (ص ١٧٨).

وفي مكان آخر يخاطب الإنسان، ويعلمه، مستمداً من تجربة الرسول عليه السلام هديه وتعاليمه:

(فكن مستقيماً كالسهم، وانطلق من القوس. . .

فأما وقد رجعت من الحرب الظاهرة، فإني قد اتجهت الآن إلى حرب الباطن

لقد عدنا من الجهاد الأصغر، وها نحن مع الرسول في الجهاد الأكبر

وإني لأتلمس من الله القوة والتوفيق. . .

واعلم أن من اليسير على الأسد أن يمزق الصفوف

ولكن الأسد هو ذلك الذي يتغلب على نفسه) (ص ٢٠٣).

ويكاد يذوب محبة وهو يتغنى بالنور الذي جاء به المصطفى... النور الذي هو أشبه بتيار الكهرباء، ينتقل بلمح البصر عبر مئة سراج دون أن يفقد شيئاً من قوته وتدفقه وألقه العجيب:

(فخذ نوره من آدم إن شئت، أو منه إن أردت

وخذ الخمر من الإبريق إن شئت، أو من الكأس إن أردت!

فإن هذه الكأس وثيقة القربى بالإبريق

فيا أيتها الكأس المباركة ليس هناك من هو سعيد مثلك!

ولقد قال المصطفى: طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني

فحين يقتبس السراج نور الشمعة، فكل من رآه رأى الشمعة يقيناً!

فلو انتقل النور على هذا النحو خلال مئة سراج

فرؤية آخر سراج ملاقاة للأصل) (ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥)[1].

وسنجد في مقطع تال كيف اعتمد الرومي في مواطن كثيرة من مثنوياته، أحاديث الرسول عليه السلام وسنته...

٨

والرومي يتميز برؤية شمولية للوجود تتجاوز جدران المادية إلى ما وراءها، وشدها المبهظ إلى فوق، تماماً كما أراد له الإسلام أن يكون... وهو من أجل تأكيد رفضه للمادية الضيقة، واستعلائه عليها، وكسره أطواقها التي تضيق الخناق على الإنسان... هو من أجل هذا يرسم الكثير من الصور الشعرية الساخرة التي هي أشبه بالكاريكاتور الذي يجسم الخطأ ويدفع الناس للضحك منه وعليه...

(١) انظر الصفحات: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(كانت ذبابة على عود قش فوق بول حمار!!

وقد رفعت رأسها كربان السفينة وقالت:

إني أسميهما بحراً وسفينة، وهذا ما استغرق فكري فترة من الزمن!

فانظر هذا البحر وتلك السفينة، وأنا فوقهما الربان الحصيف الرأي

فكانت هذه الذبابة تسير سفينتها على صفحة البحر، وقد بدا لها هذا القدر ماء لا يحد

لقد كان هذا الماء يبدو بلا حدود بالنسبة لها

ومن أين لها ذلك النظر الذي يراه على حقيقته؟

إن عالمها يمتد إلى المدى الذي يدركه بصرها

فعلى قدر العين يكون مدى بحرها!!) (ص ١٧٦).

هذه هي صورة المادي، الكافر، في كاريكاتور الرومي: ذبابة على عود قش فوق بول حمار... ترى، لضيق رؤيتها، وتفاهتها، وانحسارها المفجع، أنها تقود سفينة في بحر واسع ممتد... وإن مأساة الماديين أنهم يقيسون العالم والكون بالمدى المحدود الذي تدركه أبصارهم (فعلى قدر العين يكون مدى بحرها)... وهكذا تكون القشة في رؤية الذبابة سفينة، ويكون بول الحمار... بحراً... ترى كم عانت (الحقيقة) من قصور الرؤية البشرية على مستوى المنظور والغيب على السواء؟!.. كثيراً جداً، وهي في القرن العشرين تئن من هذا القصور... لولا أن العلم الجديد أخذ يشق للفكر البشري مجرى آخر...

أوسع... وأعمق... وأكثر موضوعية وإخلاصاً... فحطم الكثير من السدود والجدران، ومزق الكثير من الستائر والسدف، ووسع مدى الرؤية بما لايقاس عما كانت عليه في القرون السابقة... إن يوم اللقاء بين العلم والدين قد أوشك أن يكون!!

وكثيرة هي مواقف الرفض والاستعلاء إزاء رؤى الماديين، وأنصاف المؤمنين كذلك، في مثنويات الرومي... وما أكثر ما ينعى على الإنسان ضيق الأفق الذي اختاره بنفسه، وعدم محاولته استشراف الآفاق الرحبة البعيدة التي تحرره من شد الضرورات وتريه مالم يكن يرى...

إنه يستمد من قصة موسى والخضر في كتاب الله، حيث مارس الأخير أفعالاً بدت للوهلة الأولى غير مبررة ولا معقولة... ثم لما تكشف عنها الحجاب، بدت على حقيقتها فعلاً أخلاقياً معقولاً... يستمد منها إحدى مؤشراته في هذا السبيل.

(... فإذا كان الخضر قد خرق السفينة في البحر

فقد كان في عمله هذا مئة صواب

وقد خفي هذا على وهم موسى، مع كل ما له من نور وفضل

فلا تطر أنت بلا جناح!!)

ويواصل مقارناً هذه الفعلة بفعلة ملك كان قد تلقى إشارة إلهية بقتل أحد الرجال:

(إن فعلة الملك تلك وردة حمراء، فلا تسمها دماً!!

وهذا الملك سكران بالحكمة، فلا تقل إنه مجنون!

فإذا كان الملك قد قصد بفعله هذا إراقة دم مسلم فأنا كافر لو ذكرت اسمه

فإن العرش سيهتز إذا مسه الشقي، ويسود بهذا المدح ظن التقي

لقد كان ملكاً وكان واسع الإدراك، وقد كان من خاصة الله،

وإن الشخص الذي يقتله ملك مثل هذا يكون مآله إلى الحظ السعيد والجاه الرفيع

إن الطفل يرتعد أمام إبرة الحجام

ولكن الأم المشفقة يسعدها مثل هذا الألم

فهو يأخذ نصف حياة، ويعطي بدلاً منه مئة حياة

بل هو يعطي ما ليس يخطر لك في بال!

إنك تتخذ من نفسك مقياساً للأمور

ولهذا وقعت بعيداً، بعيداً...) (ص ٩٥ ـ ٩٦).

وفي مكان آخر يقول:

(كثيرون هم أصحاب الكهف في هذه الدنيا

وهم الآن إلى جانبك أو في مواجهتك

فالغار معهم، والرفيق يسامرهم

ولكن الله ختم على بصرك وسمعك، فأي جدوى لك من وجودهم؟..

فكل من كان منتبهاً للعالم المادي فهو في غفوة عن عالم الروح، ويقظته أسوأ من نومه

وعندما لا تكون أرواحنا مستيقظة للحق

فإن يقظتنا تكون مثل إغلاقنا الباب

والنفس كل يوم من لكز الخيال وضربه، ومن الضر والربح وخوف الزوال

لم يبق لها صفاء ولا لطف ولا بهاء

ولا طريق سفر نحو السماء...) (ص ١١١ ـ ١١٢).

ويرسم هذه الصورة المعبرة:

(. . . إن هذا الإله له من القدرة ما يجعله يخلق بنفخة منه مئة عالم كعالمنا!

فهو يظهر لعينك مئة عالم كعالمنا، حينما يجعل تلك العين مبصرة بنوره

فإذا كان هذا العالم يبدو أمامك عظيماً لا أول له ولا آخر

فاعلم أنه لا يساوي ذرة أمام قدرة الله

وسيروا نحو تلك الناحية، فهناك أرضكم الرحبة!

فهذا العالم محدود، وتلك بلا حدود

ولكن الظواهر المادية، والصور، تقف حائلاً) (ص ١٢٢ ـ ١٢٣).

وهو يأخذ على الحس ما يقود إليه من وهم وخداع وتعتيم على صوى الروح، ويدعو إلى تجاوزه صوب الباطن، وإلا فإننا سنظل أسرى الوهم والخداع وضيق الأفق. . . إنه يرفع صوته محذراً:

(حذار يا أسارى القول والبيان!

يا من تنشدون الوعظ المبني على حديث اللسان واستماع الأذن

ضعوا القطن إذاً في حسكم الأسفل وحلوا رباط الحس من أمام أعينكم

إن أُذُنَ الرأس حجاب لأذن الباطن

فما لم تصم إذاً الحس بقيت إذاً الباطن صماء

فلتخلصوا أنفسكم من الحس والأذن والهواجس حتى تسمعوا نداء (ارجعي)!

إن قولنا وفعلنا هما السلوك الظاهر

وأما السلوك الباطن فمكانه أعالي السماء!

فالحس لم ير إلا اليابس، لأنه ولد من اليابس

وأما عيسى الروح فقد مر بقدميه على الماء!

فالجسم اليابس من شأنه أن يسير على اليابسة

وأما الروح فمجراها في صميم البحر!

وما دمت قد قضيت عمرك في طرق اليابسة

تارة في الجبل، وتارة في البحر، وأخرى في الصحراء

فمن أين لك أن تجد ماء الحياة؟

وأنى لك أن تشق عباب بحر الروح؟..) (ص ١٢٧ ـ ١٢٨).

وينادي الإنسان أن يسافر بحثاً عن المعنى، وأن يتخطى الصور والأشكال.. وأن قوة الخيال الشعري لتتبدى هاهنا مرسومة معطياتها بعناية تهز الوجدان:

(... فاذهب، و اسع وراء المعنى يا عابد الصورة!

إن المعنى جناح لجسد الصورة

والزم أهل المعنى حتى ينالك منهم العطاء وتصبح جواداً

إن الروح التي تخلو من المعنى تكون في الجسد كسيف خشبي في الغمد...

لا تصلح إلا وقوداً للنار

فلا تحمل إلى الميدان سيفاً خشبياً

وانظر في أول الأمر إلى عدتك حتى لا يسوء مآلك

فإن كان السيف خشبياً فامض واطلب غيره

وإن كان قاطعاً فتقدم إلى الأمام طرباً

إن السيف الحق مكانه خزانة أسلحة الأولياء، ورؤية هؤلاء كيمياء لك

وإن ابتعت رمانة فاخترها ضاحكة متفتحة؛ حتى ينبئك تفتحها عن حال حبها

فما أجمل ضحكها! ذلك لأنه يظهر من خلال فمها قلبها كما يظهر اللؤلؤ في صندوق الروح

إن ضحك الرمان يجعل البستان ضاحكاً، وصحبة الرجال تجعلك من الرجال

فإن كنت قطعة من الصخر أو المرمر صرت جوهراً لو اتصلت برجل ذي قلب

فأشرب روحك حب هؤلاء الطاهرين

ولا تسلم قلبك إلا لحب هؤلاء السعداء القلوب

ولا تمضِ في طريق اليأس، ففي الكون آمال

ولا تتجه نحو الظلمات، ففي الكون شموس!!) (ص ١٤٠ ـ ١٤١)

وفي مكان آخر يعود إلى تأكيد المعنى نفسه:

(... لقد صارت علوم أهل الحس خطاماً في فم البشر

فلم تدعهم يشربون لبان ذلك العلم الروحاني الرفيع

ولكن الله ألقى في سويداء القلب جوهرة لم يودع مثلها في البحار ولا في الأفلاك

فيا عابد الصورة! إلام اعتدادك بالصورة؟

إن روحك المجردة من الحقيقة لم تتحرر منها!

فلو كانت الإنسانية بالصورة وحدها لتساوى أحمد وأبو جهل

إن النقش على الحائط يكون على صورة الإنسان

ولكن تأمل! كم ينقص تلك الصورة من الصفات الآدمية

فهذه الصورة اللامعة ينقصها الروح

فاذهب وفتش عن ذلك الجوهر النادر الوجود...) (ص ١٦٩ ـ ١٧٠).

وإنه لمن فضول القول أن نؤكد على أن حملة الرومي على الحس، والدعوة لتجاوزه إلى عالم الروح، بما يمثل خروجاً على دعوة القرآن المتشعبة، الشاملة، لاعتماد الحس في فهم الكون والعالم والكشف عن سننهما وقوانينهما[1]... هذه الحملة لا صلة لها البتة بما يمكن اعتباره رفضاً للأسلوب التجريبي الذي يعتمد المعطيات الحسية في البحث العلمي الذي دعا القرآن إلى التزامه... فهذه مسألة أخرى تماماً، لا تهم الرومي الشاعر المتصوف من قريب ولا من بعيد، وهي ليست ميدانه... إنما ميدانه الإنسان نفسه، بالأحرى، تجربة الإنسان الدينية في العالم... إن الحس هو خطوة واحدة فحسب، والوقوف عندها طويلاً قد يصيب الإنسان بخداع البصر وعمى الألوان... ولابد من خطوات أخرى صوب الباطن هناك حيث تفتح كوى الروح بوابات العالم والكون، وترفع الإنسان إلى آفاق ما كان بمقدور الحواس يوماً أن ترفعه إليها.

إن الرومي يدعو الإنسان للثورة على شياطين الحس والخداع... بهذا المعنى وحده...

(... *فمزقهم أيها القلب، ولا تتوان في ذلك*

---

(١) انظر كتابي المؤلف: تهافت العلمانية، الفصل الأول، والتفسير الإسلامي للتاريخ، فصل المسألة الحضارية.

مزق جلودهم فما هم إلا جلود!!

وما الجلد؟ إنه الكلام المزوق الذي لا دوام له كأنه الفقاقيع فوق الماء!

إن الكلام مثل الجلد والمعنى لبابه، وإنه مثل الصورة، وأما المعنى فمثل الروح، والجلد هو الذي يستر عيب اللباب الفاسد، كما أنه يحرص على أن يغطي اللباب الطيب، وحين يكون القلم هواء والدفتر ماء، فسرعان ما يفنى كل ما نكتبه!) (ص ١٧٧).

(فيا من تستمع إلي! كم من ظلم تراه في الناس

وما هو سوى طبعك وقد ركب فيهم

ففيهم قد انعكس وجودك، بنفاقك وظلمك وقبيح غفلتك

ولست تعاين هذا القبح في نفسك وإلا لناصبتها العداء بكل روحك!..

إنك قد وضعت أمام عينيك زجاجة زرقاء

ولهذا السبب بدا لك العالم أزرق اللون

فإن لم تكن أعمى فاعلم أن هذه الزرقة من نفسك...) (ص ١٩٨).

وها هو يستمد من إحدى الوقائع التاريخية... زيارة قام بها رسول القيصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة... شواهد أخرى على دعوته لتحرير الروح من شد الحواس.. بعد أن يترع الواقعة بحشد من الأخيلة والتداعيات التاريخية:

(... وقال رسول القيصر: أيها الخدم، أين قصر الخليفة حتى أتجه إليه بحصاني ومتاعي؟

فقال له القوم: ليس لعمر قصر، وإنما لعمر قصر الروح المضيء!..

فكيف تستطيع ـ أيها الأخ ـ أن تبصر قصره وقد نبتت شعرة في عين قلبك؟

ألا فلتنظف عين قلبك من الشعر والعلل، قبل أن تطمح إلى مشاهدة قصره

فكل من كانت له روح تطهرت من الهوس سرعان ما يرى الحضرة والإيوان الطاهر

فمحمد حين خلص من النار والدخان كان وجه الله في كل ناحية اتجه إليها

فإذا كنت رفيقاً لوسواس الهوى الخبيث، فكيف تدرك معنى ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾؟

وكل من فتح له باب في صدره فإنه يرى الشمس مشرقة في كل مدينة

إن الحق ـ بين الآخرين ـ ظاهر جلي، كالبدر بين النجوم

فضع طرفي إصبعك فوق عينيك وانظر!

هل ترى من العالم شيئاً؟ ألا فلتكن منصفاً!!

فإن أنت لم تر هذا فليس بعدم! وما العيب إلا في إصبع نفسك التعسة

فتنبه وارفع إصبعك عن عينك ثم شاهد ـ بعد ذلك ـ ما تشاء

إن قوم نوح قالوا لنوح: أين الثواب؟

فقال: إنه من تلك الناحية التي حجبتموها بما استغشيتم من ثياب...

إن الإنسان بصر، وأما ما عدا ذلك فجلد، والإبصار الحق هو مشاهدة الحبيب

فإن لم تبصر العين الحبيب فخير لها أن تكون عمياء

كما أن من الخير البعد عن الحبيب الثاني

فحين تلقى رسول الروم بسمعه هذه الألفاظ النضرة زاد اشتياقه

فأرسل البصر منقباً عن عمر، وترك متاعه وحصانه للضياع

فمضى مقتفياً أثر ذلك الرجل العظيم، في كل ناحية، سائلاً عنه كالمجنون

قائلاً: أمثل هذا الرجل يكون في الدنيا؟ إنه ـ مثل الروح ـ محتجب عن الدنيا...

ورأته امرأة أعرابية دخيلاً فقالت له:

انظر! إن عمر تحت تلك النخلة!!) (ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦).

والرومي، كما يبدو من هذا المقطع وغيره، لا يدعو إلى إلغاء الحواس أو تمجيدها وشلها عن العمل، إنما يؤكد على ضرورة صقلها وتنقيتها لخدمة أهداف الروح... صحيح أنه يضعها في المرتبة الثانية للمعرفة الروحية... إلا أنه لا يلغيها إلغاء... ولا ينسى، وهو يؤكد على تحرير الروح من شد الحواس، إنه حتى في هذه الحالة فإن رؤية موضوعية للعالم لن تتحقق دائماً، بل على العكس، قد يقود تجاوز الحواس، وضبطها، ومقاييسها... قد يقود الذات إلى أن تنطبع على صفحة العالم فلا تراه إلا من خلال نسيجها الخاص!! فالمسألة ليست في التحرر من خداع الحواس فحسب... بل هناك ماهو أكثر أهمية. تنقية النفس من الشوائب... من الميول والأهواء والنزوات والظنون... وما أكثرها...

إن إنارة الحس تكشف لنا عن مواقع أقدامنا القريبة... أما ضوء الروح فإنه يكشف عن العالم والكون... ولمن يريد أن يقطع الخطوات الكبيرة حقاً أن يستضيء بالروح!!

(إن بحث العقل والحس متصل بالأثر أو السبب

وأما بحث الروح فمتصل بالعجب وبأعجب من العجب

لقد أشرق ضوء الروح أيها المستضيء، فلم يعد هناك لازم وملزوم ولا ناف ومقتض

ذلك لأن البصر ـ الذي بزغ أمامه نور الله ـ ما أبعده عن الحاجة إلى دليل كالعصا...) (ص ٢١٥).

إن (معرفة) ما وراء المنظور تقتضي طرائق هي غيرها في التعامل مع المنظور، وإن النتائج المتمخضة عن الأولى هي أكبر وأشمل بكثير عنها في الثانية.

والروح، ذلك المجهول الذي يبدو غائباً عن العيان، ظاهرة قريبة منا.. منطلقة بنا على حصانها الأشهب إلى آفاق العالم وبوابات الكون... وما أروع هذا المقطع الذي يتجاوز الرومي فيه مقولات الفكر الجافة، التي التقينا بها مراراً، إلى وجدانية الشعر الطرية... المتوهجة.

(... وكم من عوالم تصل إليها تجارة العقل!

وما أوسع المدى الذي تمتد إليه بحار الفكر!

وصورنا تتحرك مسرعة فوق ذلك البحر العذب

كأنها الكؤوس فوق سطح الماء...

والعقل محجب عن العيان، وأما الظاهر فهو عالم صورنا فيه موج أو رذاذ من بحر العقل

وكلما اتخذت الصورة وسيلة إلى ذلك البحر

فإن البحر يلقي بالصورة بعيداً عن وسيلتها

حتى لايرى القلب من أعطاه السر، كما لايرى السهم من قذف به بعيداً

ومثل من لا يرى كمثل من يعتقد أن حصانه ضائع

على حين هو يحثه بعناء على الإسراع في الطريق

إن هذا الرجل الكريم يظن حصانه ضائعاً

مع أن حصانه يمضي منطلقاً به كالريح!

فهو مشتت الفكر، يبحث عنه منتحباً في كل مكان

ويمضي منقباً مستفسراً عنه من باب إلى باب

قائلاً: أين من سرق حصاني؟ ومن يكون؟

فيجيبه من يقول: فما هذا الذي أنت ممتطيه أيها السيد؟

نعم هذا حصان، ولكن أين الحصان؟

ألا فلتثب إلى رشدك أيها الفارس الباحث عن حصانه!

فالروح هكذا، ظاهرة قريبة منا، لكنها غائبة عن أعيننا

فمثلها كمثل البطن يملؤه الماء، على حين جفت الشفتان كحلق الإبريق!

وكيف ترى الأحمر والأخضر والوردي، إذا لم تر النور قبل هذه الألوان الثلاثة؟

فأما وقد ضاع عقلك في الألوان، فقد أصبحت هذه الألوان حجاباً لك من النور!..

إن الألوان لا ترى بدون النور الخارجي، وهكذا لون الخيال في الباطن

والنور الخارجي يجيء من الشمس ومن السها

وأما النور الباطني فمن انعكاس الأنوار العلى

والنور الذي في العين ليس إلا نور القلب

فأنوار العيون حاصلة من أنوار القلوب!

وأما النور الذي في القلب فهو نور الله!..) (ص ١٧٨ ـ ١٨٠).

وفي مقطع آخر نلتقي به ينادي قلبه متوسلاً إليه أن يغادر الالتصاق بالهيكل الترابي الزائل إلى عالم الروح؛ لكي يتعلم هناك ثانية كيف يكون الطيران، ويرجع إلى الأفق البعيد الذي قدم منه.

(أيها القلب! لماذا أنت أسير لهذا الهيكل الترابي الزائل!؟

ألا فلتنطلق خارج تلك الحظيرة، فإنك طائر من عالم الروح

إنك رفيق خلوة الدلال والمقيم وراء ستر الأستار

فكيف تجعل مقامك في هذا القرار الفاني؟

انظر إلى حالك واخرج منها وارتحل من حبس عالم الصورة إلى مروج المعاني، إنك طائر العالم القدسي، نديم المجلس الأنسي

فمن الحيف أن تظل باقياً بهذا المقام) (ص ٣٣).

كما يتحدث عن قوة الروح... كيف تكون... تحول الموات إلى حياة مبتهجة... تشق الجبل والبحر والقمر...

(فالخبز على المائدة هو ذلك الجماد

ولكنه في جسم الإنسان يصبح روحاً مبتهجة

فهو لا يتحول عن طبيعته في قلب المادة

ولكن الروح هي التي تحوله عنها بمائها السلسبيل

فهذه قوة الروح... فكيف تكون قوة روح الروح؟

إن كتلة اللحم الآدمية ذات العقل والروح تشق الجبل والبحر والمنجم!

فقوة الروح التي تقتلع الجبل تتجلى في شق الحجر

وأما قوة روح الروح فمجلاها شق القمر

ولو أزاح القلب الغطاء عن وعاء الأسرار

لهرعت الروح منطلقة نحو العرش. . .) (ص ٢١٢).

والكلمة التي تصدر عن الروح. . . قد تخرب عالماً بأكمله، وقد تجعل الثعالب الميتة أسود!!

(إن الأرواح في أصلها كنفس عيسى

ولكنها وهي متجسدة يكون نفسها تارة جرحاً وأخرى بلسماً

فلو ارتفع حجاب الأجساد عن الأرواح

لكان الكلام لكل روح كنفس المسيح. . .) (ص ٢٢٤).

وينعكس إيمان الرومي العميق بقوة الروح، وقدرتها الكبيرة على الفعل والتغيير، على رؤيته تجاه العالم والوجود. . . إنها رؤية متفائلة، مشرقة، مطمئنة إلى (التجدد) الذي يلاحق العدم، والانبعاث الذي يوقف زحف الفناء:

(إن الدنيا تتجدد في كل لحظة ونحن لا نحس بتجددها

وهي باقية على هيئتها الظاهرة

والعمر، وإن بدا مستمراً في الجسد،

فإنه يتجدد في كل لحظة، كما يتجدد ماء النهر) (ص ١٨١ ـ ١٨٢).

وفي مقطع آخر نسمعه يقول:

(في كل لحظة، يا رب قافلة وراءها قافلة تسير من العدم إلى الوجود

ففي الخريف تذهب آلاف الأغصان والأوراق منهزمة إلى بحار الموت

بينما الغراب يرتدي السواد كالحزين وينوح على الخضرة في البستان
وثانية يجيء الأمر من سيد الأرض فيقول للعدم: رد ما أكلت!
أيها الموت الأسود! رد ما أكلت من زروع وأعشاب وورق وحشائش
فيا أخي! اجعل عقلك معك لحظة واحدة
إن بك في كل لحظة خريفاً وربيعاً
وانظر بستان قلبك أخضر ريان نضراً
حافلاً ببراعم الورد والسرو والياسمين) (ص ٢٥٠).

ويصرخ:

(فيا من قلوبهم تحت جلودهم متحللة بالفناء
عودوا من العدم بنداء الحبيب...) (ص ٢٥٣).

ولكنه لا ينسى لحظة الجانب الآخر من الصورة... الوجه الآخر للحركة في العالم: صيرورة الحياة والموجودات والأشياء صوب الذبول، والتعري، والتساقط، والنحول... تلك هي سنة الحياة الدنيا... تآلف بين الأضداد، كما أراد الله سبحانه أن تكون... وتلك هي ميزتها الجوهرية عن حياة الخلود، كما يريد لها الله ـ كذلك ـ أن تكون!!

فلنعاين رؤيته الشمولية التي تتلمّس الحكمة الإلهية في تواجد الأضداد، عبر هذه المقطوعة التي تتدفق وجدانية وجمالاً...

(... إن البستان ليرتدي حلة الخضرة حيناً، وحيناً يتعرى
وذلك ليكون العالم حيناً صابراً وحيناً شكوراً
والشمس التي تشرق وهي في لون النار
تصبح في ساعة أخرى منقلبة الرأس نحو المغيب

والنجوم المشرقة في جوانب السماء الأربعة

إنما هي، بين لحظة وأخرى، مبتلاة بالاحتراق

والقمر الذي يتفوق على النجوم في الجمال

غدا من مرض النحول وكأنه الخيال

وهذه الأرض الساكنة الوقور تجعلها الزلزلة مرتعدة كاللهب

وكم في الدنيا من جبل جعله هذا البلاء المتوارث فتاتاً ورمالاً!

وهذا الهواء جاء مقترناً بالروح والحياة

ولكنه حين وقع القضاء أصبح فاسداً عفناً

والماء العذب الذي كان قريباً للروح

أصبح في الغدير الراكد أصفر اللون، مر المذاق، معتكراً

والنار المنتفخة برياح الغرور تقضي بالموت عليها نفخة ريح واحدة

واعلم أن حال البحر في اضطرابه وجيشانه

إنما هو ناشئ من تغير عقله وتبدله

والفلك الدوار الدائب على السعي والتنقيب، ليس حاله إلا كحال أبنائه

فهو حيناً في الحضيض، وحيناً في الوسط، وحيناً في الأوج

وبه أفواج وأفواج من كواكب السعد والنحس

فيا أيها الجزئي الذي هو من كليات مختلطة!

لتكن ذاتك سبيلك لتفهم حال كل موجود!

وإذا كانت الكليات معتلة سقيمة، فكيف لا تكون جزئياتها مصفرة الوجوه؟

وخاصة ذلك الجزئي الذي تجمعت به الأضداد

واتحد فيه الماء والتراب والنار والهواء

إن الحياة تآلف بين الأضداد،

وما الموت إلا قيام للحرب بينها!

ولقد ألف لطف الحق بين الأسد وحمار الوحش، هذين الضدين المتباعدين

وإذا كان هذا العالم مريضاً... سجيناً

فأي عجب يكون لو خفي المريض؟) (ص ١٩٤ ـ ١٩٥).

والرومي يلتمس بحسه الإيماني البصير، من وراء التناقضات والأضداد، ليس فقط وحدة العالم وتماسكه والتئامه، بل التناغم والألفة بين مخلوقاته وموجوداته جمادات... وحيوانات... وأناساً... وإذا كان القرآن الكريم قد حدثنا مراراً عن الذرات التي تسبح في قلب الأشياء مسبحة بحمد الله، والطيور التي تسبح في الفضاء مسبحة بحمد الله... وإذا كان العلم الحديث، في أشد نظرياته الفيزيائية جدة، يحدثنا عن تواجد نوع من الوعي والحرية في بنية العالم والكون... فإن الرومي، الذي تعلم كثيراً من كتاب الله، يصوغ رؤيته شعراً فيمنحنا المزيد من الشواهد المؤثرة على روح المحبة والتآلف المتواجدة في أعماق الكون والعالم... عن الجماد، والحيوان، والإنسان... وهي تسير جنباً إلى جنب، وتعمل جنباً إلى جنب، من أجل التحقق بحياة أفضل على هدي الله... إنه حتى الأشياء الجامدة، وظواهر الطبيعة، تسهم في صراع الحق ضد الباطل، وتنفث الخير والمحبة في أرجاء العالم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

---

(١) سورة المدثر: ٣١.

(هكذا تكون ريح الأجل مع العارفين

إنها رقيقة طيبة كنسيم البستان

إن النار لم تنشب أنيابها في إبراهيم

وكيف كات تنهشه وهو الذي اختاره الحق؟

إن نار الشهوة لم تصب أهل الدين

ولكنها هبطت بمن عداهم إلى قاع الثرى

وموج البحر ـ إذا تدفق بأمر الله ـ ميز بين قوم موسى وبين أهل مصر

والأرض ـ عندما جاءها الأمر ـ سحبت قارون بذهبه وعرشه إلى قاعها

والماء والطين ـ حينما ارتويا من أنفاس عيسى ـ

انبثقت منهما قوادم وخوالف وأصبحا طائراً يحلق

وما تسبيحك إلا بخار الماء والطين

وقد صار هذا طائر الجنة لما نفخ فيه القلب الصدوق

ولقد رقص جبل الطور لما رأى موسى

وأصبح صوفياً كاملاً، وبرئ من النقص!

وأي عجب إذا صار الجبل صوفياً عزيزاً؟

أولم يخلق جسم موسى أيضاً من قطعة طين؟) (ص ١٥٣ ـ ١٥٤).

وفي أكثر من مكان يعود ليؤكد المعنى نفسه:

(... من كان غافلاً عن الزرع والربيع

أنى له أن يدرك قيمة الزمن؟

فالواجب أن تفر إلى كنف من لطف الحق

فإنه يصب على الأرواح آلاف الألطاف

وإذ ذاك تجد لك ملجأ، فكيف يكون هذا الملجأ؟

إن الماء والنار يصبحان كلاهما جيشاً لك!

أولم يصبح البحر صديقاً لنوح وموسى؟ أولم يصبح عنيف القهر لأعدائهما؟

أولم تكن النار قلعة لإبراهيم، حتى صعدت دخان الحقد من قلب النمرود؟

أولم يدع الجبل إليه يحيا ويدفع عنه قاصديه برجم الحجارة؟

وقال له: يا يحيى تعال! واهرب إلي لأكون لك ملجأ من السيف القاطع؟) (ص ٢٤٥).

وثمة شواهد كثيرة، أخرى، منبثة قي شرايين الديوان، لن يتسع لها المجال.

٩

والتزام الرومي يتبدى في ساحة أخرى: الواقعية الإيجابية، والصراع ضد الباطل والطغيان، ويرتبط بموقفه من القدر والحرية... إنه لا يقعد مستسلماً للتيار، متكئاً على إلهامه الصوفي... يجيء في لحظات الخطر فينتشله من الغرق... كلا... إنه يقاوم... وبجهد في البحث عن مكامن الشر والخطيئة لقتالها في زوايا النفس وحنايا الشعور، ويدعو المؤمنين في العالم لرفع سلاحهم ضد الطاغوت الذي يدعي خصائص الألوهية لنفسه

ويعتدي على سلطان الله الواحد... إن الإنسان معرض في كل لحظة للوقوع في الشرك، وما لم يشمر عن ساعد الجد للبحث عن أكلة جهده وكدّه، فإنه لن يحصد إلا الهشيم...

(رباه! إن أمامنا مئة ألف من الشباك والحب

ونحن كالطيور الحريصة الجياع!

ففي كل لحظة نقع في شرك جديد

حتى ولو كان كل منا بازاً أو عنقاء

وأنت ـ يامن لا حاجة بك إلينا ـ تخلصنا في كل لحظة

ولكننا نعود فنقع في حبائل أخرى!

فنحن نضع الحب في هذا المخزن، بيد أننا لانكاد نجمع القمح حتى نفقده

وليس ينتهي بنا التفكير آخر الأمر

إن هذا الخلل الذي يقع بالقمح جاء من مكر الفأر

فمنذ إن صنع الفأر جحراً في مخزننا، خرب بخداعه هذا المخزن

فاعملي أيتها النفس أولاً على رفع شر الفأر ثم اجتهدي في جمع القمح...

فلو لم يكن في مخزننا فأر سارق

فأين قمح أعمالنا طوال أربعين عاماً؟) (ص ١٠٨).

وهو، لواقعيته الإيجابية، يدعو إلى العمل حتى آخر دقيقة... إلى التشبث بالحياة حتى آخر لحظة...

(... فالرجل الغريق ـ وهو يكاد يلفظ الروح ـ ينقض بيده على كل قشة وهو ـ لخوفه على حياته ـ يضرب بيده ورجله لعل أحداً يأخذ بيده في هذا الخطر.

والحبيب يعجبه هذا الهياج، فكفاح اليائس خير من النوم...

من أجل هذا يا بني قال الرحمن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1]

ففي هذا الطريق لا تتوان عن النحت والصقل!

ولا تفرغ لحظة واحدة حتى آخر أنفاسك

وكن ـ حتى اللحظة الأخيرة ـ نفساً أخيراً يتردد لتكون موضع العناية الإلهية

فكل روح ـ في رجل أو امرأة ـ بذلت جهدها

فإن إذاً مليك الروح وعينه ترقبان ذلك...) (ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

إن هذا لا يصدر إلا عن شاعر أشبع فهماً عن كتاب الله... الإنسان بالعمل... والعمل حتى آخر لحظة... وإذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ـ يقول رسول الله عليه السلام ـ فاستطاع أن يغرسها، فليغرسها، فله بذلك أجر... والرومي هو واحد من خريجي مدرسة الرسول عليه السلام هذه...

(... لو ربطت اثنين أو ثلاثة من الطير برباط واحد

بقيت على الأرض حبيسة الألم

ولكنها تدير فيما بينها مشورة بالغة الخفاء

يمتزج غموضها بما يخدع من يلحظها!

---

(١) سورة الرحمن: ٢٩.

ولقد كان الرسول يجري مشورته بطريقة مستقرة

فكان يجيب صحابه دون أن يذيع سراً!

إنه كان يعلن رأيه بكلام اتخذ صورة المثل

حتى يلتبس الأمر على الخصم فلا يعرف الرأس من القدم

وكان يحصل على جوابه من خصمه

بينما كان الخصم لا يدرك من سؤال الرسول سوى رائحته) (ص ١٧٣).

فهو ليس العمل فحسب، ولكنه العمل المبرمج المرسوم... العمل الذي يتوخى الوصول إلى الهدف بأكبر قدر من الضمانات وبأقل قدر من التكاليف.. إن الرسول المعلم نفسه، وهو الذي يستمد من وعد الله المطلق، يرينا كيف أنه بدون برمجة وتخطيط فإن جهد بني آدم سوف ينتهي إلى لاشيء... عبث هو العمل الذي لا يعرف من أين ينطلق، وفي أي طريق يسير، والى أي هدف يسعى... لقد كانت حياة الرسول كلها... من ألفها إلى يائها... شاهداً كبيراً على هذا السعي المرسوم... وهو نبي الله ومبعوثه... ومن ثم تتساقط دعاوى أولئك المتصوفة الذين انحرفوا عن الطريق، وادعوا أنهم بابتهالاتهم المجردة عن العمل، وبعملهم المجرد عن الحذر والتخطيط، قادرون على تحقيق أهدافهم... وهاهو الرومي، شاعر الصوفية الأكبر، كما يسمى، يرفض هذا التحريف، ويقتفي خطا معلمه رسول الله عليه السلام.

وهو من أجل هذا لايدعو ـ شأن العديد من المتصوفة ـ إلى تخريب الجسد، إن هذه الدعوى مرفوضة في قاموس الرومي... إن الجسد يخرب يوم يخرب من أجل إعادة بنائه لكي يكون أكثر اكتمالاً وأمضى عملاً، وأقدر على خدمة مطالب الروح وتنفيذ أهدافها... أما أن

يخرب الجسم لغرض التخريب فحسب، ويترك ـ هكذا ـ خرائب وأطلالاً فإن الأمر مرفوض، ونحن لا نجد في كتاب الله حرفاً واحداً مما يقودنا إلى القول بأن الدنيا قنطرة (فاعبروها ولا تعمروها)... أولسنا نقرأ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾[1].

(إن حس الدنيا سلم لهذا العالم

وأما حس الدين فهو سلم السماء!

فاطلب صحة حس الدنيا من الطبيب

والتمس صحة حس الدين عند الحبيب

وصحة حس الدنيا تجيء من سلامة البدن

وأما صحة حس الدين فتأتي من خرابه

فطريق الروح يخرب الجسم، ولكنه يعود فيعمره بعد هذا التخريب

فهو كمن خرب داراً من أجل كنز الذهب، ثم زادها عمراً بذلك الكنز ذاته

أو كمن قطع الماء وطهر مجرى النهر، ثم عاد فأجرى ماء الشرب فيه

أو كمن هدم القلعة وأخذها من الكفار، ثم أقام على أرضها مئة برج وسد) (ص ١٠١).

وواقعية الرومي تقوده إلى النزول إلى قلب الساحة لمجابهة الطغيان... والكلمة الملتزمة سلاح خطير من أسلحة الميدان... والذين يؤثرون أن ينسحبوا بكلماتهم من قلب المعركة، هم كالجند المهزومين، يخيفهم رعب

(١) سورة الأعراف: ٣٢.

القتال عن مواصلة الكفاح... والرومي هو واحد من تلامذة القرآن، وقد تعلم منه أن الشعر إن لم يكن مؤمناً ومقاتلاً في الوقت نفسه، فإنه سوف يجنح باتجاه السلبية، والانعزال... سيغدو هيماناً دائماً في وديان الضلال...

فلابد للشاعر أن يحمل كلماته إلى أرض المعركة لكي يقذف بها طواغيت العالم الذين يريدون أن يعبدوا الناس لأنفسهم، بدلاً من الله، والذين يسترقون لأنفسهم خصائص الألوهية، ويسعون في الأرض فساداً... وإنهم لمهزومون مهما امتد بهم الطريق، مأخوذون بظلمهم مهما طالت بهم الحياة...

(... لقد وقع في البئر الذي كان قد حفره، ذلك لأن ظلمه كان مرتداً إلى رأسه

إن الظلم قد أصبح للظالمين جباً حالك الظلمة...

وكل من كان أكثر ظلماً كانت بئره أكثر هولاً!

إن العدل الإلهي قد أمر بأسوأ العقاب لأسوأ الذنوب

فيا أيها الذي يحفر بئراً من الظلم! إنك لتنصب لنفسك شركاً!

فلا تجعل نسيجك حول نفسك كما تفعل دودة الحرير!

إنك تحفر البئر لنفسك فاحفرها بقدر

ولا تكن موقناً بأن الضعفاء لا معين لهم، واتل من القرآن قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾

فلو طلب الأمان ضعيف من أهل الأرض لثار لنجدته جيش من السماء

وإن أنت عقرته بأسنانك، وجللته بدمائه، أصابك وجع الأسنان فماذا أنت فاعل؟..

يا ربنا أنزل على هذا العالم الماء الطهور، حتى تصبح جملة ناره نوراً!

إن ماء البحر رهن أمرك، والماء والنار ـ يا إلهي ـ مما تملك

فإن ترد تصبح النار ماء زلالاً

وإن لم ترد فإن الماء أيضاً يصبح ناراً!!

وهذا الطموح فينا إنما هو من إيجادك

والخلاص من الظلم ـ يا رب ـ من عطائك...) (ص ١٩٧ ـ ١٩٩).

وهو يدير إحدى قصصه الشعرية على صراع بين أسد وأرنب... بين ظالم ومظلوم... ينتهي بانتصار الأخير:

(... لقد اندفع صياد الأسد نحو الوحوش قائلاً: أبشروا يا قوم إذ جاء البشير

بشراكم بشراكم، يا أهل المرح والسرور! إن كلب الجحيم قد عاد إلى الجحيم.

بشراكم بشراكم، فإن قهر الخالق قد اقتلع الأنياب من عدو أرواحكم

إن الذي حطم بمخالبه الكثير من الرؤوس،

قد اكتسحته مكنسة الموت كما تكتسح القذارة...

وقالت الوحوش: ألا فلتحدثنا أيها الأرنب كيف دبرت حيلتك، وكيف سحقت ذلك الشرير بمكرك؟

حدثنا، فلعل قصتك تصير علاجاً لنا! وتكلم فلعلها تصبح بلسماً لأرواحنا

تكلم، فإن ظلم ذلك الظالم أصاب أرواحنا بآلاف الجراح!

فقال الأرنب: لقد كان هذا بتأييد الله أيها الكبراء! وإلا فما شأن أرنب في هذه الدنيا؟

لقد وهبني القوة، وأنار قلبي، ونور القلب قد أمد بالقوة يدي وقدمي

وما يجيء الفضل إلا من عند الله، كما أن تبديل الأحوال أيضاً يأتي من الحق

والحق يظهر هذا التأييد في أدوار مختلفة لأهل الظن وأهل العيان

فتنبه ولا تفرح بملك وقتي، ولا تدع الحرية يا من أنت أسير الزمن الموقت

فكل من نسج ملكه مما هو أعلى من الزمن الموقت،

قرعت له الطبول فوق الكواكب السبع...

أيها الكبراء، لقد قتلنا عدونا الظاهري وبقي عدو أمر منه في باطننا) (ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢).

والرومي يتخذ من بعض الزعامات التاريخية كفرعون ونمرود وهامان، رموزاً للطاغوت الذي ينزل ظلمه بالناس! ويقيم السدود بوجه الحق والعدل والخير والمحبة، ويسلط عليهم من سخرياته ما يشاء، ويرسمهم بخطوط كاريكاتورية مقنعة تدفع الناس إلى النفور منهم والضحك عليهم!! ويعتمدهم مراكز ثقل في الصراع الدائم بين الإيمان والكفر... هنالك حيث تكون العاقبة دوماً للإيمان...

ومراراً يعود الرومي في مثنوياته إلى فرعون والنمرود وهامان...[1]

---

(١) انظر كشف الأعلام في الترجمة العربية ص ٦٢٧ـ٦٣٥.

١٠

والرومي يعتمد كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام عبر نهر معطياته المتدفق من المنبع حتى المصب... وهو اعتماد يتحرك على مستويين... المستوى الأول عام، شامل يتمثل في هذا الانعكاس الواضح للرؤية الإسلامية بقرآنها وسنتها في معطيات الرومي الشعرية... في روحها ومضامينها وتوجهاتها والتزاماتها... وهو ما حاولنا أن نسلط الضوء في هذه العجالة على جانب منه فحسب... وأما المستوى الثاني فهو خاص...

محدد... يتمثل باعتماد آيات وأحاديث معينة بالذات، تارة للاستشهاد الحرفي، وطوراً لاتخاذها (خلفية) يستند إليها في تكوين صورة من الصور أو تركيب معنى من المعاني... وهي تجيء بمثابة شاهد آخر على التزام الرومي...

والنماذج كثيرة... وهي منبثة في مثنوياته من أولها إلى آخرها... ويمكن أن نمثل لها بعدد من الشواهد فحسب، سبق لمترجم الديوان إن أشار إليها في مواضعها...

(العشق حل في روح الطور أيها العاشق، فسكر الطور وخر موسى صعقاً) (ص ٧٥) إشارة إلى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف ١٤٣).

(فإذا كان الخضر قد خرق السفينة في البحر فقد كان في عمله هذا مئة صواب) (ص ٩٥) إشارة إلى قوله تعالى ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف ٧٩).

(والبحر الملح والبحر العذب في هذه الدنيا بينهما برزخ لا يبغيان) (ص ١٠٠) إشارة إلى قوله تعالى ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن ١٩ ـ ٢٠) (وتلك حال العارفين، دون نوم، وقد قال تعالى ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[1] فلا تكن منكراً) (ص ١٠٩ ـ ١١٠).

(والظل في قوله تعالى ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ صورة أولياء الله، وهذه هي الدليل المنبئ عن نور شمس الله) (ص ١١٣).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ (الفرقان ٤٥).

(فلا تمش في ذلك الوادي دون أن يرشدك هذا الدليل وقل ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ مثلما قال الخليل) (ص ١١٣).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ (الأنعام ٧٦).

(وقوله تعالى ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ بيان لطهر الجسد، فهو كنز النور وإن كان سره من التراب) (ص ١١٤).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة ١٢٥).

(فلتخلصوا أنفسكم من الحس والأذن والهواجس حتى تسمعوا نداء ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾) (ص ١٢٧).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر ٢٧ ـ ٢٨).

---

(١) الكهف: ١٨.

(فاقرأ في القرآن. . . فالله تعالى يقول ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1] . . .

فإذا رمينا بسهم فليس اندفاع السهم منا، فنحن القوس، وأما الذي يلقي بالسهم فهو الله) (ص ١٣٢).

(ولما كان الكفار قد جاؤوا من جنس سجّين فإن سجن الدنيا وافق هواهم. . .

وأما الأنبياء فإنهم إذ كانوا من جنس عليين فقد تساموا إلى علياء الروح والقلب) (ص ١٣٤).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ (المطففين ٦ ـ ٧) وقوله ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ (المطففين ١٨ ـ ٢٠).

(وإذا كنت تريد خبراً عن ذلك الخروج اليهودي الآخر فاقرأ سورة ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾[2] . . .) (ص ١٤٢ ـ ١٤٣).

(فالطيبون لهم ميراث من الماء الحلو، وهو المقصود في قوله تعالى ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾) (ص ١٤٣).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر ٣٢).

(والماء والطين ـ حينما ارتويا من أنفاس عيسى ـ انبثقت لهما قوادم وخوالف وأصبحا طائراً يحلق) (ص ١٥٤).

---

(١) الأنفال: ١٧.

(٢) انظر سورة البروج: ٣ـ٦.

إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران ٤٩).

(وكل من كانت أمه الهاوية، أصبحت له الهاوية زاوية ومسكناً) (ص ١٥٥).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ (القارعة ٨ ـ ١٠).

(وعندما قيدت الأرواح بأمره تعالى ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ صارت أسيرة الغضب والحرص والرضا) (ص ١٦٠).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (آل عمران ٣٦).

(وإذا أشكل الأمر عليك وأنت تتأمل هذه الحقائق، فأنت في شك من قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ (ص ١٧٥).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ (القمر ١).

(إن أبا البشر آدم، أمير علم الأسماء، كان كل عرق من عروقه ينبض بآلاف العلوم) (ص ١٩٠).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة ٣١).

(فتأوه قائلاً: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ يعني أن الظلمة قد حلت، وضاع الطريق) (ص ١٩٢).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف ٢٣).

(ولا تكن موقناً بأن الضعفاء لا معين لهم، واتل من القرآن قوله تعالى

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[1]. . . إن ذا العطاء قد رعى أصلنا حتى استغلظت أشجارنا واستوت) (ص ٢٠٠).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ (الفتح ٢٩).

(فمحمد حين خلص من النار والدخان، كان وجه الله في كل ناحية اتجه إليها) (ص ٢٠٤).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ (البقرة ١١٥).

(وإلا فكيف كان الإشفاق منها، لو لم يكن قلب الجبل قد أصبح دماً؟) (ص ١٥٦).

إشارة إلى قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ (الأحزاب ٧١).

وأما أحاديث الرسول عليه السلام فهذه بعض شواهدها:

(كان كل منهما سباحاً عالماً، فاتصلت روحهما دون رابطة مادية) (ص ٨٠)

إشارة إلى قول الرسول عليه السلام «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف».

(ولقد سمعت أذني قول الرسول «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» فاخترت هذا بقلبي وروحي) (ص ١٥٨).

---

(١) النصر: ١.

(إننا عيال الله، نطلب منه اللبن، وقد قال الرسول (الخلق عيال الله).. (ص ١٦٠).

(ولقد قال الرسول: إن من يتمارض يمرض حتى يموت، كما ينطفئ السراج) (ص ١٧٤).

(ففي كل لحظة لك موت ورجعة! ولقد قال المصطفى: الدنيا ساعة) (ص ١٨١).

(فإذا ما وضع الحق عليها قدمه من اللامكان، أصبحت ساكنة بمشيئة الله) (ص ٢٠٣).

إشارة إلى قول الرسول عليه السلام «لا تزال جهنم تقول هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رب العزة قدمه فتقول: قط قط وعزتك».

(لقد قال الله: إني لسانك وعينك! إني حواسك ورضاك وغضبك!

فاذهب فإنك من قلت عنه (بي يسمع وبي يبصر)...) (ص ٢٥٤).

إشارة إلى قول الرسول عليه السلام عن ربه سبحانه (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها).

١١

والآن... دعونا في ختام رحلتنا السريعة هذه على شاطئ بحر (المثنوي) الخضم، ذلك الذي قضى فيه المستشرق المعروف (نيكلسون) خمسة وعشرين عاماً!!.. دعونا نغوص معاً مرة ومرتين وثلاثاً... لكي

نستخرج بعض اللآلئ، فنتملاها عن كثب... بعيداً عن حواجز الإثبات والنقد... وجدران التحليل والتعليل...

١

(... لقد هبط آدم إلى الأرض للبكاء، ليكون منتحباً، نائحاً، حزيناً

فهو قد نزل من الفردوس ومن أوج السماء السابعة،

إلى موضع صف النعال ملتمساً العذر

فإذا كنت من ظهر آدم ومن صلبه، فكن طالباً للعذر، وكن أيضاً من شيعته!

واجعل من نار القلب ودمع العين نقلاً

فإن البستان لا يتفتح إلا بالسحاب والشمس

وما الذي تعرفه عن مذاق ماء المدامع؟

وما أنت إلا عاشق للخبز كالعميان؟

فلو أنك أخليت هذه الجعبة من الخبز لجعلتها مليئة بجواهر الجلال

فلتفطم طفل روضك عن لبن الشيطان، ثم اجعلها ـ بعد ذلك ـ رفيقة الملائكة...

إن اللقمة التي تزيد النور والكمال هي تلك التي تنال من الكسب الحلال

أما الزيت الذي يجيء فيطفئ سراجنا، فسمه ماء مادام يطفئ السراج

فمن اللقمة الحلال يتولد العلم والحكمة

ومن اللقمة الحلال ينبعث العشق والرقة...

وهل زرعت ـ قط ـ قمحاً فأثمر لك شعيراً؟..

إن اللقمة هي البذرة والأفكار ثمرتها، اللقمة هي البحر والأفكار جوهرها

إن اللقمة الحلال في الفم يتولد منها الميل للعبادة،

والعزم على الذهاب إلى ذلك العالم!).

٢

(... في استعدادنا للرحيل، لسنا شيئاً قط بدون عناية الله...

فيا إلهي! يا من فضلك مجيب الحاجات!

إنه لا يجوز ذكر أحد إلى جانبك

لقد وهبتنا هذا القدر من الهداية، وسترت الكثير من عيوبنا حتى هذه اللحظة

فاجعل قطرة العلم التي منحتنا إياها تتصل ببحارك!

إن في روحي قطرة من العلم فخلصنا من الهوى ومن تراب الجسد!

وذلك قبل أن يخسفها هذا التراب، وقبل أن تنسفها هذه الأهواء

وإن كنت أنت القادر على أن تأخذها وتخلصها من التراب والهواء حين نسفها

فالقطرة التي تقع في الهواء، أو تسقط على التراب، متى هربت من خزانة قدرتك؟

وإذا وقعت في العدم، أو في مئة عدم، فإنها تجعل رأسها قدماً حين تدعوها

وآلاف الأضداد يقتل بعضها بعضاً، ولكن حكمك يبعثها من جديد

ففي كل لحظة ـ يا رب ـ قافلة وراءها قافلة، تسير من العدم إلى الوجود!

أوليست جملة الأفكار والعقول تصير كل ليلة غرقى في بحر عميق؟

أوليست هذه الملكات الإلهية ترفع كالأسماك رؤوسها في وقت الصباح؟

وفي الخريف تذهب آلاف الأغصان والأوراق منهزمة إلى بحار الموت!

بينما الغراب يرتدي السواد كالحزين، وينوح على الخضرة في البستان

وثانية يجيء الأمر من سيد الأرض فيقول للعدم:

رد ما أكلت أيها الموت الأسود، رد ما أكلت من زرع وأعشاب وورق وحشائش

فيا أخي! اجعل عقلك معك لحظة واحدة!

إن بك في كل لحظة خريفاً وربيعاً!

وانظر بستان قلبك أخضر ريان نضراً

حافلاً ببراعم الورد والسرو والياسمين!

قد احتجبت فيه الغصون وراء ما تكاثر من ورق

واستتر السهل والقصر وراء ما كساه من أزهار

وهذا الكلام المنبعث من العقل الكلي

إن هو إلا شذا هذا البستان والسرو والسنبل

وهل تنسمت قط شذا الورد في مكان خلا من الورد؟

أم هل رأيت فورة الخمر حيث لا خمر؟

والشذا هو دليلك وقائدك الذي يمضي بك إلى الخلد والكوثر

والشذا دواء للعين يمنحها النور

وقد تفتحت عينا يعقوب حين تنسم شذا يوسف

فإن أنت لم تكن يوسف فكن يعقوب، وكن مثله أليفاً للبكاء والشجن

ولا يكن منك سوى ضراعة يعقوب وآهاته! فاجعل نفسك ميتاً بالضراعة والفقر!

حتى يبعثك من الموت نفس عيسى، ويجعلك مثله مباركاً سعيداً!

وإلا فكيف يغدو الحجر الصلد أخضر من الربيع؟

إلا فلتكن تراباً حتى تنبت الورد مختلف الألوان

لقد ظللت السنون الطوال حجراً يجرح القلب،

فجرب لحظة واحدة أن تكون تراباً!)

٣

(أسمعت أنه كان في عهد عمر، عازف للصنج مطرب بارع؟

كان البلبل يغدو ثملاً بصوته

وكانت أنفاسه تزين المجالس والمجامع، وكان غناؤه يقيم القيامة!

لقد كان مثل إسرافيل الذي يرجع صوته الأرواح إلى أجساد الموتى

أو كان مثل رسائل إسرافيل، ينبت بسماعها جناحان للفيل!

ولسوف يصبح إسرافيل ذات يوم صيحة تهب الروح لمن تحلل جسمه مئة عام!

والأنبياء أيضاً أنغام في باطنهم بها للطالبين حياة لا تقدر بثمن

وليست إذاً الحس تسمع هذه الأنغام. . .

إن أنغام باطن الأولياء تبادر بقولها: يا أجزاء النفي والعدم!

تنبهوا وارفعوا رؤوسكم من (لا) النفي

واخرجوا بها من هذا الخيال والوهم!

وأنتم أيها المنحلون في عالم الكون والفساد

إن أرواحكم الباقية لا تنمو ولا تولد

ولو أنني شدوت بطرف من هذه الأنغام

لرفعت الأرواح روحها من القبور

فلتجعل أذنك قريبة منها، فليست ببعيدة عنك،

ولكني لم يؤذن لي بنقلها إليك

وتنبه! فإن الأولياء هم إسرافيل الزمن الحاضر،

فمنهم للموتى حياة وانتعاش!

فالأرواح الميتة في قبور الأجساد تقفز من أكفانها مستجيبة لندائهم!

وتقول: إن هذا النداء مختلف عن جميع النداءات!

إن البعث لهو فعل نداء الله!

لقد متنا وتحلل كياننا كله، وجاء نداء الحق فنهضنا جميعاً. . .

فيا من قلوبهم تحت جلودهم متحللة بالفناء!

عودوا من العدم بنداء الحبيب).

٤

(لقد قال الرسول: إن نفحات الحق تتسابق في هذه الأيام

فأنصتوا وتنبهوا لهذه الأوقات، واغنموا مثل هذه النفحات!

لقد جاءت نفحة، وتطلعت إليكم ومضت

لقد وهبت الروح لكل من أرادت ثم تولت

وجاءت نفحة أخرى فتنبه لها حتى لا تتخلف عن تلك أيضاً أيها الرفيق!

إن النفس النارية وجدت فيها ما يطفئ نارها

كما أحست منها الروح الميتة بالحركة تدب فيها

وهذه الحركة إنما هي نضارة شجرة طوبى واهتزازها...

فهذه النفحة لو وقعت في الأرض والسماء لانصهرت مرائرهما في الحال رعباً!

وذلك من خوف هذه النفس الذي لا نهاية له ألا فلتقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾[1].

وإلا فكيف كان الإشفاق منها لو لم يكن قلب الجبل قد أصبح دماً؟

وبالأمس مدت لي هذه النفحة يدها، في صورة أخرى

فعرضت لي بضع لقم سدت أمامي الطريق...

فوخز الأشواك إنما هو من أجل لقمة

(١) الأحزاب: ٧١.

ألا فلتخرجوا الشوك من كف لقمان. . .

أيها الجمل! إن فوق ظهرك حملاً من الورد

ومن نسيمه قد نبت فيك مئة بستان!

ولكن ميلك متجه للشوك والرمان،

فأي ورد ستجنيه من شوك الرمال؟

فيا من طوفت من درب إلى درب وراء هذا الطلب

إلام تقول: أين هذا البستان أين؟

فما دمت لم تخرج من قدمك هذه الشوكة فإبصارك مظلم، فكيف تتجول؟

إن الإنسان الذي لا تسعه الدنيا، يحجبها عنه سن شوكة!

ولقد جاء المصطفى ليضع الوفاق. . .).




قراءة في شعر الحسناوي

١

ما دام الفنان المسلم يكتب (شعراً) فهو لا يقف في مكان واحد... وهو بهذا يمنحنا (الشاهد) على أن الالتزام في الشعر الإسلامي ليس رتابة، ونمطية، وسكوناً... ولكنه تنوع وإبداع وحركة دائمة في الزمان والمكان... على السطح وفي الأعماق...

إن النهر واحد... وماءه واحد... والقانون الذي يسيره واحد... لكنه بين المنبع والمصب، يلتوي ويستقيم... يموج وينساب... يرقص ويحزن... يضحك ويبكي... يطوف مدناً آهلة ويجتاز صحارى وقفاراً... يسعد ويرتاح في أحضان الروابي الخضراء، ويشقى ويتعذب وهو ينزلق في الأراضي البور... يبرد ويكتوي بالنار. كلنا يعرف (حياة) الأنهار... في مذكراتها ألف حزن وفرح... في رحيلها يتعاقب الليل والنهار...

إن الشعر الإسلامي الملتزم... هو واحد من هذه الأنهار...

٢

ليست (نقداً)... ولكنها (قراءة) في شعر (الحسناوي)... أمامي الآن اثنان من دواوينه (في غيابة الجب)[١] و (ملحمة النور)[٢]. إنه على مستوى

(١) مكتبة الأقصى، عمان.

(٢) دار القلم، دمشق ـ ١٩٧٤.

الشكل يعتمد كافة الصيغ المعروفة في هندسة الشعر... ما يسمى بالعمودي وما يعرف بالحر... وما يمتد جسراً بين هذا وذاك... والرجل لا يتردد في الإفادة منها جميعاً. ليس ثمة داع للتردد... والجدل القديم الجديد بين أنصار لهذه الصيغة وطلاب لتلك... الجدل الذي تفاقم خطبه

في بعض لحظات التوتر والانفعال فجاوز عالم النقد إلى حلبة الملاكمة... ما كان له أن يكون... فالشاعر الجيد، يبني بهذه المادة أو تلك، ويعتمد هذا المخطط الهندسي أو ذاك... إن القصيدة شخصية عميقة الغور، متشابكة العلائق، معقدة التكوين... وليس من الإنصاف أن نحكم عليها من لون بشرتها وسواد عينيها!!

إن لون البشرة وسواد العيون، مدخل، إلى التركيب السايكولوجي للقصيدة... مدخل فحسب... ولكن ما يكمن وراء المداخل والأبواب شيء يستعصي على الحكم السريع...

٣

مهما يكم من أمر... فالرجل في (غيابة الجب) يكتب شعراً حراً... (تعال)، ذلك هو عنوان المقطع الأول:

(أبي لم يكن بنبي

ولم أدع يوماً بيوسف

ولا طرفت مقلتي سجدة النيرين ولكن (جران... جران... جران...)

ذئاب عوت في شرايين حلمي

ـ من الطارقون؟...

وفي لحظات الديوان الأخيرة نسمع:

(ناطحة السحاب أحجار على أحجار

وما سقى النبات والحيوان والإنسان

من سالف الزمان

إلى الأبد

يحصده رمان

مزدهر في الملحق الخلفي من جمجمة البشر

في البدء كان الكره

وكانت الأفلاك والتاريخ أصداء الكره

ومثلما تفتتح الحكاية

تنتحر الحكاية...)

وبين البدء والنهاية، بين الطرق على الباب وانتحار الحكاية، يحدثنا الحسناوي عن واحدة من تجاربه، محفور عنوانها على غلاف الديوان، حديثاً يتدفق حرارة وعفوية وجمالاً... ماذا آخذ وماذا أدع؟!

ليس بمقدوري على أية حال أن أنقل للقارئ القصيدة كلها... القصيدة التي تحمل شخصيتها المتميزة، المتماسكة، الواضحة... من البدء حتى المنتهى... الكلمات والتعابير والأجواء الموسيقية والمعطيات... ولكن إذا كان لابد من شاهد فلابد من (جريمة).

الاقتطاع... (إذا كان)، تحت هذا العنوان نستمع:

(إذا كان حزبي الربيع

وكان ألد خصومي الصقيع

إذا كان سيفي الغناء

وشطر صلاتي السماء

ونصحي وشتمي حداء...

إذا جار غيري وغيري اشتكى

إذا غصن عند بابي اتكى

ومثل مآقي السماء بكى

إذا أنا لم أحرق الياسمين

ولم أطأ النعل في الواطئين

إذا بليت كالرذائل أفئدة الآخرين

إذا انتحرت روحهم من قديم

ومذ نبتت في البطون

إذا نصبوا للهواء الكمين

إذا صلبوه وطار

نسيماً طليقاً

عليلاً رشيقاً

كما ارتعشت لغة العاشقين

إذا سرقوا الأنجم الذهبية

إذا هربت منهم الأنجم الذهبية

تهيم كوالهة أموية

تسائل عن (طارق) و (زياد)

عن الوثبات الوراء

تفتش عن جبهة عربية

فما الذنب ذنبي...)

وفي (قتيل الليل) نقرأ:

(صحوت... الليل قتيل سملت عيناه حيا

مد ذراعيه صقيعاً في يديا

صمت مشوب كرسول العاصفة

قعقع رعدها وما أسمع

متى، متى السكون،

يقلقني

يستلني من كهف أهل الكهف؟

نأمة صوت أيقظتني؟

قرعة باب؟

لا.. خسئ الوهم وتعساً للسرير

أضلاعه أوهن من ضلعي الكسير

جداري الأملس أصداء قرار

مات القرار!

❀ ❀ ❀

ماذا وبعد الثانية!

ماذا؟ أيكذب الجرس؟

وهذه الأزات تغتال الغلس

تخشخش القتيل

ويلاه! ليتني القتيل، ليتني السرير

ويلاه! عادت الجنود

الواد عاد

العفن القديم والسياط والجلاد

العربات السود

الكهرباء في المغاور

أما ارتويت أيها الزمن

من دمي البديد؟!

انشق أيها الجدار!

طر بي ولو إلى الجحيم

دعني أمر

لن يزعجوك مثلهم أنت

عفواً لأنت خير

دعني أمر أيها الصديق

دعني أخا الألم

دعني أمر...)

وفي (لا تسحروا الأبصار) نقرأ:

(... أيتها الظنون:

نحن صدقنا شعبنا، فلا تصدقينا

لأجل كل حبة من قمحنا

لأجل كل زهرة من روضنا

كوني كما ترجو النساء

كوني كما ادعى الدجال

وكذبينا...)

٤

شعر... أليس كذلك؟ ولا يهم بعد هذا أن يكون شكله قديماً أو حديثاً... أن يؤطره الامتداد العمودي الرصين، أو ينطلق حراً من العمود، مفروشة تفاعيله بحيوية ورشاقة ما دامت لاتتمرد على رحمها العربي، وتكسر تقاليد الهندسة الشعرية التي صنعتها عشرات القرون من الجهد والعناء...

والقصيدة تتابع المجرى الزمني للحدث، دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة... قصة واحد من مئات يجد نفسه مسوقاً إلى رحلة في غيابة الجب... كما دفع أخوة يوسف أخاهم من قبل، وقالوا لأبيهم: أكله الذئب.

وبين الحين والحين يخترق الشاعر مقولة الزمن والمكان... لكي يبعد في التاريخ: (ظلام... ظلام... وجدراننا لا ترام.

كأسوار (بابل)

كأجبال (عاد)

وأبوابنا ـ رحم الله إسكندر ذا القرون ـ

ظلام... ظلام...)

لكي يبعد ـ كذلك ـ في تاريخه الخاص:

(تذكرت شيئاً بجيبي

مددت إليه يدي

أفتش عنه وعن أمسي المبعد

لعلي أشم نسيم الفضاء

عبير الحدائق

غبار المدارس

لعلي أعود ولو بالخيال

إلى ذلك العالم المبعد...)

لكي يرتاح إلى الطبيعة قليلاً:

(توحدت روحاً وجسماً

كما اعتنق الكون جرماً فجرما

كما ابتسم الروض كماً وزهره

ولم تنشطر فيه ذره...)

لكي يغوص إلى الأعماق بحثاً عن الحرية:

(أنعشني الهواء

ذكرني حريتي

عارية، ناجية بجلدها

وحيدة تنعم بالسكينه

بالكلمة العذراء

هاربة من أعين الجريمه

حيث مدى الجريمه

تطوف في الآفاق في الأحداق

تقتحم البيوت

تكمن للوسواس

حيث مدى الجريمه

تمسخني والناس كالبهيمه

ما أعطر الإحساس بالهواء!!...)

وما يلبث أن يعود إلى المجرى الزمني الذي اختاره للتجربة:

(ودبت الأيام

كسيحة الأقدام

دبيب أنمال على أنمال...)

وكان بمقدوره أن يقلب الزمان والمكان رأساً على عقب... أن يبدأ من لحظة الحرية وينتهي إلى غيابة الجب... أن يدمر التسلسل المعقول للحدث، ما دام أن الحدث نفسه (غير معقول).. وما دام أن زماننا نفسه مقلوب رأساً على عقب!! نبدأ بالحرية وننتهي إلى الجب... ولكن... من يدري؟ لعلها نبوءة... لعلها تلميح بالذي سيأتي...

إن المصير لا يتشكل عبثاً... إنه يتخلق في رحم التجربة... وبدونها فليس ثمة مصير:

(من جبنا

من حقدنا

من ألف ألف مخلب في كفنا

سننقب الجدران

سنملأ الأسواق

ونفجأ النخاس والقرصان...)

٥

تستمد القصيدة دفئها وعذوبتها من صدقها الفني: تعبير متدفق عن تجربة حارة تتراوح نغماتها الوجدانية بين النبرة الحزينة والفرح الطاغي، بين التأمل الرزين والثورة الجارفة... وتنتقل في لمساتها جزئيات التجربة وكلياتها، فهي تقترب من التفاصيل حتى تكاد تلتصق بها، وتلح أحياناً في الاقتراب فتغدو (عرضاً) مباشراً... وتبعد حيناً آخر لكي تنتزع من الأشياء اليومية، الأشياء الصغيرة المبعثرة، معنى عاماً أو هدفاً شاملاً.

من هذا التناغم بين الثنائيات... من هذا الحوار المتقابل، تستمد القصيدة ملحها العذب، وموسيقيتها، فلا يمل القارئ ولا تبرد استجابته...

يقول في (بني):

(مهما يكن فسوف تدرك الحقيقة

ستذكر الأب الذي تعشق الحقيقة

والكلمة الحمامة الطليقة

تعشق الأطفال والجيران والحديقة

وسار... سار في قطار لا يعود

لا تبتئس إن أوردوك يا بني موردي

فدربنا الشمس، ودرب الشمس لحن أبدي...) وفي المقطع الأخير من (هل الكرات قدري؟) يقول:

(من عامي السابع في فمي كره

أبي طريد الانتداب

عامين... دهرين... يعاني الاغتراب

ونحن في مفاصل الأبواب

لم نزرع الكمون في حياتنا ولا اتجرنا به

لكننا كنا وما زلنا ملوك الملح والكمون...)

٦

ثمة مأخذ يمس التركيب الموسيقي للقصيدة... إن الحسناوي يترك بعض القوافي معلقة، مفردة، ونبحث دونها عن جرس يجاوبها ويناغيها، فلا نجده، وتبقى القافية مفردة، معلقة، يتيمة.

وهذا مثل من عديد، ويستطيع القارئ أن يعثر على أمثلة أخرى فيما أوردناه من مقاطع، وفي مساحات الديوان كله..

(من جبنا

من حقدنا

من ألف ألف مخلب في كفنا...).

(سننقب الجدران

سنملأ الأسواق

ونفجا النخاس والقرصان. . .)

وها هي النون الساكنة في (الجدران) تناغيها شقيقتها في (القرصان) ومن ثم تجد الضربة الموسيقية صداها، بعد فاصل قصير، فترتاح لها الأذن والأعصاب. أما القاف الساكنة في (الأسواق) فتبقى معلقة، وحيدة، تبحث عن شقيقة لها تجيب نداءها فلا تعثر عليها. . . وكان أحرى - بعد فاصل آخر - أن نلتقي بالمطلوب. . . إنها - إذا استخدمنا مصطلحات المقام الموسيقية - جواب بلا قرار. . .

ويطمح القارئ، في طبعة جديدة للديوان، أن يعثر على القرار. . .

٧

وها هو ذا في (ملحمة النور) يتجاوز اللحظات الراهنة قليلاً، ويوغل في التاريخ، لكن (العصر) ما يلبث أن يناديه فيعود إليه ثانية. . . ومن أجل أن ترتبط حبات الملحمة في خيط واحد، يسمي وجهها التاريخي بالفجر الأول، ويسمي وجهها المعاصر بالفجر الرابع عشر، ويختار لكل وجه بعض لحظاته المكثفة، أو بعض شخوصه الملهمة. . . وهو في كلتا الحالتين يعرف بحاسته الفنية كيف يقع على الموقف الدراماتيكي لكي يصوغه شعراً يرفد به ملحمة النور فتزداد تألقاً وكهرباء. . .

الإسراء والمعراج، ويوم بدر. . . لحظتان من أشد اللحظات كثافة وتوتراً تاريخياً في عمر رسولنا العظيم عليه السلام. . . صانع فجرنا الأول. . . وكل فجر. . .

عبد الله بن أم مكتوم. . . سراقة بن مالك. . . أبو خيثمة. . . وكعب بن مالك. . . أربعة شخوص يتمثل عنصر الصراع الدرامي في تجربة كل واحد منهم: على مستوى الشخصية أو على مستوى الحركة التاريخية نفسها. . .

هذه هي مرتكزات الملحمة في فجرها الأول... وإنه لاختيار جيد، رغم أن التجربة الإسلامية يومها تضمنت عشرات، بل مئات غيرها من اللحظات والشخوص التي صنعت الملحمة... لكن الفنان ليس مكلفاً بأن يغطي مساحة التجربة بعطائه، تلك مهمة المؤرخ... ومع ذلك!! فما دام الحسناوي قد اختار أن يكون ديوانه (الصغير) هذا (ملحمة) والملحمة قصيدة قصصية طويلة النفس، كما هو معروف، فإنه كان يتوجب عليه تنفيذ مطاليب المصطلح الفني، أو تغيير العنوان للخروج من الورطة، كأن يغدو مثلاً (مواقف في ملحمة النور) أو (قصائد من ملحمة النور)...

إلا أنه بدلاً من هذا وذاك، يحاول في مقدمة مجموعته أن يبرر موقفه... يقول (على الرغم من أهمية التعريف في الفنون لا أرى التقيد به أو الخضوع له لأكثر من سبب. أولاً: دور المصطلحات والتعريفات في الفن غير دورها في العلم. ثانياً: التعريفات في الفن، كتعريف الملحمة، يتناولها التطور والتحوير. ثالثاً: التعريفات بنت النقد والنقد تابع للإبداع لا سابق له. رابعاً: تعريفات الملحمة مستوردة من أدب الغرب ولكل أدب، إن لم أقل لكل أديب، مزاياه... وهذه المجموعة الشعرية قصائد يغلب عليها الطابع القصصي وتنتسب إلى موضوع عام، الموضوع منظور إليه في مرحلتين تاريخيتين...).

معك يا حسناوي... فالقصائد التي تنبثق عن تجربة محددة الزمان والمكان، وتلتزم تقنيتها القصصية، يمكن أن تعتبر في نهاية التحليل قصيدة واحدة... ملحمة بعبارة أخرى...

لكن... ألم يكن يتوجب عليك في هذه الحالة أن تمد في مساحات قصائدك.. وبصراحة... أن تزيد المواقف عدداً لكي تغطي قدراً أكبر من لحظات التجربة، فيزداد العرض تواصلاً وتماسكاً، وبالتالي إقناعاً فنياً للقارئ الذي يتعامل مع (ملحمة) وليس مع (مجموعة) شعرية؟

النفس الطويل... ولا يهمنا بعد هذا أن تكون الملحمة قصيدة واحدة أم قصائد عدداً... ومن يدري... فلعل الحسناوي يرجع إلى التجربة العظيمة مرة ثانية وثالثة لكي يصنع منها ملاحم شعرية أخرى... فالمنجم عميق، وأحجاره الكريمة مغرية حقاً... وهي تتلألأ في ذلك المكان البعيد...

وأظننا ـ بعد هذا ـ مشوقون لأن نسمع شيئاً مما قاله الرجل مرتحلاً إلى الفجر الأول، وسوف نضطر هاهنا أيضاً إلى (الاقتطاع)، فلا مفر منه أمام مجال ضيق كهذا...

في (الإسراء والمعراج) يتخذ الحسناوي من (البراق)، ذلك المخلوق المعجز الذي نقل رسولنا عليه السلام إلى القدس وعرج به إلى السماء، مركز ثقل فني لكي يتابع من خلاله الرحلة الفذة:

حط البراق على ثرى البطحاء   والليل يضرب خيمة الظلماء

حط البراق على بساط جهالة   سوداء قد أغفت على شحناء

يعرض للأزمة التاريخية التي كانت مكة، والعالم كله بالتالي، تعانيها في عصر الأصنام والأوثان... وظهور الإسلام... وتحدي رسوله العظيم لقيم العصر ومواضعاته... الصراع غير المتكافئ بين الصوت الجديد والزعامات العتيقة...

وبعد سني العذاب الأولى آن الأوان لتكريم النبي الذي حمل على كتفيه هموم العالم، وما أعياه الكفاح:

فلترتفع قدماه فوق رؤوسهم   بعد الهوان وشدة الإيذاء

يسري به إلى القدس... ثم يعرج به إلى السماء... وألف مغزى ومغزى يكمن هناك...

صعداً أبا الزهرة فوق ظلامهم ... واهناً فدربك طافح الأضواء

هذي النجوم الزهر جئنك سمراً ... فاسحب على السمار ذيل عفاء

واعرج فطف بالأنبياء فعندهم ... نصح الهداة وخبرة الحكماء

صعداً أبا الزهرة حتى المنتهى ... من سدرة وجلالة وبهاء

واسجد لربك شاكراً آلاءه ... واسأل لتعطى غاية الأشياء

وليس ثمة غاية وراء هذه الرحلة الكونية التي كرم الله بها نبيه، ومسح على قلبه المكروب...

وتكاد تكون قصيدة (عبد الله بن أم مكتوم) الصحابي الأعمى الذي دخل على الرسول ﷺ والمشركون لديه يفاوضونه أيام الدعوة الأولى، فانشغل بهم الرسول عنه لحسم الخلاف معهم، فعاتب الله رسوله على ذلك في ﴿۞ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ثم كان من هذا الصحابي ما كان... تكاد تكون من أبدع قصائد الملحمة في بنائها الفني وقافيتها السينية الجميلة التي تذكرنا بسينية البحتري ورائعته التي يصف بها طاق كسرى ورسومه الجدارية، وكأنه يخرج بريشة كلماته مسرحية حية شاخصة للعيان...

يبدأ الحسناوي، هنا كذلك، بفرش الأرضية التاريخية التي ظهر الإسلام فيها... الأرضية التي تتحرك على أديمها حشود من الجهالات والخرافات، وتعتصر ماءها جموع من الزعامات والكهانات، ويلفها ظلام (جاهلي) عميق..

في انحسار من الحضارات نحس ... وكسوف من كل فكر وشمس

وانكباب على التراب... مهين ... وانسلاخ من السموات نكس

واعتساف على الموازين باغ ... واندفاع مع الخرافة شرس

يطلع الفجر الجديد... وثمة لمسات خاطفة بفرشاة الشعر لملامح صانع هذا الفجر... ثم:

ها هم المرجفون جاؤوا إليه يتلاحون بعد بغي وشكس

خمسة من طغاة مكة أعما م وأشراف، يا لعزة خمس

ويتمنى الرسول عليه السلام أن لو يأوي هؤلاء إلى الدين الجديد فتكون له بهم قوة...

حلم راق للنبي طويلاً وهو في لجة الخيال المنسي

وإذا طارق يلوح على البا ب ملحاً على اغتراف وقبس

وتبدأ، من ثم، قضية ابن أم مكتوم... علامة شرف في فجر الملحمة... ونقطة ضوء شفيف...

مقبلاً يرسل السؤال عريضاً فيغطي هديره كل جرس

يا أبا القاسم المفدى أغثني بعطاء السماء، قد طال حبسي

ضمني، ضمني لركبك إني مؤمن. يافداك قومي ونفسي

كان الرسول عليه السلام مشدوداً إلى الأمنية الكبيرة: واحد أو أكثر من الزعماء الخمسة ينتمي للدعوة الجديدة فيكون لها بهم قوة... فمن تراه يكون ابن أم مكتوم هذا؟!

من تراه يكون والسادة الخمـ ـسة أعلام في قريش وقيس؟

من تراه إذا العقيدة شاءت كسب ود الخصوم ساعة بأس؟

لكن الله... سبحانه... له حكم آخر... وإن نزول المقاطع الأولى من سورة (عبس) في هذا الموقف... تعاتب الرسول عليه السلام، وتضع الموازين القسط، ليكفي وحده ليقول الناس: حاشا لهذا الدين أن يصنعه إنسان!!

النبوات ـ يا محمد - ميزا ن السماء الأغر، فاصدع بفاس
واحطم الشرك والجبابر حطماً واطمس البغي كله، أي طمس
كيف تسلو ابن مكتوم الفـ ـذ بخمس من الخفافيش يبس
إن فرداً عند الإله صدوقاً لهو خير من ألف جيل وجنس

وينتهي العرض الأول للموقف التاريخي بإعلان انتصار الموازين الجديدة التي جاء الإسلام لكي يعمل بها في العالم.

الموازين بالعقيدة تعلو والطواغيت لانخفاض ودعس

في المقطع الثاني من القصيدة تتغير الموسيقا باعتماد تفعيلة أخرى أكثر خفة، كما تحل النون محل السين قافية لها... ويشعر القارئ بارتياح نفسي لهذه النقلة الفنية...

شتان بين قبائل الإنسان
هذا امرؤ هاد وذا شيطاني
شتان بين الروح والريحان
وممرغ في الوحل للأذقان

على مستوى المضمون يتناول هذا المقطع الكثير من الجوانب التي شهدناها في المقطع الأول، ويضيف عليها امتداداً زمنياً يصل بنا إلى مرحلة (الفتوحات) حيث لعب ابن أم مكتوم دوره... واحد من آلاف المقاتلين الذين بعثهم الإسلام لتغيير العالم...

فليمض (عبد الله) حتى القادسـ ـية، وليكن في حومة الميدان
لا الليل يوحشه ولا نقع الغبا ر يكف رايته عن الخفقان

هذا الذي قد عاين الفردوس عن كثب وما قعدت به عينان

ففي موازين الدين الجديد يبصر الإنسان بروحه لا بعينيه، وما لم تقد العينان صاحبهما إلى حقيقة الإيمان، فليس ثمة نفع يرتجى منهما... وبهذه الضربة تختتم القصيدة:

لا العين والعينان نافعتان
ما لم يكن في النفس مصباحان
لا العين والعينان نافعتان
ما لم يميزا جوهر الإيمان

٨

أيها الخابطون عبر الدروب أنظروني أخبركم بالعجيب
أنظروني لا رابكم حد سيفي واجتياحي الكثيب بعد الكثيب

من هذا المنادى الذي يعبر الصحراء مسرعاً... وإلى أين؟

إنما أسمي سراقة إن سألتم من بني جعشم حماة الغريب

إنه إذاً (سراقة بن مالك): صحابي كان مشركاً حين لحق بالرسول عليه السلام أيام الهجرة القاسية طمعاً بجائزة قريش... فيعده الرسول في تلك اللحظة المظلمة بسوار كسرى!! وميزة القصيدة تبدو في النقلة الزمنية السريعة بين تلك اللحظة المظلمة ولحظة الانتصار الكبير:

أين عيناك يا سراقة لما فتح الله مقفلات الشعوب؟
دكت (الله أكبر) الظلم دكاً وتمشى الضعيف غير هيوب
لو ترى الفاتحين عبر الصحاري ينشرون الغنى وعبر الدروب

ونتجاوز قصيدتي (يوم بدر) و (أبو خيثمة) فهما ليستا شعراً ولكنهما صنعة لفظية جيدة. . . تعانيان ـ إذا صح التعبير ـ من فقر الدم، من هبوط النفس الشعري. . . نتجاوزهما إلى (كعب بن مالك): أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ـ على غير عادته ـ وعانى من نهي الرسول عليه السلام عن كلامه، من المقاطعة القاسية، ولما جاءه كتاب أمير غسان يغريه بالردة أحرقه وقال: وهذا أيضاً من البلاء. . . حتى تاب الله عليه. . .

نختار ـ من القصيدة ـ موقفه إزاء لحظة الإغراء الصعب. . . أمير غسان يتسلل من الثغرة، ويعرض عليه أن يلحق به لكي يغمره فضة وذهباً. . . تماماً كما تسلل إمبراطور الروم، فيما بعد، من الثغرة التي فتحتها صفعة ابن الخطاب في كبرياء (جبلة بن الأيهم)، أمير غسان، رداً على إهانته لفرد عادي من جماهير الناس، فليس في الإسلام ـ إذا أردنا الحق ـ فرد عادي وآخر ممتاز!!

يومها. . . استجاب جبلة للإغراء وغادر أرض الإسلام إلى بيزنطة، ليس هذا فحسب بل إنه غادر دينه الجديد إلى النصرانية طمعاً في إغراء الجاه والدنانير. . . لكن. . . إذا كان جبلة قد تربى في مناخ إمبراطوري بطران، فإن كعباً قد عايش مناخ النبوة الصابر. . . المحتسب. . . وشتان. . . وهاهو ذا أمام اللحظة الصعبة:

يا نبطي أعرض عني فهل ... بلغ بي ما يشتهي أعدائي؟
كتاب مولاك يقول إنه ... أتاه ما ألقى من الجفاء
الحق بنا نواسك ابن مالك ... بئست مواساة على البأساء
كعب يواسيه عدو مشرك ... ما أبعد الأرض عن السماء
انظر كتابه الحريري كعجـ ... ـل السامري فتنة الأهواء

لأحـرقـنـه كـمـا أحـرقـت جـا   هـلـيـتـي فـي عـصـفـة ازدراء
أمـا جـفـاء إخـوتـي أمـا انـتـظـا   ر (الـمـصـطـفـى) مـشـيـئـة الـقـضـاء

فـهـذه صـواعـق الـبـلاء!!

ونلتقي به في لحظة أخرى... وهو يدعو الله أن يكشف عنه البلاء... ما أرطبه من نداء!! لنكاد نشم معه رائحة الفجر البليل... ونرى دمعتين تنحدران من عينيه... أم تراهما تظلان عبر الموقف كله معلقتين هناك؟!

ربـاه يـا غـفـار، يـا رحـيـم، يـا   مـصـرف الإصـبـاح والإمـسـاء
يـا قـابـل الـتـوب ويـا مـنـزل الـ   غـيـث عـلـى ظـوامـئ الـبـيـداء
يـا كـاشـف الـغـم ويـا مـشـتـت الـ   ـلـيـل بـنـور فـجـرك الـوضـاء
كـعـب يـنـاديـك عـلـى (سـلـع) وحـيـ   ـداً، ضـارعـاً، فـي خـيـمـة الـعـراء
خـمـسـون لـيـلـة مـضـت والـنـهـي مـا   زال يـشـد أحـبـل الـعـنـاء
إذا لـقـيـت (الـمـصـطـفـى) مـسـلـمـاً   لـم أدر أن رد عـلـى دعـائـي
وإن لـقـيـت الـمـسـلـمـيـن أعـرضـوا   إعـراض مـلـدوغ عـن الـحـربـاء
عـفـوت عـن (آدمـنـا) لـمـا عـصـى   يـا خـالـقـي مـن طـيـنـة ومـاء
فـهـل يـضـيـق عـفـوك الـشـر وقـد   عـدت إلـى حـمـاك فـي اسـتـخـذاء؟

وتكاد الدموع تطفر من عيوننا ونحن نستقبل مع (كعب بن مالك) استجابة السماء... لقد نجح الرجل في الامتحان الصعب وايم الله!!

مـاذا سـمـعـت؟ (أبـشـرن كـعـب بـن مـا   لـك) نـداء، أم صـدى نـداء؟
الـلـيـل ولـى والـنـهـار مـقـبـل   واخـتـلـطـت مـعـالـم الأشـيـاء
يـا كـعـب هـذا فـارس وذاك را   جـل يـنـاديـك بـلا إبـطـاء

وهماً أرى أم حلماً يسعى إلـ ... ـي حاملاً بشائر النعماء؟

(بشراك يا كعب بن مالك بعفـ ... ـو الله وافاك من السماء

تاب على الثلاثة الذين خلـ ... ـفوا وصحت آية الرجاء

حتى إذا ضاقت عليهم أرضهم ... ونفسهم ضاقت على البلاء

ولم يظنوا ملجأ ينجي من الـ ... ـجبار إلا عقدة الولاء

تاب عليهم ليتوبوا إنه ... ما رد تائباً بلا رضاء

ونجتاز الأبيات التالية لكي نلتقي بآخرها... ضربة حلوة... من الحسناوي:

ما أسعد الضائع يلقى أهله ... بعد انقطاع الرحل والرجاء

٩

للفجر الرابع عشر الذي لا زلنا نعيش أطرافه المتأرجحة بين الضوء والظلمة... يختار الرجل لملحمته بطلين شهيدين: هاشم الرفاعي وأبا حسان!!

يريد بقصيدته الأولى أن يرثي الشاعر الشاب (هاشم الرفاعي) الذي اغتيل في ظروف مريبة... أن (يعارض) نونيته المشهورة التي نظمها وهو في المعتقل يرثي بها نفسه:

أبتاه... ماذا قد يخط بناني ... والسيف والجلاد ينتظران؟

لكن حر التجربة التي تخلقت فيها قصيدة الرفاعي... جمراتها... بعبارة أخرى، جاءت أشد توهجاً واحتراقاً، ومن ثم كانت أكثر (تأثيرية) وأعمق شاعرية من القصيدة المعارضة التي تغلب المباشرة والتسطيح على كثير من أبياتها...

فأما (مصطفى السباعي)... فقد قدم له الشاعر، أو قدمه لنا، بعبارة أخرى، في خمس مقطوعات تلخص لنا، بلغة الفن، تاريخ الرجل الذي لا تزال بصماته، وستظل، مطبوعة على واجهة العصر... عطاء البطل الذي لاتزال مواقفه وكلماته، وستظل، محفورة في شرايين الفجر الرابع عشر الذي أوشك على انتهاء!!

هاهنا يكتوي الحسناوي بالنار، فيمنحنا من حر تجربته شعراً دافئاً يزداد تألقاً والتهاباً مع صعود منحنى الرجل الصعب... في الشام... في فلسطين... في مصر... في وطن الإسلام... في العالم كله... حتى إذا مابلغنا قمة المنحنى، وتلقى شاعرنا نبأ الرحيل المحتوم... استحالت الأبيات رثاء مؤثراً حزيناً...

فإذا تجاوزنا المقطع الأول الذي لايسامت المقاطع التالية ولا يرقى إلى مستواها الفني شكلاً ومضموناً... وجدنا أنفسنا أمام أربعة مقاطع أخرى يقف ثالثها في القمة ولا ريب... ونقرأ منه:

ذهب الدخيل ولم تزل أذنابه ... وتغلغلت في المارقين رغابه

في النفس منه هيبة وقماءة ... فكأنما لم تنتقض أطنابه

الفكر فيه حائر... متهالك ... يجثو له - يا للحجا - ويهابه

والناس: هذا معجب مستعبد ... أو ناشز غالٍ، فطار صوابه!!

آراؤنا شتى يوحدنا القلى ... وتلمنا في النائبات نيابه

ضاعت فلسطين الشهيدة خلسة ... والثأر لم تؤخذ له أسبابه

لا ثأر إلا للسباع الضاريا ... ت وللألى عجمتهم أحقابه

في كل صقع سوف نغرس غرسة ... من معدن القرآن طاب شرابه

وبكل جامعة سنرسي معهداً فذا يعانق شمسه طلابه
فإذا رحلنا لم تزل أعلامنا تحمي الذمار، منيعة أبوابه

ونقرأ في المقطع الخامس:

أتحلو لي دمشق وقد تولى (أبو حسان) كالأمل الشهيد؟
تولى فالأصائل والأماسي يتيمات بأحداق الوجود
ودربي ذلك السامي إليه تطاول في الجفاء وفي الصدود
أقلب ناظري طياً ونشراً فتطويني وتنشرني قيودي
فما للدار غامت لا أراها؟ وما للباب يرسف بالحديد؟
وكنت أزوره نهلاً وعلاً فأرجع بالنمير وبالرغيد

فأما قصيدتا الديوان الأخيرتان (في المأساة) و (لوحة)، فما كان أجدر ألا تلحقا بالديوان مادام قد أريد له أن يكون (ملحمة)... من ثم، فإن تواجدهما هاهنا يمثل خروجاً على مقتضيات المنهج الفني لهذه المجموعة الشعرية، ما كان له أن يكون!!

١٠

عموماً... وما أكثر ماقاد التعميم صاحبه إلى التهلكة!! لكن المجازفة ممتعة!! عموماً فإن الموازنة بين العملين تقود إلى ترجيح القول بأن (الحضور الشعري) (في غيابة الجب) أكثر كثافة منه في (ملحمة النور).

بمجرد أن نخطو عتبات الديوان الأولى نجد أنفسنا في حضرة الشعر: الموسيقا... والأصداء... والتداعيات... والصور... والأخيلة... والظلال... والنداوة... والتواصل الوجداني والتراكيب الجملية... والتعابير...

كثيرة هي هذه القيم الفنية (في غيابة الجب)... أكثر بكثير من تواجدها هناك في (ملحمة النور)... ونسأل أنفسنا: لماذا لم يخرج علينا صاحبها بعمل، أو أعمال أخرى، تعتمد الشعر الحر، أو ما يسمى شعر التفعيلة، إطاراً فنياً، ما دام أن الرجل هاهنا أكثر شاعرية منه هناك، وما دام قد مضى على صدور ديوانه الأول ما يقرب من العقد من الزمان؟

سؤال لا يملك الإجابة عليه إلا (الحسناوي) نفسه!!

الإسلامية في رواية عمالقة الشمال

١

يمكن اعتبار (عمالقة الشمال)[1] واحدة من أهم أعمال (نجيب الكيلاني) الروائية، وأكثرها نضجاً، سواء وضعت في صف رواياته الإسلامية المعاصرة (ليالي تركستان، عذراء جاكرتا، رمضان حبيبي) أم أدرجت في قائمة معطياته الروائية كافة... فلنر...

تعتمد الرواية ضمير المتحدث، ولهذا طعمه الطيب!! فثمة مناخ شعري مشجي يصنعه هذا الضمير في كثير من الأعمال... وثمة (حضور) القارئ في قلب الواقعة الروائية... في صميم مجراها... فضلاً عن أنه يحتم على الكاتب اقتصاداً في السرد وتركيزاً قلما نجدهما مع الضمير الغائب (العالم بكل شيء)...

(اسمي عثمان أمينو، انحدرت من قبائل الفولاني في شمال نيجيريا، يقال إن قبائلنا قد أتت مهاجرة من صعيد مصر في قديم الزمان، وقد كانت لنا حروب وغزوات وممالك في أجزاء كثيرة من إفريقية. وفي نهاية القرن الثامن عشر ظهر لنا زعيم مشهور في التاريخ اسمه عثمان دان فوديو، استطاع أن يوحد قبائلنا ويجعل لها جيشاً جباراً تخفق فوقه

---

(١) مؤسسة الرسالة ـ دار النفائس، الطبعة الثانية، بيروت ـ ١٩٧٤.

ألوية الإسلام... وهكذا حكمنا إمارات كثيرة منها سوكوتو وكانو وبورنو... قبر عثمان دان فوديو ما زال حتى الآن في مدينة سوكوتو... لعل أبي سماني باسم عثمان تيمناً بهذا القائد العالم المسلم العظيم...) (ص ٥).

هكذا تبدأ رواية (عمالقة الشمال)، وتتدفق ـ من ثم ـ كواحد من أنهار إفريقية... غزيرة العطاء... حلوة الطعم... رائعة الإيقاع...

يحدثنا عثمان أمينو، ونحن ـ بعد ـ عند منابع النهر الروائي، عن مدن نيجيريا وملامح البيئة لكي يفرش أمامنا (المكان) الذي ستتدفق على مسرحه الأحداث. يختم العرض بأسطر معدودات وتلك ضرورة فنية، إذ الفنان ليس جغرافياً، وعليه إذا ما أراد تجاوز الخطر أن يكثف معطيات البيئة بأقل قدر من الكلمات.

(لم أتزوج بعد...) وبهذه الضربة يلج بنا (الكيلاني) عالم أبطاله الخاص... ومنذ هذه اللحظة وحتى نهاية الرواية، سيتعانق الخاص والعام، الإنسان والأمة، الضمير والعقيدة، البطل والتاريخ، عثمان أمينو ونيجيريا... وسنتابع مأساة هذا البلد من خلال حركة أبطاله... والتوافق بين الطرفين مرسوم بعناية فائقة... فلم يشأ القاص أن يستسلم لإغراء (التاريخ) فتفقد حبكة روايته شدها وكثافتها وتركيزها، وتتميع العلاقات الدرامية بين أبطاله...

(لم أتزوج بعد... لماذا؟ قد يظن البعض أن عدم زواجي حتى الآن سببه أنني أريد أن أتفرغ للعبادة والدعوة... لا... دعني أعترف... إن الدماء الحارة في عروقي تلهب جسدي، والزواج نصف الدين... الزواج نداء الفطرة في أعماقي...) (ص ٦).

ضربة واقعية... أليس كذلك؟ ولكن، لنترك التعليق الآن كيلا نزعج القارئ بمقاطعتنا بين الحين والآخر، ولنواصل ـ أولاً ـ عرض الرواية...

ولكن كيف؟ إن (التلخيص) سيقتلها ولا شك... ولكن لابد مما ليس منه بد... ويبدو أن جريمة القتل الوحيدة التي لا يحاسب عليها إنسان هي هذه... تلخيص العمل الفني... ومن ثم سأحاول أن أخلص من جريمتي بأسرع وقت، لا خوفاً من القانون، فالقانون كما عرفنا لا يعاقب على هذه الجريمة... ولكن... تخلصاً من الإحساس الثقيل بالذنب!!

٢

عثمان أمينو رجل نظيف... داعية للإسلام... يمارس التجارة ليتمكن من مواصلة الطريق... يغريه صديقه (نور) بعد لأي بالذهاب إلى السينما، وهناك يتعرف على (جاماكا)، ممرضة حسناء متنصرة، يرتجف لمرآها، وينتهي به الأمر إلى الفرار من المكان... لكن صورتها ونبضها المثير استقرا هناك في أعمق أعماقه... فكيف الفرار؟

(*قد تسألني لماذا لم أتزوج؟ لا شك أن جاماكا هي السبب... لأني لو التقيت بفتاة مثلها منذ سنين لتزوجتها على الفور... لكني لم أكن قد وجدت الفتاة التي تجعلني أفكر في الزواج قبلها...*) (ص ١٢).

بمرور الوقت يزداد تعلقاً بجاماكا، وبمسعى شيطاني من نور تتعلق هي الأخرى به، وتضع نفسها في طريقه... وعبثاً يحاول الفكاك...

يرحل إلى الجنوب بصحبة قطيع من الأغنام تعاقد على بيعه هناك، ويطلب منه شيخه (عبد الله) أن يقوم بجولة أخرى في ميدان الدعوة إلى الإسلام، مهمته الأصيلة، فيلبي ويطيع... يبيع قطيعه في العاصمة لاغوس فيجد نفسه متفرغاً للدعوة... ينطلق إلى قبائل الإيبو مع صديق له يدعى عبد الرحيم كان يحرس القطيع... يستأجران سيارة (لاندروفر) وينطلقان شرقاً... بعد اجتياز مخاطر شتى يصلان إحدى القرى الوثنية ويلتقيان بأميرها فيرحب بهما... وفي اللحظة

المناسبة يقطع الطريق عليهما مبشر أوربي يدعى (الأب توم) ولكنهما يكسبان التحدي ويحبطان محاولاته الخبيثة لإقامة جدار بينهما وبين أهالي القرية وزعمائها . . . فيلجأ إلى محاولة الاغتيال مستعيناً ببعض أنصاره، لكن المحاولة تحبط هي الأخرى، ويصر زعيم القرية على رحيل (توم) بعد إذ انكشفت أساليبه الخبيثة. . . كما يصر على قتل الجاني . . إلا أن إصرار عثمان وصاحبه على العفو عنه يكون له مردود عميق في نفس زعيم القرية وأبنائها . . . فيعلنون إسلامهم في جو تسوده المحبة والخشوع . . .

في اليوم التالي قفلا عائدين (كانت أحداث الأمس تبدو كمعجزة من المعجزات. وقال عبد الرحيم:

ـ على مولانا أحمدو بيللو أن يعجل بإرسال أحد العلماء ومدرس إلى هنا . . . هذا أمر ضروري. قلت في شرود:

ـ قد آتي أنا بنفسي لأعيش في هذه الديار إلى الأبد.

سامحني الله، فقد كنت في هذه اللحظات أتخيل جاماكا وقد أسلمت وتزوجتني، وأتت معي لنرعى هؤلاء الشرفاء الفقراء في تلك المنطقة النائية على حافة الغابة العذراء) (ص ٧٤).

وكانفجار المآسي الفجائي قامت حركة (إيرونسي)، بالأحرى المجزرة الصليبية، لكي تحصد رأس زعيم الشمال المسلم أحمدو بيللو ومئات غيره من المسلمين، ولكي يعلن إيرونسي نفسه حاكماً عسكرياً على البلاد . . .

(وانطلقت بنا السيارة عائدين صوب لاغوس العاصمة، كان البؤس الحزين يوشح الغابات والليل وأصوات الحيوانات الملتاعة . . . كان يخيل إلي أن اسم أحمدو بيللو في الآفاق كالصدى الخالد الذي لا يموت، لقد قتلوا الأغنية الشجية على لسان كل رجل في نيجيريا الغالية . . .) (ص ٧٩).

وبدا الشمال المسلم يشهد على يد أبناء الإيبو الذين صنعوا المجزرة بتوجيه من الاستعمار والصليبية، بدا يشهد فترة سوداء من تاريخه: اضطهاداً ومطاردة وخوفاً وتجويعاً واعتقالاً وتعذيباً.

ووقف المسلمون كالعمالقة في وجه الإعصار (كان لابد أن تتحول كلماتنا واحتجاجاتنا إلى حركة منظمة لتقتلع الانحراف، وتعود الحياة الطبيعية إلى وطني القديم، إن ساحل العبيد القديم لا يمكن أن تعود إليه العبودية مرة أخرى...) (ص ٨٥).

وبين الحين والحين كان عثمان يتذكر جاماكا، إلا أن الأحداث الأخيرة زادت الهوة بينه وبينها عمقاً... إنها من الإيبو، والإيبو هم الذين صنعوا المجزرة...

وفي يوم ما تطرق عليه الباب ثلة من العسكر وتسوقه مكبلاً إلى أحد السجون... هناك حيث غصت باحاته وزنزاناته بعدد كبير من الرجال أغلبهم من الضباط وعلماء الدين وكتاب الصحف والمؤلفين... (وابتدأت الانتفاضات في الخارج على هيئة تجمعات صغيرة، كانت الحكومة العسكرية تضربها بشدة، وأخذ ذلك ينعكس علينا داخل السجن، إذ بدا المسؤولون يسيئون معاملتنا، بل ويتعرضون لنا بالضرب والسخرية والقسوة... وآلمني جداً أن بعض المواطنين في الخارج كانوا يتعاونون مع سلطات الأمن الظالمة، وذكرت أسماء كثيرة منها نور، وكان المتحمسون منا يقسمون أغلظ الإيمان على الانتقام منهم عندما تتاح الفرصة...) (ص ٩٠ ـ ٩١).

وعلى غير توقع تزوره جاماكا، وبعد حوار مشحون تعلمه أنها أعلنت إسلامها وإن ذلك كلفها وظيفتها وأمنها... وها هي تلتقي به بعد بحث طويل فيطرح عليها أمنيته بالزواج بعد أن يفك الله إساره (ورأيتها

تضحك والدموع في عينيها، وكادت تتعثر وتنكفئ لدى عتبة الباب، وبقيت أنظر إليها وهي تبتعد. . . لقد امتلأ قلبي بحبها. . . وأخيراً عدت في صحبة السجان إلى الحجرات الضيقة الكئيبة) (ص ١٠٢).

وما يلبث أن يلحق به هناك ضمن طوابير المساقين إلى السجن صديقه عبد الرحيم، وشيخه عبد الله.

(وجريت صوبه، ولم أعبأ بركلات السجانة وقبضاتهم القاسية وهي تهوي على رأسي وجسدي، واختطفت يدي شيخي لأقبلها وأغرقها بدموع الحب والفرح) (ص ١٠٥).

وكما انفجرت المأساة أول مرة، جاء الخلاص أخيراً، قامت حركة مسلحة فألقت القبض على إيرونسي ورؤوس الفتنة. . . (وتعالت الهتافات والتكبيرات، واختلطت الأنباء، وفي كل لحظة كان أحد العسكر يأتي إلينا بجديد. . . هذا يوم لا أستطيع أن أنساه مدى حياتي. . . سأتزوجك ياسعيدة (اسم جاماكا بعد إسلامها) وسنذهب إلى قبائل الإيبو ونزور أهلك وندعو للإسلام من جديد) (ص ١٣٨).

تم القصاص من القتلة. . . وفتحت أبواب السجن الكبير. . . خرج عثمان أمينو لكي يواصل الطريق. . . وكان عليه أيضاً أن يصل إلى خطيبته سعيدة. . . وعبثاً. . . يبحث عنها في كل مكان. . . وأخيراً يقال له إنها قد عادت إلى موطنها الأصلي، في الشرق، عند قبائل الإيبو. . . يتردد عثمان في الذهاب إلى هناك بعد ماجرى من أحداث، لكن شيخه يدفعه إلى المضي في الطريق (لقد أراد الله يا عثمان أن تشد رحالك إلى أقاليم الإيبو مرة ثانية. . . خذ أغنامك، واتجه صوب لاغوس، ومنها اخترق الغابات صوب الشرق. . . وهناك ستلتقي بإخوة أحياء وسوف يهتدي على يديك خلق كثير. . . وستجدها هناك) (ص ١٥٠).

بعد شهرين ونصف بلغ عثمان ورفيقه عبد الرحيم المكان الذي تعيش فيه قبيلة جاماكا... كان الجو هناك ملبداً بالغيوم... وأوجوكو... الحاكم العسكري للإقليم الشرقي يتململ لإعلان تمرده الذي خططت له المؤسسات الصليبية والاستعمارية والصهيونية... وكان أهل جاماكا قد تنصروا منذ عدة أعوام. والذين يتركون الوثنية ويعتنقون ديناً جديداً قد يكونون أشد عنفاً واستمساكاً بعقيدتهم الحديثة من الوثنيين أنفسهم.

ويتمكن عثمان وصاحبه ـ بأعمال الحيلة ـ من الوصول إلى جاماكا... كانت لا تزال على إسلامها... ولكنها كانت مضطرة إلى إخفائه خوفاً من بطش أهلها، ومن وراء ستار كانت تدعو بنات جنسها للدين الجديد، فاستجاب لها الكثيرات منهن... ويتم الاتفاق بين عثمان وخطيبته للدخول إلى القرية في محاولة لتحقيق الهدف المزدوج: الدعوة والزواج.

بعد جدل طويل يتمكن عثمان وصاحبه من إقناع أمير القرية بالسماح لهما بالدعوة المعلنة:

(وخرجنا إلى الأسواق وأماكن التجمعات ندعو ونعلن، وفوجئت القرية بصورتنا الجديدة، ولجأ إلينا الإخوة المسلمون القدماء في فرح غامر، وأخذوا ينقلون عنا كل شيء، وخرجت النسوة المسلمات اللائي أسلمن على يد سعيدة يغنين ويظهرن ابتهاجهن...) (ص ١٦٦).

ويوماً يستدعيهم الأمير:

(ـ يجب أن ترحلوا بسرعة.

ـ لماذا؟

ـ لكي تنجوا بحياتكم، يجب أن ترحلوا على الفور.

ـ لماذا؟

ـ الأمر لا يتعلق بكم خاصة.

ـ ما معنى ذلك؟

صرخ بأعلى صوته:

ـ أما سمعتم عن مذبحة أونيتشا؟ إن شوارع البلدة منذ أمس قد امتلأت بجثث أبناء الهوسا المسلمين، والقتل لا يكف ليل نهار... لقد اشتعلت الفتنة... وأوجوكو أعلن الاستقلال، وغداً تقوم الحرب... فروا بجلودكم) (ص ١٦٧).

(... ورجعنا إلى سوكوتا... أنا وعبد الرحيم والخادم العجوز... ولم يكن هناك مفر من أن ألتحق بالقوات المحاربة إيماناً بوحدة الأمة وحريتها... وانضم أيضاً عبد الرحيم) (ص ١٦٩).

(... ومضينا في طريق المعارك المضنية العنيفة، كانت الحرب هي جل حياتنا، نمسي ونصبح ونحن نعد لمعركة أو نمشط منطقة من جيوب المقاومة، أو ندفن موتى، أو نضمد جرحى... وكثيراً ما كنت أفكر في جاماكا، أعني سعيدة، كنت أخاف أن تصيبها رصاصة طائشة... إنها بالنسبة لي تعني الأمل في المستقبل الطيب، تعني إمكانية الالتقاء بين الهوسا والإيبو واليوروبا وغيرهم من أبناء نيجيريا الأم... كانت رمزاً حياً نابضاً، ولم تكن مجرد حبيبة. ويوم أن وقفنا على مشارف المنطقة التي تعيش فيها كان قلبي يدق، متى تبدأ المعركة؟) (ص ١٧٥ - ١٧٦).

وترفع البلدة الرايات البيضاء، ويتقدم أميرها قائلاً: (ـ جئنا نرحب بمقدم الأشقاء القادمين من الشمال، ونحن أصدقاء من قديم، وعثمان أمينو يعرفنا جيداً... ويسعدنا أن نقدم لكم كل المعونات الممكنة باسم

الوطن الأم، وأن يشترك معنا جنودكم في بناء مسجد صغير) (ص ١٧٧).

وفي لحظة حب عميق يلتقي بخطيبته سعيدة، ويعلمها أن عليه أن يواصل الطريق مع الجيش المحارب حتى دخول (إينوغو) عاصمة الانفصال... فتصر على أن ترافقه لتضميد الجرحى والمشاركة في معركة التوحيد والوحدة، على أن يتم الزواج فيما بعد...

(قلت وقلبي يدق: هذا إذا لم تطحننا الحرب بأحجارها التي لا ترحم... ابتسمت في انتعاش وقالت: الله معنا).

ويتم الانتصار، وتسقط دولة بيافرا المزعومة بهروب أوجوكو زعيم الحركة، ودخول عمالقة الشمال عاصمتها محررين... (ووجدت عبد الرحيم خارجاً من أحد المساجد الصغيرة، وغمغم: هل انتهينا؟ قلت وأنا أنظر صوب السماء الصافية التي يغمرها الضياء بعد الظهر: تلك هي البداية... ولك أن تسألني ما هو النصر الذي أريد؟ أجل أن تضيء شعلة الإيمان قلب الأم الكبير... أن تهتف نيجيريا لله وحده... هذا هو السلام الحقيقي، والنصر الكامل الذي علمنيه محمد ﷺ... الإيمان والحرية والخلاص والسعادة...).

ومضينا في شتى الطرقات نبحث عن سعيدة، كانت غارقة حتى شحمة أذنيها في مداواة الجرحى البائسين (وقبيل منتصف الليل نظرت إلي سعيدة بعينين يخالطهما النعاس، وهمست في دهشة:

ـ ماذا تريد؟

ـ ألا تعرفين؟

ـ كل ما أعرفه أن لدي عملاً هنا يستغرق حوالي الشهر.

ـ وبعدها؟

نظرت إلى وجهها يشرق بالسعادة:

ـ وبعدها يا عثمان انطلق في أي اتجاه، وستجدني وراءك حتى آخر الدنيا . . .).

وأغمضت عينيها وهي تتكئ على منضدة خشبية معفرة، وقالت وهي في شبه حلم:

ـ سيكون كل شيء على مايرام، سيغني لنا عبد الرحيم أغنيته الحلوة، وسنقيم أفراحاً تستمر أسبوعاً في قريتنا الحبيبة. . . لقد وعدني الزعيم كما وعدني أبي بأنهما سيباركان زواجنا . . . عثمان أيها الحبيب الغالي، سيكون أبناؤنا أسعد حالاً منا، وسندعو إلى الله في كل بقعة تطؤها أقدامنا. سعيدة وعثمان رمز نيجيريا الواحدة، وسيدعو لنا الشيخ عبد الله بالبركة والسعادة، هذا رجل صالح. . .

وصمتت عن الكلام، وانبعثت أنفاسها هادئة رتيبة، فتناولت ملاءة بيضاء نظيفة وسبلتها عليها، وجلست إلى جوارها وهي نائمة أنظر إلى وجهها الملائكي. . . وبقيت متيقظاً حتى الصباح. . .) (ص ١٨٢ ـ ١٨٤).

٣

إن (عمالقة الشمال) غنية بالعناصر الدرامية. . . بالصراع الذي يمنح الرواية إحدى مكوناتها الغنية الأساسية. . . وهو (فعل) لا يتحرك باتجاه واحد، بل بأكثر من اتجاه. . . منذ اللحظات الأولى يقفنا (الكيلاني) على هذا البعد في روايته. . . (قد يظن البعض أن عدم زواجي حتى الآن سببه أنني أريد أن أتفرغ للعبادة والدعوة. . . لا . . . دعني أعترف. . . إن الدماء الحارة في عروقي تلهب جسدي. . .) (ص ٦). وليس في منطوقنا الإسلامي

أي صراع في هذا الاتجاه... فديننا يدعونا إلى أن نطفئ دماءنا الحارة... اليوم قبل غد... والزواج كما يردد عثمان أمينو نفسه (نصف الدين).

إلا أن الصراع هنا ينبثق عن دافع آخر... العشق الذي انصب دفعة واحدة على جاماكا... الممرضة المتنصرة القادمة من مناطق الإيبو... إن قبولها والتوحد معها بتجربة الزواج تقف أمامه عقبات وعقبات... بعضها منصوب هناك في أعماق شخصية البطل، وبعضها الآخر في بيئته الخارجية، فهو مسلم وهي متنصرة، وهو من أبناء الهوسا وهي من الإيبو، وهو داعية ملتزم، وهي ممرضة لا تعرف حشمة أو التزاماً... أما خارج إطار الزواج المشروع فالمسألة مستحيلة ودونها التمزق!!

فها نحن إذاً أمام أحد أبعاد الصراع وأكثرها أهمية فنية؛ لأنه يمتد إلى شخصية البطل نفسه فيشطرها شطرين..

(ابتسامتها ظلت عالقة بخيالي، حاولت أن أستغفر الله وأستعيذ من الشيطان الرجيم، وألعن الصدفة التي قذفت بي إلى هذا المكان، وألعن نور، لكن هذا كله لم يمح صورتها من خيالي، ولم أعد أرى على الشاشة سواها... وتسللت في هدوء، تركت القاعة دون أن يشعر بي نور، وانطلقت إلى الشارع الواسع الذي بللته قطرات المطر وجعلته لامعاً جذاباً، كنت أجري وألهث وقصدت أقرب مسجد في المدينة القديمة، وأخذت أصلي وأصلي وأقرأ القرآن، وأذرف الدموع، قد تسألني لماذا لم أتزوج؟ لا شك أن جاماكا هي السبب، لأني لو التقيت بفتاة مثلها منذ سنين لتزوجتها على الفور) (ص ١٢).

والصراع بينه وبين صديقه نور *(جاءني ذات يوم وقال: تعال لنمرح في الأحياء الجديدة في المدينة.*

ـ حاشا لله، أأخوض في تلك المستنقعات الآسنة؟

قهقه ساخراً:

- عثمان أمينو... من لا يعرف الشيطان لا يعرف الله!!

- كيف؟

- خبرني كيف تقاوم الأمراض دون أن تخالط المرضى وتعرف ما يشكون من آلام؟

كنت أعرف أن التجول في (سابون غري) مدعاة للشبهة وسوء السمعة، وأن الاقتراب من بيت موبوء قد يلحق بي عدوى المرض... لكن دافعاً داخلياً يحرضني على الذهاب، وصوت خافت في وجداني يصرخ بي: اذهب، تعلم، يجب أن تعرف الحياة بكل جوانبها...

ولاحظ صديقي نور ما أعانيه من حيرة وتمزق فهتف:

- لا قيمة لعفتك مالم تكن صامداً في وجه الإغراء. إنك لم تر الإثم ومن ثم فأنت تفتقد لذة الصراع...

همست:

- أنا أعرفك.

هز كتفيه في استهتار وقال:

- أنا أشرب وأعاشر النساء وأقضي أوقاتاً ممتعة في السينما، الجميع يعرفون ذلك.

قلت وأنا أفر:

- وأنا لا أتبع شيطاناً.

قال:

- أتخاف؟

ووجدتني أقول في ثقة لا حد لها:

ـ سآتي معك. . .) (ص ٦ ـ ٨).

إنه في حقيقته ليس صراعاً بين رجلين، ولكنه استمرار ـ بشكل غير مباشر ـ لصراع الشخصية الواحدة. . . البطل مع نفسه، ولكنه يأخذ ـ على المستوى الفني ـ نمطاً آخر.

وفي الخارج، في المكان، يتمثل عنصر الصراع بشكل مواز تماماً. . . صراع بين حيين في المدينة أحدهما قديم والآخر حديث. . . أحدهما شرقي ملتزم والآخر غربي مباح!!

ويمتد الصراع ـ من ثم ـ ويتسع. . . تنداح دوائره لكي تغطي مساحة الحدث الروائي كله فتمنحه القدرة على الحركة الفنية حتى آخر لحظة. . . صراع قبلي بين الهوسا والإيبو. . . وصراع ديني بين المسلمين والنصارى والوثنيين. . . وصراع مذهبي بين الإسلام والتبشير. . . وصراع سياسي بين نيجيريا الأم، والذئاب الاستعمارية واليهودية التي تريد أن تلتهمها. . . وثمة ـ فضلاً عن هذا وذاك ـ صراع المواقف إزاء التجربة الواحدة.

(. . . كان طيف جاماكا يطاردني في إلحاح. . . وكنت أستريح لخيالها برغم خوفي الشديد، وزاد ارتباكي وخوفي فأسرعت إلى شيخي الكبير (عبد الله) قلت له:

ـ سيدي وإمامي. . . في القلب حاجات وفيك فطانة.

ابتسم مسبل الجفنين وهمس:

ـ أي عثمان. . . أشواق الإنسان لا نهاية لها.

ـ أشواق منحرفة يا مولاي.

ـ ما دمت قد عرفتها فلا تخشها... أعطيت لها الصادق من الصفات ففيم الخوف والشتات؟

قلت في قوة:

ـ أجل... أشواق... لكن لها صفة الانحراف.

هز الشيخ عبد الله رأسه وقال:

ـ اخلع نعليك، وانزع طاقيتك... وانظر إلى السماء واهتف سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكانت كلمات شيخي أمراً لا يرد... خرجت قبيل الفجر حافياً عاري الرأس أضرع إلى الله... شعرت ببرد الراحة ينسكب بين ضلوعي... الانتصار على نوازع النفس معركة مقدسة) (ص ١٤ ـ ١٥).

هذا نموذج من صراع الشخصية، صراع الذات... يفور ويفور حتى ليكاد يحرق صاحبه، وتنتهي المعركة نهايتها الموقوتة في معظم الأحيان بالاستقرار على هذا الجانب في الصراع أو ذاك، أما الحل النهائي فيتحقق يوم أن يتوحد الطرفان...

وهذا الصراع الذاتي يصل حد الرعب في بعض لحظاته، خوفاً من فقدان التوازن والسقوط النهائي.

(حينما رأيت جاماكا تقف ببابي دق قلبي من الرعب، ولم أستطع أن أنطق بكلمة ترحيب واحدة إلا بعد وقت ليس بالقصير...

قالت جاماكا في براءة:

ـ ليس من المعقول أن أظل واقفة ببابك.

ـ لكن ليس في الدار أحد.

نظرت إلي طويلاً نظرة عتاب:

ـ لكنك فيها.

ـ أعني أنه من غير اللائق أن أستقبل امرأة في بيتي.

همست في إصرار:

ـ سوف أدخل.

صرخت في جنون:

ـ في الداخل شيطان.

ابتسمت قائلة:

ـ وترهب الشياطين!

ـ لا تضيعي الوقت.

قالت وهي تدلف في إصرار:

ـ لست بائعة هوى...) (ص ١٨ ـ ١٩).

وفي سياق الرواية المتدفق نستطيع أن نضع أيدينا على حشود من نماذج الصراع في شتى أشكاله وأبعاده... لكنا سنقف عند بعضه كمؤشرات فحسب، فالرواية كلها ـ في حقيقة الأمر ـ شاهد على تأجج الصراع في جنباتها كافة!!

كلنا نعرف شراسة الحملة التي تشنها الصليبية التبشيرية في القارة السوداء لكسب الوثنية ومنع الإسلام من الامتداد.. نعرف ذلك تحليلات سياسية وتاريخاً... لكنا ها هنا نلتقي بنماذج فنية تمنح المسألة بعداً حيوياً، وتزيد ألوانها وخطوطها عمقاً وتاثيراً...

(... وليس غريباً أن يثار التساؤل من حولنا كقوم غرباء عن القرية، ومع ذلك فقد كنت أرى عيني توم النفاذتين تقفان وراء كل سؤال. إن

لدي خبرة طويلة بهؤلاء المبشرين الذين يعميهم التعصب أحياناً عن الصدق، فيعادون الحقيقة أكثر مما يصادقونها ويعزفون على أوتار التفرقة والشر، ويثيرون الفتن والحزازات. همس عبد الرحيم ونحن نستقر ثانية في بيت الضيافة:

ـ أرى نذر المتاعب تحوم حولنا.

قلت في نبرة إصرار:

ـ أنا أكره التحدي، لكني هذه المرة مستعد تماماً لمواجهة توم.

وعاد عبد الرحيم يقول:

ـ أرى على ملامح وجهه سمات ضابط حرب قديم وليس رجل دين.

ـ ليس غريباً أن يكون كذلك.

ـ إذاً فالمعركة بيننا وبينه ستكون حامية الوطيس.

ـ ليكن.

قال عبد الرحيم معترضاً:

ـ نحن لا نملك شيئاً، أما هو فيملك الكثير.

ـ ماذا تعني؟

ـ هو أجنبي وبعض الناس يتبعونه، ومعه المال والخدمات التي يقدمها لهم، ثم إنه يستطيع أن يوقع الفتن القديمة التي أثارها الاستعمار بين الإيبو والهوسا... وفي ذلك خطر كبير.

ـ استمع إلي جيداً يا عبد الرحيم... نحن نملك الصدق... ولينصرن الله من ينصره... لقد خرجت أساساً في رحلة إلى الله...) (ص ٥٦ ـ ٥٧).

(... وفوجئنا ذات مساء بالأب توم يأتي لزيارتنا، كان يبدو عليه الضيق والكرب، لكنه كان يحاول أن يتماسك ويظهر بمظهر القوي الواثق بنفسه، والذي لا يبغي سوى السلام والمصالحة، وجلس إلى جواري قائلاً:

- إن أرض الله واسعة...

- هذا حق.

تنحنح وقال:

- وهناك مناطق كثيرة أخرى في الشرق والغرب... تستطيع أن تذهب إليها.

قلت في هدوء:

- نحن لا نقتسم الأرض ولا نساوم على البشر.

- ما قصدت ذلك يا صديقي.

- نحن نتحرك بين شعب نيجيريا بمنتهى الحرية.

- يا صديقي قد يسيء هذا إلى مصلحة الناس هنا.

- نحن لا نملك غير الكلمات.

- لكن الناس هنا سذج وبسطاء... قد تتحول الكلمات لديهم إلى سهام ورصاص.

قلت في دهشة:

- لماذا؟

- من أجل أنك تتدخل في شؤونهم.

ـ ما قصدنا ذلك. . . نحن نتكلم فمن شاء آمن ومن شاء انصرف عنا. لا نعاقب أحداً، ولا نعطي مكافاة مادية لأحد. . . نحن عابرو سبيل ليس في حوزتنا غير قليل من الطعام، وقدرة على السير في الطريق.

ووجدت عبد الرحيم يقبل نحونا بوجهه الأسمر الطويل ويقول:

ـ أيها الأب ألم تفكر يوماً أننا قد نكون على حق؟

قال في إصرار:

ـ أنا مسيحي وأعرف الحق من وجهة نظري الخاصة.

ـ قد تكون وجهة نظر الآخرين أصوب أيها الأب توم.

نظر إلى عبد الرحيم في اشمئزاز وقال:

ـ الفارق الحضاري بيني وبينكم يمتد إلى قرون.

ثم استطرد في برود:

ـ لقد جئنا هنا لنعلمكم كل شيء. . . الصناعة والزراعة والجغرافيا. . . والدين. . . نحن الأساتذة. . . تلك هي الحقيقة. . .

تدخلت قائلاً:

ـ من الشرق ظهر المسيح. . . وفي الجزيرة العربية ولد محمد. . . وفي مصر ولد موسى. . . زادكم عندنا. . . ومع ذلك فإن البحث عن الحقيقة قضية أخرى لا تتعلق بقوتكم. . . هذا ما أفهمه.

ودار الحديث شرقاً وغرباً، واحتدم الجدل، وأخيراً نظر الأب توم نظرته الخبيثة التي لا تتفق والمسوح التي يلبسها وقال:

ـ أنتم تلعبون بالنار.

ـ الإفريقيون يعرفون جيداً ما يضرهم وما ينفعهم.

ضحك ضحكة ساخرة وقال:

- سنرى.

وعندما انصرف قال عبد الرحيم:

- كأن الرجل يهددنا.

- كل ما اؤمن به أن الطريق إلى الله محفوف بالمكاره...).

(ص ٦٨ - ٧٠).

ونستطيع أن نعثر على شاهد لصراع المواقف في قلب المحنة التي ساقت المئات من مسلمي الشمال إلى المعتقلات، وبدا للوهلة الأولى أن الأمر قد استقر نهائياً لصالح حركة إيرونسي وطغمته... إن المحنة والسجن لهما أشبه بالنار الممحصة تفرز الخبيث من الطيب، وتعزل الذهب من التراب.

(... غير أن الأمور لم تكن تسير في مجراها الطبيعي، إن أحلامي الكبرى تصطدم من آن لآخر بحقائق مذهلة ووقائع مريرة، فلقد حدثت ظاهرة جديدة لم نكن نألفها في السجن، كنا منذ دخلنا حتى ذلك الوقت نكاد نكون على قلب رجل واحد، وكان هذا مظهراً من مظاهر قوتنا وإصرارنا على السير في الطريق. غير أن بذور خلاف قد نبتت بين السجناء السياسيين كما يسموننا، فقد ظهر بضعة أفراد يجاهرون بما يعانون من ملل وضيق، ويعلنون تشاؤمهم، ويزعمون أنه لا فائدة من الإصرار على مواقفنا، إذ أن حركة المقاومة في ظنهم لا تحرز أي تقدم، وأن الحكومة الجديدة قد أحكمت قبضتها على البلاد، وأن هناك تأييداً خارجياً يدعمها ويحرسها، ومن ثم أعلنوا رأيهم في الموقف بصراحة، وهو أنه لابد من التفافهم حول الحكام الجدد والنزول على

رأيهم وإعلان التأييد لهم، حتى تفرج عنا وتدعنا ننصرف إلى حياتنا، وعلى الرغم من أن عدد هؤلاء المنشقين كان قليلاً بحيث لا يزيد على أصابع اليدين والرجلين عدداً؛ إلا أنهم هددوا أمن المجموعة وسلامتها، وأحالوا أيام السجن إلى كدر وحزن شديد. وتطور الأمر إلى مناقشات حادة، والمصيبة الكبرى أن نور قد انضم إليهم، قلت لنور:

ـ كيف تجرؤ على هذا التصرف؟

ـ لا سلطان لأحد علي... أنا حر...

ـ لكنها قضية شعبنا يا نور.

ـ أنتم تخدعون أنفسكم كما خدعت نفسي بالأمس، ليست هناك قضية، هناك صراع على الحكم ومن الحمق أن أشترك فيه، فلن أكون وزيراً في يوم من الأيام، وأنت كذلك، نحن وقود لأطماع الزعماء.

آلمني حديثه، كنت أرى على وجهه ملامح شخص آخر غير نور الذي كنت أعرفه، لم يكن يخجل أو يخاف عندما كان يصرح بآرائه، وبلغت به النذالة مداها حينما طلب ورقاً وأقلاماً ليكتب التماساً لرئيس الحكومة، أعني الحاكم العسكري العام، كنت أتحرق غيظاً وغماً، قلت له:

ـ تستطيع أن تعيد النظر في الأمر.

ـ قررت أن أحيا لنفسي، أن أمارس حياتي في الخارج على أي وضع، لم يعد لأي شيء قيمة.

ـ أنت جندي في جيش الحق يا نور.

ـ الملايين في الخارج تستمتع بوجودها، لماذا أنا وأنت بالذات نهرع إلى ارتكاب الحماقات، ولو كنت مكانك لأسرعت بتقديم اعتذار مكتوب كي أخرج... إن جاماكا تنتظرك) (ص ١٠٧ ـ ١٠٨).

والكيلاني لا ينهي كل واحد من هذه الصراعات لكي يتفرغ للآخر، بل يجعلها تمتد عبر المساحة الأكبر من روايته... تسير متوازية ومتقاطعة وفي وقت واحد، منذ البدء حتى المنتهى... وبهذا تجد الرواية قدرتها على الحركة الفنية وتتجاوز الرتابة والمباشرة والسردية... فإذا ما حدث وأن انطفأ صراع ما في مرحلة من مراحل الرواية، عاد فأشعله من جديد... فعلى مستوى (التاريخ)، حيث يختار الرجل السنوات ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ زمناً لروايته، كانت الوقائع الكثيفة المزدحمة تمنحه القدرة على إعادة التوتر ومد الصراع إلى أقصى نقطة... وعلى مستوى الشخصيات كان بمقدوره أن يكيف الحدث الروائي لكي يقود الصراع إلى مشارفه النهائية... عند الخطوات الأخيرة للرواية.

لقاء عثمان بجاماكا ـ على سبيل المثال ـ كاد أن يتحقق أكثر من مرة، ولكن القاص لم يتح له أن ينطفئ قبل أن يمضي به إلى نهاية المطاف... ومن ثم كان يصنع من الأحداث ما يفرق به بين الطرفين... حتى اللحظات الأخيرة... كان يتجاوز تنفيذ اللقاء، بل إنه أبقاه كأمل... كرمز... على وحدة نيجيريا وتجاوز مأساتها القبلية التي عرف الاستعمار والتبشير كيف ينفذان منها...

موقف نور، صديق البطل، لم ينطلق على خط واحد ويعلن عن نفسه بصراحة ووضوح، بل استمر يتلوى ويتعرج حيناً، ويعتدل ويستقيم حيناً آخر... حتى انتهى به الأمر إلى السقوط النهائي في المراحل الأخيرة من الرواية.

إن (الصراع) بكثافته هذه، وامتداده إلى كافة المستويات، يجعل من (عمالقة الشمال) واحدة من أكثر أعمال الكيلاني إثارة ونضجاً...

٤

والكيلاني في روايته هذه يعرف كيف يوزع لمساته الإسلامية ورؤاه الإيمانية على مساحاتها جميعاً، دونما سرد أو تكديس قد يقود إلى التقريرية أو الوعظية... إنه كان يعرف كيف يفيد من لحظات التوتر القصوى، أو من المناخ النفسي الملائم، لكي يضع هذه اللمسات ويطرح تلك الرؤى... إن هذه اللمسات وتلك الرؤى تغدو حينذاك استمراراً طبيعياً للحظة أو المناخ... يتناغم معهما ويتجاوب، ويظل - من ثم - يحمل حيويته وتعبيريته الفنية وقدرته على التأثير، وذلك هو التنفيذ الأكثر براعة لمفهوم (الالتزام).

والالتزام لدى الكيلاني في روايته هذه يتحرك على مستويين... مستوى العمل الفني بكامله باعتباره رواية (إسلامية) معاصرة تعالج (فنياً) موضوعاً (إسلامياً)... ومستوى اللمسات الإسلامية والإيمانية المكثفة والمنبثة هاهنا وهناك تأكيداً لحقيقة إسلامية، وتعميقاً لموقف إيماني... ونستطيع أن نحكم مطمئنين بأن النجاح الذي حققه هاهنا على كلا المستويين كان أوسع مدى مما حققه في سائر أعماله الأخرى.

(... ولاغوس في الليل تنضح بخطايا كثيرة... هذه أندية القمار وتلك حانات الرقص والخمر، وهناك بيوت الدعارة، وللأسف كثير من التجار يغرقون في خضم هذه الموبقات، وينزفون أرباحهم على مذبح الرذيلة... العدو يشتري ويبيع لكن كل شيء يعود إلى جيبه، والجماعات السياسية تشتعل تتناحر من أجل منصب وزاري أو الفوز بمقعد في الانتخابات العامة، والفتن بين المسلمين والوثنيين والمتنصرين، والأمور تدار بطريقة شيطانية خبيثة... لشد ما كرهت لاغوس عاصمتي التي أتمنى أن أحبها لكنها الآن أصبحت رمزاً

للمؤامرات والاستسلام والغفلة... والجميع ضحايا أو لعبة متهافتة في أيدي الماكرين والدهاة...) (ص ٤٢).

وفي هذا المناخ النفسي يضرب الكيلاني ضربته (... وفتحت حقيبتي لأبحث عن المصحف، إنه الجرعة الشافية التي أشربها كلما تعبت الروح وسقم القلب، وراودتني الأحزان والأوهام، ونخر في فؤادي الوهن واستبدت بي الهموم... وحي العرب للأسف تغير كثيراً، المسلمون فيه لا يتحدثون كثيراً عن الله، أحاديثهم عن التجارة والمال وأسعار البورصة... كان آباؤهم غير ذلك، هكذا حدثني أبي، كانوا يسافرون للتجارة حاملين مصاحفهم ودعوتهم إلى الله حتى هدى الله بهم خلقاً كثيراً، أما اليوم فقد تغيرت الحال، وساءت الأمور، وأصبح همهم المال والدنيا...) (ص ٤٣).

والشواهد كثيرة... (... وعندما هدر الحشد بالشهادتين ظننت أنني في حلم، إنه شيء يشبه الأسطورة، وراء ذلك كله سر إلهي لا يمكن كشفه، نفس السر الذي يكمن وراء إسلام الملايين على أيدي التجار في الهند والصين وشواطئ البحار البعيدة والجزر النائية) (ص ٧٣).

❁ ❁ ❁

(... وعدت أخيراً إلى مدينتي التي يوشحها الأسى العميق ويمطرها الحزن وتعصف بها موجات الوجوم، عدت إلى شمال نيجيريا حيث الرجال العمالقة يمضون منكسي الرؤوس، كسيري النظرات، والغيظ المكتوم يطل من المحاجر... الحياة أصبحت مرة المذاق منفرة، والصحاب متفرقون كل يوجس خيفة من الآخرين، وأي تجمع معناه أن تعرض نفسك ومن معك للسجن أو الموت أو الشبهات... البعض فروا إلى أماكن نائية وآخرون أغلقوا متاجرهم، والحمقى من الإيبو

يتطاولون في البنيان ويمرحون وكأن كل شيء قد دان لهم...)(ص ٨٢).

في هذه اللحظات القلقة، الحزينة، يضع الكيلاني لمسة أخرى (... لما دخلت على شيخي في بيته الواسع المتواضع... اقتربت منه ولثمت يده الكريمة النظيفة الباردة، وخيل إلي أن أهدابه تبللها الدموع، وبعد فترة قال الشيخ:

ـ من قال إن الطوفان أعمى؟ للطوفان عيون يلتقط بها ما يشاء ليدمره أو يغرقه... وما انطلق الطوفان إلا بإرادة الله، وإذا بدا الطوفان قاسياً ظالماً عشوائياً، فتذكروا حكمة الله الكامنة خلف الأشياء... وإذا هلك الشيطان يا أبنائي فلن يكون هناك صراع. ليس القاهر هو الطوفان ولكن القاهر هو الله... اذكروا ذلك جيداً، لا تقولوا انتهى أمر أحمدو بيللو ولكن قولوا أراد الله لقاءه فلبى الشهيد النداء... نحن لا نسمع هتافه وهو سائر في الطريق إليه، لكنه لا شك كان يقول: مرحى. مرحى.. هذا يوم اللقاء العظيم...

اغرورقت الأعين بالدموع، ثم انسكبت حتى بللت اللحى، وشهق البعض باكياً... وصاح شيخنا نافراً:

ـ لا تنتحبوا، بل رددوا معي (العزة لله ولرسوله وللمؤمنين) رددوها ألف مرة. وما إن انتهينا من الورد المطلوب حتى قلت لشيخي:

ـ وماذا نفعل؟

قال:

ـ سل قلبك...

قلت:

- في القلب ترتجف أمنيات كثيرة ولا تعرف كيف تنبثق.

- قل كلمة الحق.

- إنهم يقيمون في طريقها السدود يا شيخي الجليل.

- قلها ولا تخف.

- الموت والسجن يترصدان لنا.

- هذا هو الجهاد... بعضنا سوف يفلسف ضعفه ويتقاعس بحجة أن الظروف لا تسمح، والكفاح قد يكون حماقة... لا تصدقوا هذه الكلمات لأنها الموت بعينه...

الحق لا ينتصر إلا بالمجاهدة المستمرة... لقد تعلمنا أن الموت ليس خاتمة المطاف...) (ص ٨٢ ـ ٨٤).

❁ ❁ ❁

(فوجئت ذات يوم بنور في السجن... يا إلهي ماذا جرى؟ كانت الكدمات تملأ جسمه والدماء تنزف من أنفه وآثار السياط تبعث في نفسي الأسى... ضممته إلى صدري في حنان وتمتمت:

- لقد قسوا عليك.

قال دون اكتراث:

- ليكن إنني أتعذب طول حياتي.

- سيعوضك الله خيراً كثيراً.

ورأيته يهز كتفيه في اشمئزاز وقال:

ـ أنا لا أتكلم عن الله، ولكن يشغلني الظلم الماحق الذي يذل البشر ويمرغ أنوفهم في الأوحال.

لم تصادف كلماته رضا لدي فقلت:

ـ الإيمان بالله أولاً؟

ـ لم نكفر به، ولكن القضية الآن بيننا وبين الطغاة.

ـ بإرادته يتم كل شيء يا نور.

ـ أتراه سبحانه يحمل السلاح عنا؟

ـ جل شأنه... يوم بدر الكبرى أرسل جنوداً لم يرها أحد.

ـ أتقارننا يا عثمان بالصفوة الممتازة من صحابة الرسول؟

كان واضحاً أنه يعاني من أزمة نفسية لعلها بسبب ما عانى من تعذيب وما تعرض له في حياته من إجحاف وإهمال، ومع ذلك فإني اؤمن دائماً أن عزاءنا الوحيد هو الله... الله هو الذي ينصرنا في حربنا وفي سلمنا، في السجون وخارج السجون، إنه سبحانه يهيئ الأسباب ولابد أن يصدق وعده مع المؤمنين الصادقين...) (ص ٩١ ـ ٩٢).

❁ ❁ ❁

(... وأخرجت جاماكا من حقيبتها الصغيرة ورقة ونشرتها أمامي... كانت السطور عبارة عن تعهد بأن اؤيد الثورة الجديدة وأتبرأ من كل ماض سياسي، وأن أسير في ركاب الحكم الجديد... زاغت نظراتي ثم أمسكت بالورقة ومزقتها إرباً إرباً وأنا أقول في عصبية:

ـ تريدين أن أبيع نفسي للشيطان؟

ـ بل أريدك لي.

ـ وكيف تقبلين رجلاً تخلى عن مبدئه وشرفه؟

ـ أريدك أن تبتعد عن السياسة، ونعيش نعبد الله في حب.

وابتسمت والعرق البارد يتقاطر على جبيني:

ـ ليست العبادة صوماً وصلاة وذكراً فحسب... ولكن المساهمة في تخليص المظلومين من عباده ونشر العدل والحرية عبادة... إن شيخي لم يجد الوقت الكافي ليشرح لك كل ما يجب أن تعرفيه عن الإسلام...) (ص ١٠١ ـ ١٠٢).

❁ ❁ ❁

(... حاول بعض الجهلة من جنودنا أن يمازحوا الشابات، فجن جنوني، وأسرعت بإخبار القائد الذي أصدر أوامره بالكف عن هذا العبث، وقلت فيما قلت لقائدنا:

ـ سيدي القائد، إننا ننتصر عليهم بطاعتنا لله ومعصيتهم له، فلو تساوينا في المعصية معهم لانتصروا علينا...

فابتسم القائد ثم ضحك، وأخذ جسمه يترنح من شدة الضحك وهو يقول:

ـ الحرب تسقط بعض القيم يا عثمان.

ـ لكن المسلم أيها الأخ الأكبر لا يفارق قيمه سواء في السلم أم الحرب.) (ص ١٧٤)[1].

❁ ❁ ❁

(١) وانظر مزيداً من الشواهد في الصفحات التالية.

والرؤى الإيمانية التي ينشرها (الكيلاني) هاهنا وهناك، ترق وتشف حتى تخيل للقارئ أن الرجل يتكلم بلسان المتصوفة ومصطلحاتهم، وتنث من السحر والعذوبة حتى تغدو شعراً وموسيقا، فتمنحنا بهذا كله مواقف في الالتزام الفني تنساب إلى الوجدان دونما أي قدر من التكلف أو العناء...

(... مات أبي سعيداً كأقصى ما تكون السعادة، نظر إلي عند الموت بعينين دامعتين تشعان إيماناً نبيلاً وغمغم: ها أنت ترى يا ولدي أن كل شيء إلى زوال، وفي يوم من الأيام لابد أن نودع الدنيا... والمال... والأحباب. ونذهب إلى الحبيب الأعظم لنعيش في رحابه، أيمكن أن يضحي عاقل بأخراه من أجل دنياه الفانية؟ فلتملأ قلبك باليقين... وعش دائماً لله...

ونام أبي هادئاً، شاحب الوجه، ولحيته البيضاء كانت تقطر صفاء... احتبست أنفاسه اللاهثة فجأة ثم مات...

وكانت كلمات أبي الصادقة تتغلغل آنذاك في أعماق نفسي وترعش قلبي، كانت بسيطة قوية مؤثرة، ويومها صغرت الدنيا بكل ضخامتها في عيني... إن كل شيء إلى زوال، فلا معنى لأن يسقط الإنسان المؤمن صريع البريق والإغراء... وبعدها تكررت رحلاتي إلى الله... كنت أخرج في خضم القبائل الوثنية داعياً إلى الإيمان... أسلم على يدي خلق كثير... كانت سعادتي برجل يؤمن أعظم من كسب آلاف الجنيهات...) (ص ١٣ ـ ١٤).

❁ ❁ ❁

(... وشرد الشيخ ثم أغمض عينيه وهتف: حي... قيوم... علام الغيوب... إذا نزلت يا عثمان في أحراش اليوروبا وظلمات الإيبو

فابعث بكلمات الله في كل مكان، وادع البشر هناك إلى عبادة الواحد، وقل لهم كونوا إخوة وحطموا الأصنام الجديدة... أطلق كلماتك في الصحراء... في الغابات... في المناجم... ولا تخشَ إلا الله... وليس من المكتوب هروب... ولو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله لك...) (ص ٢٤).

(... ولاحظت أن شيخنا عبد الله يحدثنا دائماً عن الصبر، ويحاول أن يفسر لنا معناه الشامل المحيط، فليس الصبر كما يقول مجرد استسلام ورضا بالواقع، ولكنه فترة عمل وتفكير وتدبير دون تعجل جني الثمرة. وليس الصابرون كتلاً من الأحجار وتماثيل صماء، ولكنهم أولاً وأخيراً رجال مؤمنون يصمدون للعواصف، ولا تزعزعهم النكبات، أو تؤئسهم الكوارث، أو تنسيهم الاضطهادات الغاية الكبرى التي نذروا أنفسهم من أجلها، وكان يقول:

- عاش نوح عليه السلام يدعو بين قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً... ولم يكن الطوفان شراً، بل كان عملية تنقية للشوائب، وكان اختياراً... لم يرغم نوح أحداً على الركوب في سفينته... اختار الأشرار مصيرهم وهدى الله الأخيار إلى مصير آخر. وعندما قال الله ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] عندما حدث ذلك ولد مجتمع الصفوة الطاهرة التي تعرف حق الله...

قلت لشيخي في شيء من الضيق:

- ومتى يأتي الطوفان يا مولاي؟

- إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً.

(١) هود: ٤٤.

ـ أنصبر كما صبر نوح عليه السلام؟

ابتسم شيخي في رضا وقال:

ـ سبحانه وتعالى كل شيء عنده بمقدار!!) (ص ١٢٣ ـ ١٢٤).

❁ ❁ ❁

(... كأنما شحنني شيخي بزاد روحي لا ينفد فشعرت بأنني أستطيع أن أحقق المعجزات، وأفعل المستحيل، ونظرت إلى السجانين عن كثب وإلى الأسوار العالية الضخمة والأسلاك الشائكة، نظرت إلى ذلك كله فبدا لي تافهاً لا خوف منه ولا قيمة له، وتمتمت في يقين: إنه وحده القوي القاهر) (ص ١٣٨).

❁ ❁ ❁

(... ها نحن نلتقي يا حبيبتي ووراءنا طريق طويل من الأشواك والدماء، وأمامنا طريق آخر طويل لنبلغ الغاية... طريق لا شك تحفه المكاره الحربية والصراعات الفكرية والأفاعي الماكرة... لكننا بعون الله سننتصر... قلب المؤمن يا حبيبتي تعنو له الجبال وتطأطئ له القمم وينطلق في ظل الله لا يخاف وعداً أو وعيداً) (ص ١٧٨)[١].

❁ ❁ ❁

ولا ينسى الكيلاني أن يضع في روايته بعض الخطوط واللمسات عن المسألة الاجتماعية التي تؤرق الوجدان البشري، والتي يحسب لها الموقف الإسلامي ألف حساب...

(١) وانظر مزيداً من الشواهد في الصفحات التالية.

(قلت في شرود: قد آتي أنا بنفسي لأعيش في هذه الديار إلى الأبد. . .

سامحني الله فقد كنت في هذه اللحظات أتخيل (جاماكا) وقد أسلمت وتزوجتني، وأتت معي لترعى هؤلاء الشرفاء الفقراء في تلك المنطقة النائية على حافة الغابة العذراء) (ص ٧٤).

وثمة حوار يدور بين عثمان أمينو، وصديقه نور يحمل التعاطف نفسه مع الفقراء والبائسين والإيمان بقدرتهم على التغيير:

ـ إن الملايين التي تربو على الخمسين لن تستسلم لهذا الحيف.

قال وقد احتقن وجهه:

ـ الفقراء الجائعون لا يصنعون نصراً. . . أنت واهم.

قلت في حدة:

ـ إذاً أنت لا تعرف حقيقة شعبنا) (ص ٩٣).

وفي مكان آخر. . . يحلم البطل. . . بالمستقبل السعيد. . . السعادة التي لاتعرف للأنانية طعماً (عندما أخرج يا نور. . . فسأتزوجها وسأتعلم منها كيف أعطي الدواء بالمحاقين وكيف أعالج عيون المرمدين والمحمومين. . . وسنفتح بابنا لفقراء المسلمين الذين تزدريهم المستشفيات التبشيرية) (ص ١٠٤).

وهو ليس سوى تلميذ مخلص لشيخه الكبير عبد الله:

(وجيء بالطعام. . . ونظر إلي شيخي وقال وهو يبتسم:

أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. . . هكذا كان يقول يوسف يا أبنائي. . . وأنا اليوم صائم) (ص ١٢٦).

۞ ۞ ۞

ويمتد التزام (الكيلاني) في (عمالقة الشمال) إلى الطرف الآخر في الصراع... الجريمة والهدم والتخريب والاستغلال، لكي يفضح هذه المواقف ويعريها، ويمد يديه مشيراً إلى صانعيها، وصانعوها في الساحة النيجيرية، والإفريقية عموماً، هم الاستعمار والتبشير والصهيونية.

ويبدو أن تناوله لهذا الجانب ليس سواء في تركيبه الفني... فحيناً يجيء لمسات موحية غير مباشرة، مرسومة بعناية في خلفياتها المناسبة، وحيناً آخر سرداً تقريرياً وحملات نقدية قاسية أشبه بتلك التي تشنها الأقلام في ساحات الصحافة والإعلام...

(... *تخيلتها تخدم في مقر الراهبات، وتلتقط فتات موائد السادة الإنكليز وتتعلم الكلمات الإنكليزية، ثم تسقط بين ذراعي نذل... فوقفت وقلت: أرى أن نفترق...*) (ص ٢١).

فها هم المستعمرون الإنكليز يدنسون الشرف، ويطمسون على الضوء، ويثيرون الشك القاسي فيقتلون بذلك المحبة ويفرقون بين المحبين... والكيلاني يرسم هذا كله بكلماته القلائل تلك... ونتابع...

(*فتح الشيخ عينيه وتنهد ثم قال:*

- لم يعلموها من الدين إلا أن المسلمين في النار... وأن الرقص والشراب والإباحية هي المدنية، فهي مدنية خراب، صنعها فكر سقيم يبغي التدمير... الشرع يبيح زواجك منها لكن لا تنسى أن مسلمة خير منها ولو أعجبتك.

وشرب الشيخ جرعة ماء وقال:

- كفرة أوربة قد زرعوا في أرضنا الفتن... المبشرون لا يدعون إلى الله من أجل الله، أنت تدرك معنى كلامي... كان الأوربيون وراء كل الفتن والدماء التي أريقت) (ص ٢٣).

وفي مكان آخر يدور هذا الحوار:

(وعاد أحمدو بيللو يقول في دهشة:

- لست أدري ماذا يريدون؟

رد شيخي عبد الله قائلاً:

- الطمع.

همست:

- أجل.

وقال شيخي:

- يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم.

ثم نظر إلي أحمدو بيللو قائلاً:

- كلما نظرت إلى وجهك يا أمير المسلمين أرى ملامح شهيد يقترب من الجنة.

أضاء وجه الأمير وقال في سعادة:

- مرحباً... مرحباً... هذا يوم المنى...

الحقيقة أنني شعرت بضيق بالغ، فأنا أعرف أن الأيدي الأجنبية لن تترك نيجيريا تعيش في سلام، وفي نيجيريا ثروات هائلة وإمكانيات ضخمة، وفيها قوة إسلامية تخيفهم، إنكلترا لها أطماع، وأمريكا تتوثب للانقضاض، وفرنسا تأمل في جزء من الغنيمة... وإسرائيل تتسلل، بل ونجحت وأصبح لها خبراء للزراعة وتجفيف المستنقعات في الغرب... ولها شركة إنشاء وتعمير ضخمة اسمها (نيوجيرسال)... كل ذلك في الشرق والغرب، أما الشمال فلم يزل مغلقاً في وجهها.

وسمعت شيخي عبد الله:

ـ احذروا اليهود إنني أراهم هنا . . .

ضحك أحمدو بيللو وقال:

ـ أين هم؟ لن تطأ أقدامهم أرض الشمال ما دمت على قيد الحياة. . . ولسوف أحاول أن أضيق عليهم الخناق في الجنوب بالتفاهم مع الحكومات المحلية هناك. . . اليهود خطر داهم. . .

وأردف شيخي:

ـ إنهم هنا، أراهم في وجوه الكثيرين.

ـ تعني أنصارهم؟

ـ أجل يا أحمدو بيللو. . .) (ص ٢٨ ـ ٣٠).

. . . وقال أحمدو بيللو:

(المشكلة ليست مشكلة نيجيريا، ولكنها مشكلة الأمة الإسلامية كلها. . . لكي تبحثوا عن حل يريح نيجيريا يجب أن تنظروا إلى بعيد. . . إلى الثمانمئة مليون مسلم. . . القوة الجبارة التي تستطيع أن تغير وجه التاريخ وتعيد الحق إلى نصابه، فيسود الصفاء العالم وتختنق الثعابين وينحدر الظلام. . .) (ص ٣٠).

وتتوالى من ثم الشهادات. . .

(كان الأوربيون يسوقون أسراً بكاملها أمامهم كما تساق الأغنام ويحشرونهم في السفن القذرة أطفالاً ونساء وشيباً وشباناً، ويلقون بهم على شواطئ الدنيا الجديدة. . . أمريكا. . . عشرون مليوناً صدرتها إفريقية لأمريكا على أيدي التجار والقراصنة الأوربيين. . . أي عذاب

كان يقاسي منه هؤلاء التعساء، واليوم حلت البضائع والمواد الخام مكان العبيد... يصدرون البشر واليوم يصدرون جهود البشر، الإفريقي هنا أو في أمريكا يعمل ويعمل دائماً من أجلهم ومن أجل سماسرتهم، ولا يجني الإفريقي سوى القليل... المضحك أن أوربة حررت العبيد... نعم... لكن لماذا؟ التفسير الحقيقي شيء آخر غير ما يكتبه المؤرخون والمبشرون... لقد قضت بريطانيا على سوق العبيد حتى ترتفع أجور العمال في أمريكا وتقل الأيدي العاملة هناك فترتفع أسعار التكلفة.. فلا تستطيع أمريكا أن تنافس سلع أوربا... وكان شيخي دائماً يقول إنما الأعمال بالنيات... ما أسوأ نيات المستعمرين...) (ص ٣٦ ـ ٣٧).

❁ ❁ ❁

(... الدعاة هنا مطاردون... إنهم يصطدمون بعقبات لا يدري أحد من أين تنطلق... كثيرون منهم يبعدون أو يصرعون في الظلام، أو يحرمون من فرص الحياة أو يطردون من الوظائف تحت أسباب غريبة لا تمت إلى الحقيقة بصلة...) (ص ٤٣ ـ ٤٤).

❁ ❁ ❁

(... وسمعت (توم) يقول:

ـ كنت واثقاً أن تصرفات المسلمين في الشمال ستجر الوبال والحسرة... لست أدري لماذا لا تدعون كل إقليم من أقاليم نيجيريا يستقل بنفسه؟ لتكن الهوسا وحدها في الشمال... والإيبو وحدهم في الشرق... واليوروبا في الغرب.

صرخت في ضيق:

ـ كفى يا مستر توم.

ـ أنا الأب توم.

ـ إنك تسيء إلى أبناء الوطن الواحد... وتذكر أنك أتيت لتنشر دينك لا لتخطط لتمزيق الدولة إلى دويلات.

قهقه كشيطان، ورمى بالخبر الذي انقض كالصاعقة:

ـ لقد مات أحمدو بيللو!

هتفت أنا وعبد الرحيم في صوت واحد:

ـ ماذا!!

قال في بساطة فظة:

ـ قتله الثوار من الضباط في الشمال هو وزوجته، وبعد أن قتلوهما أحرقوهما بالنار... وقتل المئات من الضباط والرجال المسلمون...) (ص ٧٦ ـ ٧٧)[1].

❀ ❀ ❀

وعن التسلل اليهودي الماكر نطالع:

(... رد التحية بفتور، لشد ما يضايقني الاستقبال الخالي من الحرارة، قال بإنكليزية غير أصيلة:

ـ عرفت أنك هنا، كم رأساً معك؟

استغفرت الله، وأخذت أعطيه أرقام القطعان وحالتها العامة. قال بإيجاز وهو يجفف فمه بمنديل قاتم اللون:

(١) وانظر مزيداً من الشواهد في الصفحات التالية.

ـ بكم تبع؟

ـ أنت المشتري.

ـ حسناً... لا أعرف المساومة.

وكم كانت دهشتي عندما أخبرني بثمن بخس لم أتعود البيع به من قبل، فأبديت رفضي على الفور وأنا أكاد أصفعه، غير أني كنت متمالكاً تماماً لأعصابي. يجب أن يكون التاجر صبوراً متسامحاً، فقال وهو يزفر في ضيق:

ـ لن تجد ثمناً أكثر من ذلك.

ووجدتني أنصرف عنه، تركت مائدته ثائراً، وعدت أرتجف غيظاً إلى مكاني القديم. مال علي التاجر الأول الذي أرشدني عنه قائلاً:

ـ لا تتضايق.

ـ إنه غريب الشأن.

ـ هكذا دائماً اليهود.

صرخت في دهشة:

ـ أهو يهودي؟

ـ أجل... إسرائيلي محنك، وصاحب أكبر شركة لتجارة اللحوم.

قلت في إصرار والشرر يتطاير من عيني:

ـ لن أبيعها له ولو نفقت كلها وأكلتها الوحوش.

ـ ستجد مشقة بالغة في بيعها.

ـ ليكن... سأبيعها للجزارين.

ـ بالطبع... هذا أفضل، لكن قطعانك كثيرة، وستبذل جهداً كبيراً في المرور على الجزارين، أنت تحتاج لأكثر من خمسين جزاراً...) (ص ٤٠ ـ ٤١).

(... ولاغوس في الليل تنضح بخطايا كثيرة، وراءها يكمن المخطط الصهيوني... هذه أندية القمار، وتلك حانات الرقص والخمر، وهناك بيوت الدعارة، وللأسف كثير من التجار يغرقون في خضم هذه الموبقات وينزفون أرباحهم على مذبح الرذيلة، العدو يشتري ويبيع، لكن كل شيء يعود إلى جيبه...) (ص ٤٢).

❀ ❀ ❀

(... والمشكلة العويصة أن المدافع المضادة للطائرات كانت تشكل خطراً آخر، وعلمنا بطرقنا الخاصة أن بعض الخبراء الإسرائيليين، والذين كانوا قبل ذلك ضباطاً في الجيش الأمريكي، يوجهون العدو ويمدونه بالمشورة ويساعدونه في التخطيط...) (ص ١٧١)[1].

❀ ❀ ❀

إن (الكيلاني) في التزامه يعرف كيف يحقق التوازن المطلوب بين الفن والفكر... بين متطلبات الحبكة الروائية وتدفقها، ومنحنيات الموضوع وضروراته... إنه ـ باختصار ـ يعرف كيف يناغم بين الخاص والعام، فلا يطغى الخاص ويستأثر فيغدو العمل الفني ترفيهياً محضاً... ولا يمتد العام ويطول فيجعل العمل الفني منبراً للوعظ أو كرسياً مدرسياً... ولا يتسع المجال هنا لعرض شواهد أخرى في هذا الاتجاه، فضلاً عما عرضناه،

---

(١) وانظر مزيداً من الشواهد في الصفحات التالية.

ويمكن الاكتفاء بإحالة القارئ على نماذج من هذا التناغم بين الخاص والعام كواحد من أهم مرتكزات الالتزام الأكثر نضجاً... هذا إلى أن الرواية كلها تجيء شاهداً على هذا اللقاء...

٥

شخوص الرواية مرسومة بدقة بالغة، ملامحها متميزة على المستوى النفسي: طريقة التفكير، السلوك، التجربة الوجدانية... أما الشكل الخارجي فلم يشأ القاص أن يتحدث عنه لكي يستكمل الرسم ويمنح القارئ اقتناعاً أكبر... لماذا؟ لست أدري... ومع ذلك فإن الملامح المادية تبقى مجرد رداء خارجي... والمهم هو صميم التركيب الشخصاني لأبطال الرواية... الأعماق التي تصطرع وتتوحد وترفض وتريد...

عثمان أمينو... المسلم الواقعي... الداعية الذي يتحرق شوقاً من أجل عقيدته... الإنسان الذي تضطرب في أعماقه نداءات الفطرة في بعديها: الروح والجسد، وهو يكافح من أجل التوحد الذي علمه الإسلام إياه... ولم يشأ أن يستسلم للحظات التمزق... لم يتح لنفسه أن تفقد توازنها يوماً... ظل يكافح حتى النهاية... إلى أن تأتى له الانتصار على كافة جبهات النفس... وحبه لجاماكا لم يمل به صوب الجسدية... كما أن انتماءه العقيدي لم يدفعه إلى العزلة السالبة والترهبن والانزواء... على العكس، كان يجد دائماً أن مفتاح حركة المسلم في العالم هو التوحيد الذي يعرف كيف يضم جوانح الشخصية البشرية، ويستجيب لنداءاتها كافة وفق الحدود الطبيعية المرسومة لحركة الفطرة.

الشيخ عبد الله... رغم سمو تجربته الروحية التي تسلكه في عداد زعماء الحركات الصوفية فإنه يظل، وهو في القمة النورانية الشفيفة، ذلك الرجل الواقعي الفاعل في صميم الحادثة التاريخية... إنه يحب ويرفض... يفرح

ويتألم... يقاوم... بالفعل والكلمة... وينتهي به الأمر إلى السجن...
رجل في قلب الواقع، لكنه حتى وهو في أعماق سجنه، يظل ذلك المؤمن الحر من الخوف والحزن، والذي لا تتجاوز قيود السجانين كعب حذائه!!
وهو ينظر دائماً من خلال حريته تلك التي منحه إياها الإيمان العميق بالله، ينظر إلى المستقبل بثقة واطمئنان. إن الله مع عباده المؤمنين وليحدث الطوفان بعد هذا... إنه لن يدمر ويعمل في التاريخ عشوائياً لكنه سيغسل ويطهر ويفتح الأبواب الموصدة لكي تتدفق الأنهار النظيفة في مجاريها... إن الله مع عباده المؤمنين، ومن خلال هذه المعادلة، كان بمقدور الشيخ عبد الله والقلة المؤمنة معه أن تقف، لا بمواجهة الأعاصير التي اجتاحت عمالقة الشمال فحسب، ولكن بمواجهة العالم كله، ومن ثم كان عبد الله بمثابة الجزيرة الخضراء التي يتنادى إليها الخائفون والمحزونون والمطاردون، فيمنحهم البركة والثقة والأمل والسعادة والاطمئنان... إنه ليس بدعاً في تاريخ الإيمان الطويل، إنه واحد من أولئك المتصوفة الكبار، الربانيون لا الرهبانيون ـ كما يسميهم أبو الحسن الندوي ـ الذين صنعوا تاريخ الإسلام في إفريقية وفي مساحات واسعة أخرى من العالم... الشيخ عبد الله شخصية فنية مقنعة ومؤثرة... ونحن عندما نضعها جنباً إلى جنب مع شخصية عثمان أمينو، يتبين لنا كيف يصنع الإسلام الشخصيات المتنوعة... كيف يرسم الآفاق المتدرجة التي يعقب أحدها الآخر، ويمتد وراءه إلى المشارف البعيدة التي يمكن أن يرقى إليها المؤمنون يوماً... كيف يرفض الإسلام التشابهية الصماء والقطيعية البكماء بما أنه دعوة إلى الحرية!!

نور... ما أكثر ما نلتقي بنور في كل مكان نذهب إليه أو نتحرك فيه... إنه نموذج لموقف المسلم المتأرجح في قلق القرن العشرين وفوضاه وأعاصيره وعذابه... إن التوازن والصمود في مواجهة هذا كله لا يتأتى إلا للقلة التي ترفض الانحناء والتفكك في مواجهة المحنة، والتي مارست من

الجهد الشاق في (تمرين) قدراتها على المقاومة ما جعلها قديرة على الانتصار في المعادلة الصعبة... ونور لم يكن في هذا المستوى العالي... لقد ظل هناك في أسفل السفح يتأرجح بين السلب والإيجاب، ولم يقم بمحاولة جادة لوقف مأساة تأرجحه، فما لبث أن سقط في نهاية الأمر وداسته الأقدام... لماذا سمي بنور؟ لست أدري!!

أما جاماكا فإننا لنكاد نراها بأم أعيننا، امرأة تقودها المحبة إلى طريق النور... وإذا كان الشيخ عبد الله (يوازن) شخصية عثمان أمينو على طريق العقيدة والروح، فإن جاماكا توازنها على طريق الوجدان... إن فطرتها النقية لتتأبى على كل محاولات التزييف التي حاول (التبشير) أن يضيعها فيها... وبالمحبة تكسر الحلقة وتخرج معلنة انتماءها للدين الجديد، مسهمة بإيجابية ونشاط في صنع الأحداث وفق ما تستطيع أن تفعله في حدود وظائفها كأنثى... ثم ينتهي الكفاح القاسي على الطرفين... عثمان... وجاماكا... باللقاء الموعود، وهو لقاء يحمل شحنات رمزية موحية... إنه لقاء أبناء نيجيريا العذاب والمأساة والتمزق... لقاء الهوسا والإيبو تحت ظلال العقيدة السمحاء...

ثم... الأب توم... مبشر... ماكر... خبيث... شهدت الساحة الإفريقية ولا تزال المئات منه، بل الألوف منذ أن ابتليت بطلائع الاستعمار... هؤلاء... وهو لا يرتاح للمنافسة الحرة والمجابهة المكشوفة... إنه عندما تضيق به السبل مستعد أن يعتمد أي أسلوب لسحق خصومه؛ حتى لو اقتضاه اعتماد أكثرها دناءة وبعداً عن الشرف... وهو يتكئ في صراعه هذا على قوى الدول الكبرى التي ساقته إلى هناك... وهو يلوح بهذا، إذا اقتضى الأمر ووجد نفسه في حاجة إلى حماية... إلى ملاذ... إزاء زحف الإسلام الممتد ـ رغم الموانع ـ إلى كل اتجاه...

❁ ❁ ❁

هناك توازن ملحوظ في الحبكة الفنية للرواية بين السرد والحوار... وهو حوار مسرحي بمعنى الكلمة: التركيز والتوتر والصراع... وضمير المتحدث يخرج بنا، بشاعرية عذبة، من مقطع حواري إلى آخر... يفرش الخلفيات، ويصل بين المقاطع، ويسلط الأضواء على المساحات كافة... على السطح وفي الأعماق...

وثمة صور فنية أشبه باللوحات يرسمها لنا هذا المتحدث (الشاهد):

(دارت رأسي، كانت الحجرة خافتة الضوء، تراقصت الظلال على الجدران، الشياطين ترقص وتخرج ألسنة من لهب أحمر، وموسيقا إفريقية صاخبة تدق، وما زال رأسي يدور، وهي، خيل إلي أنها ترقص حول نار مجوسية، والجواهر المعلقة في جيدها وخصرها تبعث نغماً مجنوناً وهي ترتطم، وصرخت: مستحيل...) (ص ١٦).

❁ ❁ ❁

(وتطلعت إلى السماء توشحها السحب الذهبية، وبدا لي أن قطعة صغيرة من السحاب تضيء، ودققت البصر فيها، خيل إلي أنني أرى وجه (سعيدة) وهي تبتسم وسط ألسنة اللهب، ابتسامة صامدة... ذهبية الإشعاع... تنبض بالروعة والحب والتأبي على الفناء...) (ص ١٣٦).

❁ ❁ ❁

(ومشيت في المدينة أنظر إلى بيوتها وحوانيتها ومساجدها وكنائسها، وأتملى الناس في الشوارع في لهفة غريبة، وكأني مخلوق عائد من كوكب آخر، لكل شيء مذاق حلو تستشعره روحي... حتى الأغنام والجمال والجياد والحمير بدت لي مخلوقات لطيفة... روحي تحلق في كل الأنحاء وتسمو إلى السحب... وتتسلل داخل البيوت تعانق

الشيوخ والأطفال... وكل الكائنات... أية شفافية غريبة أهيم في رحابها برغم العنف الذي يمارس شريعة القصاص) (ص ١٤٢ ـ ١٤٣).

❀ ❀ ❀

(ووقفت أنتظر اللحظات الموعودة التي طال ترقبي لها، إنها لحظات قصيرة، لكنها ضخمة ضخامة العمر بما يهدر فيه من انفعالات وأشواق عارمة... الحب الحقيقي يهب الإنسان طاقة هائلة تسخر من الخوف ولا تكترث للمخاطر... وحينما رأيتها تقدم تحت ستار الليل، والقمر يسطع في الأفق الصافي، امتلأ بفيض من الأفراح لا يمكنني وصفها أو التعبير عنها... تراءت النجوم وأشباح الأشجار... والتلال... وفروع الأنهار الصغيرة... كأنها تغني وسط سيمفونية لا مثيل لها... وخيل إلي أني أسمع عبد الرحيم يترنم بأغنية الإيبو البارعة الفاتنة...) (ص ١٥٩).

❀ ❀ ❀

(الطريق من (كانوا) و (سوكوتا) إلى (إينوغو) عاصمة (بيافرا) الانفصالية، طريق وعر طويل شاق، على جانبيه أريقت دماء كثيرة، وسقط عدد من الشهداء وأصبحت الغابات مسرحاً للانفجارات العنيفة وطلقات الرصاص المستمرة، وكانت الطائرات تحلق في الأجواء حاملة الموت والدمار والدماء، وتنفث الدخان الأسود، وصمتت الأغنيات الشعبية الجميلة، أغنيات الحب والنماء والأمل والزهور والحصاد، ودقت في الأنحاء المارشات العسكرية المخيفة، وطبول الحرب يعلو عويلها المتحشرج المزعج، وعمالقة الشمال يتدفقون صوب الهدف...) (ص ١٧٠)[1].

❀ ❀ ❀

(١) وانظر مزيداً من الشواهد في الصفحات التالية.

ويمتد النفس الشاعري إلى الحوار نفسه فيذكرنا بروايات (نجيب محفوظ) في الستينيات: اللص والكلاب، السمان والخريف، الطريق، الشحاذ. . .

(طأطأت رأسي وقلت:

- بعد يومين سنرحل إلى الجنوب، ستستغرق الرحلة حوالي شهرين، سنبيع الأغنام ونشتري بضائع أخرى، وفي الطريق سندعو الوثنيين إلى الله. . . أنا داعية للإسلام قبل أن أكون تاجراً، وقال نور:

- رحلة ممتعة ولا شك. . . أنا في هذه الدنيا عابر سبيل أقطع الطريق قهراً. . . أمضي حيثما أجد لقمة العيش، لا أسد أذني عن سماع شيء، وأهتبل الفرصة، ولا أحرم نفسي من لذة فقد لا تتوفر لي إلا مرة. أمضي على الهامش دون ضجيج، أراقص الإيبو وأغني مع اليوروبا. . . وأغوص في مستنقعات المنطقة الشرقية، وأتوه في ظلام الغابات. . .) (ص ١٧).

❁ ❁ ❁

(وقال شيخي:

- انظروا إلى السماء. . . نحن في آخر الشهر العربي، والظلام دامس والنجوم تقاوم الظلمة. . . لكن لاتنسوا القمر. . . سوف يسطع عما قريب واذكروا أن بعد الليل نهاراً. . . هكذا الدنيا ولكنكم قوم تستعجلون.

- يا شيخي، الطغيان يتوطد والسفلة يسودون.

وابتسم وقال:

ـ عندما يعجز البشر تأتي سفينة نوح، وتنقض صاعقة مثل صاعقة ثمود... يا أبنائي ارفعوا راياتكم الخضراء واكتبوا عليها ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] (ص ١١٢).

❁ ❁ ❁

(والتفت إلي قائلاً:

ـ ألا تعرف طريق الحرية؟

ـ دائماً أريد أن أعرف يا شيخي.

التوحيد هو طريق الحرية... الله وحده هو حاكم هذا الكون وهو المتصرف فيه... ألا بذكر الله تطمئن القلوب... استغفر الله يا عثمان، وقم وتوضأ فقد آذنت الشمس بالمغيب، واقترب موعد الصلاة، وانظر إلى الأفق وهو يشيع الشمس، وتذكر ربك، وسبح باسمه بكرة وعشياً) (ص ١٣٦).

٦

إن المسلم المعاصر بحاجة إلى مزيد من الأعمال الروائية (الملتزمة) تقوده إلى آفاق جديدة أخرى من عالمنا الإسلامي الراهن، وتكشف أمام وعيه وعينيه، وبالأسلوب الأكثر تعبيراً وتأثيراً، ما يجري في ساحات هذا العالم من هزائم وانتصارات... وما يتحقق في جنباته الشاسعة من تدمير وبناء... وحيث لا يعرف المسلم عما يجري هنا وهناك إلا القليل... القليل.

من هنا تكسب روايات (الكيلاني) الإسلامية المعاصرة أهميتها... لقد قادتنا إحداها إلى تركستان، وقادتنا الأخرى إلى أندونيسيا، وها هي ثالثتها

(١) الروم: ٤٧.

تقودنا إلى نيجيريا... ومن منا يستطيع الادعاء بأن هذا الذي قصته علينا هذه الروايات كان معروفاً، بهذه الدرجة من التدفق، والكثافة، لدى الجميع[١]؟

إن هذه الروايات، فضلاً عن ذلك، تمنح الإحساس بوحدة الوجدان الإسلامي في العالم كله، في عصر التمزق والتفكك والتباعد، وتعيدنا، بعطائها السخي، إلى مقولة رسولنا ومعلمنا عليه السلام (إن المسلمين كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)...

وما أكثر الأعضاء التي تئن وتشتكي في هذا الجسد الجريح؛ والصوت الذي يمكن أن يسهم اليوم في أسماعنا هذه الشكوى ويجعلنا نحمّ من أجلها، لهو صوت جدير بالتقدير.

حقاً... فلعل حرارة الحمى تهزنا... ولعلها تطهرنا من جريمة (اللاكتراث) في الوقت نفسه!!

(١) يجب أن لاننسى هنا الجهود القيمة التي بذلها الأستاذ (محمود شاكر) في إخراج أبحاثه المعنونة بـ(مواطن الشعوب الإسلامية). وانظر كتاب (مأساتنا في إفريقية: وثائق من تاريخنا المعاصر) للمؤلف (مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٩٧٨).

تقديم لـ
(حدث في شارع الحرية)

في العالم الذي تضيع فيه القيم، وتتفكك العلاقات وتذوب... ويجد الإنسان نفسه يتحرك متأرجحاً على أرضية لزجة كالصابون... يغدو الفن عموماً، وفن القصة على وجه الخصوص، ضرورياً على شتى المستويات، باعتبار أن القصة تكنيك جمالي مؤثر لحكمة الحياة... ضرورياً على مستوى البحث عن القيم و تأكيد العلاقات، استعادة أو خلقاً... ما دام الموقف الشامل الذي منحنا الإسلام إياه يهبنا هذا القدر الكبير من حرية العمل على ضوء معالمه التي وضعها على جانبي الدرب البشري الطويل الذي لا يكف عن التمخض والتبدل والصيرورة.

وهو ضروري على مستوى (الأمل) الإنساني الذي يتوجب على الفنان أن يحفره في أعماق بني آدم كيلا يخنقهم اليأس، وتحاصرهم اللاجدوى من كل مكان!

ضروري على مستوى الرفض والغضب والثورة لدنيا تافهة يتحول المنتمون لها إلى حشرات أو ما يشبه الحشرات، يأكل بعضها بعضاً ويرهب بعضها بعضاً!

ضروري كذلك ـ بما أنه إبداع جمالي خالص ـ على مستوى فك الارتباط القاسي والمحزن بين الناس وبين ضروراتهم الدنيا ونزعاتهم

البراغماتية (العملية) المتزايدة، التي تطوقهم من كل مكان وتسوقهم، بقوة لا تقهر، إلى أن يتكاثروا بالأشياء، ويتكاثروا... ويتكاثروا، حتى تعوقهم الأشياء وتضع بين أحدهم والآخر الأسلاك الشائكة التي لا يمكن اختراقها بحال.

ثم هو ضروري ـ وهذا هو الأهم ـ لتحريك الناس في دنيانا... لهزهم من سباتهم القديم، لنفض الغبار المتراكم على قلوبهم وأفئدتهم... ونفخ النار التي تعرف كيف تحرق الكينونة وتطهرها في الوقت نفسه.

إن المسلم المعاصر بحاجة إلى هذا كله: القيم... الأمل... الرفض... التجاوز... والحركة...

وكم هو رائع ومدهش أن يمد الفنان يديه... أن يسهم، بشكل أو بآخر، في المساعدة على هذا العطاء... في منحنا النار التي تحرق... والوهج الذي يضيء!!

❁ ❁ ❁

إن إبراهيم عاصي، يعطينا في مجموعته القصصية الجديدة هذه (حدث في شارع الحرية)، بعضاً من هذا كله. فهو في (مركباتنا تدخل عصر الفضاء) يتحدث وفق أسلوب رمزي ـ إلى حد ما ـ عن حياتنا الراهنة... البطيئة... الرتيبة... الثقيلة. ويسخر، ويدفع قارئه إلى السخرية، من الدوافع الروتينية السخيفة التي تختم على حياتنا هذه بالثقل والرتابة في عصر أسرع فيه الناس في البلدان (الأخرى) إلى اجتياز الفضاء... ونحن مانزال نشم من خلال بول الشياه الذي يتسرب من أعلى المركبة الضيقة على رؤوس الجالسين رائحة العفن الذي يزكم الأنوف... وفساد الهواء الذي يسد الأنفاس، وكأنه عفن حياتنا كلها وفساد هوائها المسموم!!

وثمة عامل كادح من المختنقين يصرخ هناك: (إنهم لا يشعرون بشعورنا، إنهم لا يعنيهم أمرنا... كل واحد منهم عنده تكسي مثل العروس، تسابق الريح، وبعضها بلا لوحات... بلا جمارك... آه بس لو ينعصر أحدهم هكذا بيننا ولو مرة واحدة!!)

وتلك هي المشكلة. فما دام سائقو مركبات حياتنا الفاسدة هذه لا يعرفون ماالذي يجري في المركبات العتيقة، فإن هذه المركبات ستظل تعاني من البطء، والأطيط، والبول، وفساد الهواء... وسنظل نقطع المسافة بين مدينتي (أ) و (ب) بشهرين بدلاً من ساعتين! وسيظل ركابها المساكين ينتظرون أن يصلوا أماكنهم وهم يعانون من الاختناق... والحل الوحيد هو أن تتبدل المركبات والسواق!!

وإذا كنا في (مركباتنا تدخل عصر الفضاء) نحس بالاختناق، ونتلمس الطريق الصعب إلى الهواء الطلق... فإننا في (حادث في شارع الحرية) نحس بالخوف الذي يعرفه الجميع، ونمد أبصارنا ورؤانا وأعصابنا إلى اليوم الذي يسود فيه الأمن والحرية، تلك النعمة الإلهية الكبيرة... فلا تدق أبواب عند الفجر!! ولا تضع كل ذات حمل حملها رعباً وهلعاً... ولا ينتزع الابن من أمه وأبيه، ولا الزوج من صاحبته وبنيه... فتتفتت أكباد من الحزن وتدمى ظهور من السياط!!

إن صرخة (الأم) تظل تقرع أسماعنا بعد الانتهاء من قراءة القصة وهي تتوسل إلى رجل البوليس: (إيدي بزنارك، أنا داخلة على الله وعليك... يا ابني حرام عليك... حرام والله... مالك عرض؟! مالك أخت أو زوجة؟! اسمع... اسمع توجعها وأنينها!! دخيلك لا تنكبنا... دخيلك والله بتموت إذا رأتكم!! والأطفال، الأطفال الصغار يجنون!! خذوني أنا... أنا بدلاً منه... أما يجوز؟!).

ولكن أبصارنا وأعصابنا ستبقى مشدودة إلى يوم (الأمن) حيث يظل (المواطنون نائمين) فعلاً، كما يقول رجل البوليس وهو يطلب من الأم ألا تزعج بصراخها أحداً!!

وفي (زيجة فندقية)، التي يلمح فيها القارئ متانة الحبكة وشاعرية اللغة، مما لا يلمحه بهذه القوة في عدد آخر من القصص، نحس أن الفندق هو عاصمة ما من عواصمنا الكبرى... عواصمنا التي نقلت عن تقاليد الحياة الغربية، ونقلت... ونقلت؛ حتى فقدت وجهها العربي وقلبها المسلم..

ليس الشرف وحده هو الذي يضيع في هذه الفنادق الكبيرة، ولكن الإنسان نفسه... الرجل أو المرأة، الزوج أو الزوجة... وتختلط الأمور... ويتصل الرجال بغير زوجاتهم والزوجات بغير أزواجهن... وتحس أن هنالك خطراً كبيراً، ولكنه مجهول غير محدود... وتشعر أنه لا ضمان... ولو كنت تملك ذرة من شرف فإنك ستنكس رأسك خجلاً وخوفاً وإحساساً بالعار... وتتمنى لو تنشق الأرض فتلتهم هذه (العواصم) الضائعة، هذه الفنادق (المتغربة)... هذا التمدن الزائف الذي يأخذ فيه كل شيء مكانه إلا الإنسان وشرف الإنسان!!

إن الإحساس بالعار هو الذي يسيطر على القارئ عبر مقاطع القصة كلها ويدفعه إلى البحث عن الشرف القديم... الشرف العظيم... حيث يعرف الابن من هو أبوه، وحيث يدخل الزوج على زوجته في أحلى الليالي وهو مطمئن إلى أنها تحمل عذريتها وبكارتها!!

الاختناق في القصة الأولى، والخوف في الثانية، والعار في الثالثة، فما الذي يشهده الإنسان (في الطريق إلى العاصمة)؟

الاحتقار! إن (شريف بك) الذي كان يكيل الوعود للمسافرين معه، ويؤكد لهم قدرته على حل مشاكلهم جميعاً، أياً كان شكلها وحجمها، يتبين

في نهاية القصة أنه (مدير ناد ليلي للأرانب البرية)، وأنه يقدم هنالك (نمراً غربية وشرقية... حسناوات من كل القدود وتحت الطلب)... إنه إذاً (القواد) المعاصر في مدننا كبيرة، ذلك المفتاح الذي يدخل على كل الأبواب ولا يرد له طلب في عالم يحكمه (المال والخمرة والنساء)... ولكنه لن ينال من قبل الشرفاء... بقايا الشرفاء... في هذا العالم... إلا المقت والاحتقار... وتتمنى لو يكون (شريف بك) أمامك، اللحظة، لكي تبصق في وجهه!

أما (في الاعتزال) فأنت لا تملك إلا أن تضحك.. إن (إبراهيم عاصي) يعتمد هنا أسلوبه في (فن النكتة المكتوبة) الذي يعرفه القارئ جيداً في (ولهان والمتفرسون) و(همسة في أذن حواء)، وفي (سلة الرمان) إلى حد ما... وتبدو المقابلة الصاخبة بين هتافات الجماهير و(العندليب الأسمر) رائعة، ممتعة، باستمدادها التوافقي من مقاطع الأغنيات وعناوينها.. وتبدو المقابلة الصاخبة، ساخرة، قاسية، لأنها تعكس في الوقت نفسه ما يدور في الساحات الأخرى، ساحات الجد التي تتقرر فيها مصائرنا... حيث ترقص الجوقات هنا، كما ترقص هناك، وحيث لن يكون الهتاف والتصفيق والتهريج إلا غباراً كثيفاً يذره خصومنا في عيوننا لكي يمنعوا الرؤية ويصلوا بها إلى درجة الصفر!!

❀ ❀ ❀

هذه نماذج من قصص (عاصي) في مجموعته الجديدة، وهي، وبقية القصص، امتداد طبيعي لمجموعة (ولهان والمتفرسون) و (سلة الرمان) في (واقعيتها)، وفي روحها (النقدية) المتراوحة بين الجد والسخرية، والتي تميل بها صوب ساحة (الالتزام).. لكنه التزام ليس سواء، فحيناً يجيء عفوياً، متدفقاً، رائعاً، كما في معظم قصص المجموعة، وبخاصة

(مركباتنا...)و (زيجة فندقية) و (ضد الاعتزال) و (رحلة مع الجمال). وحيناً يأتي متكلفاً يقرب من (المباشرة) كما في (قصة رسالة) على سبيل المثال، برغم متانة لغتها.

هنالك محاولات في بناء الشكل القصصي تمنح المجموعة أصالة وتنوعاً، وتبعدها عن أن تسلك نسقاً رتيباً متشابهاً... فـ (قصة رسالة) تعتمد أسلوب الاعتراف، و (رحلة مع الجمال) تعتمد تقابل الشخصيات فتمنحها بعداً درامياً، و (مركباتنا...) (وزيجة فندقية) تعتمد أسلوب المسرح المركز في تكثيف الزمان والمكان، واعتمادهما كرموز للإشارة إلى العالم الأوسع... أما (ضد الاعتزال) فمكانها ـ فيما يبدو ـ ليس القصة وإنما المقال النقدي، وكان يحسن أن تلحق بـ (همسة في أذن حواء).

و(عاصي)، بعد، في مجموعته هذه، في حاجة إلى مزيد من (النفس الشعري)، المركز، العميق، الذي يمنح العمل القصصي النغمة التي تطرب القارئ، والتوتر الوجداني الذي يهزه... إننا نجدها لمسات بخيلة في (رحلة مع الجمال) و (زيجة فندقية) ولا شيء وراء ذاك، حيث تتسطح اللغة أحياناً، كما في (حدث في شارع الحرية) فتقرب من الحديث العادي، وحيث تتماسك وتعمق أحياناً أخرى، فتملك شدها الفني ومقدرتها التأثيرية.

ومهما يكن من أمر، فما دام حقل الأدب والفن الإسلامي بكراً بعد، فما أمس حاجتنا إلى مزيد من الأعمال والتجارب... وإلى عشرين (إبراهيم) آخر...

ولن يتعلم الإنسان إلا من (التجربة).




قاص آخر على الطريق

١

تعريف:

بدأت صفحات مجلة (الحضارة) تشهد قصصه القصيرة منذ أواخر الستينيات، يقطعها بين الحين والآخر قصائد بلغ بعضها حداً من الإبداع لا يسع المرء إزاءها إلا الإعجاب(١)... ثم يعود فيواصل كتابة قصصه القصيرة: طريق آخر ١٩٦٩، الأمير ١٩٧٠، الورق ١٩٧٠، ولما جن الليل ١٩٧٤، حينما تلتوي الدروب ١٩٧٤، النعجة الصماء ١٩٧٥، المرفأ، الأضحية، مرآة الضمير ١٩٧٦... ويلمح المرء من وراء هذا إصراراً على أن الرجل سيواصل (التعبير) من خلال هذا الأسلوب... ترى... هل سيكف عن كتابة الشعر ويتفرغ للقصة القصيرة كلية؟

يطالعك في قصصه أسلوب عربي متين، يمتاز ببيانه ووضوحه، في زمن الركاكة والألغاز، لولا بعض كلمات ومقاطع عامية تتخلل حواره هنا وهناك... وتطالعك واقعية مشربة بقليل من اللمسات الرومانسية، لكن (الموقف) الأساسي يظل بعد هذا واقعياً صرفاً، حيث تبدو (القرية) وأبناؤها أرضية لمعظم قصصه ينطلق أبطالها من هناك، مأسورين في نطاق القرية

---

(١) من هذه القصائد: الشراع والموج(عدد ١ـ٢ سنة ١٢) واتقوا الله (عدد ٥ سنة ١٥) ربنا وتقبل دعاء (عدد ٧ سنة ١٥) المرايا (عدد ٩ سنة ١٥) في الغدو والآصال (عدد ١ سنة ١٦) قل لها يانفس (عدد ٢ سنة ١٦) عشاق الفجر (عدد ٨ سنة ١٦).

حيناً، مدفوعين إلى مجرى الحياة المتدفق الصاخب في المدينة حيناً آخر، ولكنهم يظلون يحملون نفساً قروياً أقرب إلى براءة الحياة الأولى وبساطتها ونقائها.

الحبكة جيدة، فيها اقتصاد في اللغة وتكثيف للموقف فلا يدعه - إلا قليلاً - يتسع ويتشعب، فيتميع ويفقد تماسكه... القصة القصيرة شيء غير الرواية والقصة الطويلة... إنها أقرب أشكال التعبير الفني إلى المسرح... فهو الآخر، بدون تركيز الموقف واقتصاد الكلمات، يفقد قدرته التأثيرية ويبهت، فيميل إلى أن يكون (صورة) أكثر منه (صراعاً)!!

لكن ما يلزم (محمود مفلح) هو المزيد من العناية بالعقدة، أن يجعلها أكثر تشويقاً للقراء وشداً لاهتمامهم... أن يهندس حركة أبطاله وفق خرائط وممرات أكثر تعقيداً وغموضاً، وأبعد عن الوضوح والتكشف الذي يحدس فيه القارئ ما سيقع بعد لحظة أو لحظات... إن العقدة الأكثر إبداعاً هي تلك التي تحجب النهايات عن تخميناته مهما كان ذكياً قديراً على التنبؤ، تلك التي تجعله يركض مبهور الأنفاس، لكي يطلع، بصبر فارغ، على الموقف الذي ستنحل فيه العقدة وتتضح المصائر.

من أول ضربة في العمل القصصي القصير يتوجب أن تفرض العقدة نفسها على القارئ، وتظل جاثمة على وعيه الظاهر والباطن وهو يتابع السطور تلو السطور، فلا تكف عنه إلا وقد منحته الجواب... الجواب الذي يستحسن أن يظل بيد الفنان، يختار اللحظة المناسبة لتقديمه... لا أن يمتلكه القارئ منذ اللحظات الأولى، فإذا ماجاء لم يهتز له ولم يفرح به.

لكن هذا لا يحجب أن (محمود مفلح) استطاع في عدد من قصصه أن يبني مواقف أبطاله على العقد الصعبة إلى حد ما، وأن يمنح هذه القصص طعماً ألذ وأطيب، ولا يحجب - كذلك - أنه في عدد من قصصه كان يسوق

حركة البناء الفني بحيث تخدم الهدف فلا تشذ ولا تنحرف، وإنما تصب كلماته وتعابيره في المجرى العام، المتوحد، الذي يشق طريقه نحو المصب، حيث تتمزق البراقع، وتتكشف المصائر، و تنبني القيم والمبادئ التي تتجاوز حدود الزمان والمكان.

وما لنا لا نأتي إلى نماذج من قصصه نفسها لكي تحدثنا بنفسها عن الأبيض والأسود من معطيات الرجل؟ في قصة (ولما جن الليل) يحلم البطل بابنة عمه القروية البريئة.. لكن مرضاً خبيثاً سرعان ما يكتسح صحته وعافيته وقدرته على العمل والكسب... ويعود بعد رحلة صراع طويلة مع اليأس والشك والتردد، إلى القرية البعيدة (لعله يجد قرب ابنة عمه بعض العزاء وشيئاً من السلوى. ولعل حديثها البسيط الخجول يمسح الجرح الذي تركته أيام المرض على جبينه الأسمر الملتهب) لكن كلمات الأب تجيء لكي تقطع عليه الطريق بصوت كالسكين (ليس لك عندنا بنات، واعلم أنها لا تريدك).

وكثيرون هم أولئك الذين قطعت عليهم كلمات الآباء أمانيهم وأحلامهم بمن يحبون... منذ مأساة قيس بن الملوح مع ليلى مروراً بروميو وجولييت وحتى العديد من المعطيات الحديثة... ولكن مواقف الأبطال المأزومين كانت تختلف دائماً... فقيس يسلم نفسه للجنون، وروميو للانتحار، أما بطلنا فإنه في فورة غضب عاتية يقرر قتل الأب وإنفاذ مشيئته بالزواج.

لكنه في فجر اليوم التالي، وهو ينطلق إلى دار الأب يحمل شيئاً أخفاه تحت معطفه، يسمع (صوت المؤذن يشق السكينة، يدعو الناس إلى صلاة الفجر) وكان صوت الشيطان ـ بالمقابل ـ يقود البطل إلى (بركة من دم كان قد صمم على تفجيرها) لكن الصوت الأول ينتصر على الثاني في نهاية الأمر (كان... ما يزال قوياً يبدد ما تراكم من الظلام في أعماقه ويفرشها

بأشعة خضراء فنكص على عقبيه، وهو يطارد شبح الجريمة من مكان إلى مكان بانتظار شمس الصباح).

يفرش (أعماقه) بأشعة خضراء...

تلك صورة شاعرية مؤثرة تكاد كلماتها تمنحنا المعنى والضوء.. وإننا نقرأ، قبل ذلك، هذا التعبير (يداعب خياله الحلم الجميل كوردة رفعت رأسها بين الثلوج) ونقرأ (وتلك هي أعراف الريف الذي يرى نفسه سنبلة في حقله وقطرة من ينبوعه)... إن الرؤية الشعرية هنا تمتد حتى لتجعل البطل ـ الإنسان ـ يندمج في قلب الطبيعة، ويذوب في كينونة العالم، سنبلة في حقله وقطرة من ينبوعه.

إن قدرات القاص الشعرية هي ولا ريب المعين الذي يمنحه القدرة على شحن قصصه، وتكوينها بهذه التعابير التي تخرجها من إطار واقعيتها الباهظة الصرفة إلى سموات الشفافية والذوبان والصفاء...

وهو يعتمد المنولوج الداخلي، أي حوار البطل مع نفسه، لا سيما في المقاطع الأخيرة من القصة... لكي يطلعنا ـ بالضرورة ـ على ما يجري في نفس البطل، ويسير بالحدث على مرأى منا، إلى نهايته...

ثمة شيء من المباشرة يرتطم بها القارئ في المقاطع الأخيرة حيث تحول البطل عن رغبته في القتل... المباشرة التي تضعف في العمل الفني تدفقه الذاتي وتخلقه الحر، والتي تكاد تختفي في عدد من قصصه الأخرى...

في قصة (حينما تلتوي الدروب) نلتقي بأم فلسطينية مسحوقة بالتغرب والفقر والزمن... تنتظر عند مغيب أحد الأيام عودة ابنها (الخائب) الذي جاوز الخمسين دون أن يقدم على الزواج، والذي أكلت الخمرة والتسكع

روحه وجسده، ورغم ذلك فهي تنتظره وتقلق عليه، وهو من جهته يحبها إلى درجة الالتصاق، إلى الحد الذي رفض فيه أن يصدق معه واقعة موت أمه أمام عينيه، ورفض ـ بالتالي ـ أن يستلها المشيعون من بين يديه لكي يواروها التراب. . . لكنه اضطر أخيراً أن يجري وراءهم وهو يترنح (وقد جحظت عيناه، وغطى شعره الطويل نصف وجهه الأعلى، يهذي بكلماته لكنه لايدري مايقول ولا يسلك إلا الدروب الضيقة المتعرجة. . .).

هل إن القاص أراد أن يقول لنا ـ بالمقابل ـ إن حباً تائهاً كهذا لن يعيد للفلسطيني أمه الحبيبة، وإن تسيباً وانتحاراً ذاتياً كهذا سوف يدفعه دوماً إلى الدروب الملتوية التي لن تصل به إلى هدفه؟ هل إنه أراد أن يقول لنا ـ كذلك ـ إن فلسطين الأم لن تموت أبداً ما دام أن هناك فلسطينيين آخرين، وهم الأكثر والأقوى آثروا أن يلتزموا، وأن يتحركوا على الطريق المستقيم. . . أن يموتوا عبر هذا الطريق. . . بدلاً من التسكع والضياع في الطرق الملتوية لكي يكونوا جديرين بالعودة إلى أمهم من الهلاك وحمايتها، ومنحها الخلود؟!

ربما. . . ولكن الذي نستطيع أن نجزم به هو أن قاصاً جاداً يحترم عقيدته وفنه لايمكن إلا أن يفرد المكان الأوسع والأرحب في معطياته لقضيتنا الأساسية قضيتنا الأم. . . فلسطين. . .

في هذه القصة، كما في غيرها، تضرب الفرشاة بين الحين والحين لكي تمنحنا صورة ملونة أو تعبيراً شعرياً (. . . كانت الشمس ـ يقول القاص ـ زورقاً أصفر صغيراً ينساب قليلاً قليلاً في الأفق الغربي. . . بعد قليل سيطوي شراعه ويغيب. . .).

وفي هذه القصة ـ كما في غيرها ـ نلتقي بمقاطع من الحوار العامي الممزوج بالفصحى، حبذا لو يستبدل كله بفصحانا وحدها. . . فصحانا الجميلة الشاعرة التي يتذوقها العالم والمثقف، ويهتز لها العامل والفلاح. . .

أما (مرآة الضمير) فإنها تحمل عنواناً كاريكاتيرياً ساخراً... إن الطبيب الذي يتوجب أن يكون، في مواقفه جميعاً، انعكاساً للضمير البشري، للإنسانية ـ كما يقولون ـ يتحول في هذه القصة إلى تاجر لايعرف ذرة من إنسانية، ومحترف لا يملك ضميراً... إنها مرآة صدئه إذاً... لا تعكس إلا نقيض كل ماهو إنساني وكل ماهو من بداهات الضمير... إن (مرآة الضمير) تذكرنا بكثير من قصص إبراهيم عاصي[1] الذي برع فيما يمكن تسميته بالقصة ـ الكاريكاتير، التي تعرف كيف تمسك بمشرط النقد الفنان، فترسم صور التناقضات المخزية في حياتنا الاجتماعية المكتظة بالتناقضات، وتجسم جوانب هذا التناقض وفق المنظور الكاريكاتيري؛ من أجل أن تطلعنا على حقيقة ما يجري بوضوح صارخ... أكثر من هذا... من أجل أن تجعلنا نتحرك بسرعة لكي نوقف المهزلة، أو على الأقل، نقف بأعمالنا وتصرفاتنا ومواقفنا في الطرف النقيض الآخر...

والقصة تعتمد ضمير المتكلم ونسمعه يقول (وأنا أذكر أنه ـ أي الطبيب ـ قد وقف في يوم من الأيام يمد يده مقسماً أنه سوف يؤدي رسالته الإنسانية وواجبه الاجتماعي على أتم وجه).

ويحدث وأن يضطر المتحدث إلى مراجعة صديقه الذي تخصص بجراحة العيون... كانت هنالك في صالة الانتظار ست لوحات معلقة على الجدران بعناية فائقة، ومؤطرة بشكل ينم عن ذوق رفيع، تنطق بأمراض العيون جميعاً (فاللوحة الأولى تصور عينين واسعتين صافيتين أعطبهما رمد خبيث، والثانية لوحة تبعث على الألم حقاً وهي تصور أسوأ حالات الحول الذي يغتال الطفولة في أجمل وأغلى ما تملك، وتتعاقب اللوحات، واحدة بعد أخرى، تستعرض أمراض العيون...)، لكنه ما يلبث أن يجد فوق باب غرفة

(١) انظر (ولهان والمتفرسون) و(حدث في شارع الحرية) للأخ إبراهيم عاصي.

الطبيب (لوحة سوداء صغيرة ذات إطار ذهبي كتب عليها بخط أبيض نافر أسعار المعاينة: في العيادة ٢٠ في المنزل ٥٠ ل.س).

على حين غفلة يمرق إلى داخل الصالة رجلان، أحدهما مصاب في عينه اليسرى إصابة خطيرة، ويقول مرافقه (المسكين (عتال) كان عائداً من عمله فأصابه حجر في عينه)... كان الأمر يقتضي علاجاً سريعاً، وكان الرجل (يصرخ متلوياً كأنه ألسنة النيران تصهر المشاعر). لكن سكرتيرة الطبيب لا تسمح، وفق تعليمات سيدها الصارمة، بإدخال مريض إلا بعد دفع الأجور مقدماً... ومرافق الرجل الذي تبرع بإيصاله إلى العيادة يتوسل إليها ـ دون جدوى ـ أن تدخله إلى الطبيب (يا أختي هذا رجل عتال فقير... وهو لا يملك شيئاً).

(كانت قطرات الدم المتساقطة من العين اليسرى تتجمع فوق البلاط على شكل بقعة حمراء تتفرع عنها خيوط دقيقة زحفت حتى لامست بعض الأحذية. وما إن أبصرت (السكرتيرة) ذلك حتى انطلقت تصرخ: يا سيد قد اتسخ البلاط بدم صاحبك، إما أن تدفع الكشفية أو دبر راسك)...

وأخيراً وبعد حوار مؤثر، أطل الطبيب من باب غرفته (بقامته الممتلئة المترهلة، ونظارته الخضراء كثيرة الدوائر، وقال بكلمات جافة ممطوطة ذات نبرة مترفة وسبابته تشير إلى العجوز المصاب كأنها تشير إلى جرذ يموت: إلى الوطني، إلى المستشفى الوطني، خذوه إلى الوطني... وأدار كتفيه صافقاً من خلفه الباب)...

إن القصة عموماً تتبنى (موقفاً) اجتماعياً: رفض لأخلاقية الترف المرذولة، ودعوة لإنصاف الكادحين والمسحوقين وحمايتهم ضد النوازل التي افترست ولا تزال الألوف والملايين... ومن أحرى من الفنان المسلم بالتزام هذا الموقف العقيدي، الموقف الأخلاقي الذي لا ينحرف عنه إلا

مهزوز الذمة صدئ الضمير؟! من أحرى من الفنان المسلم، مادام الإسلام نفسه كان وما يزال، صرخة بوجه الترف والطغيان، واحتضاناً لكل الناس الذين يريد الطغاة والمترفون أن يفترسوا وجودهم لكي يأكلوا لقمة أكبر ويشربوا كأساً أكثر!؟؟!

منذ اللحظات الأولى لنزول القرآن العظيم وهو يصب حملاته التي يتساقط منها الشرر ضد الطواغيت والمترفين... وأدباؤنا وفنانونا ينسحبون من الميدان الأخطر والأهم تاركين المبادرة (لغيرهم) لكي يشدوا إليهم المظلومين وهم دائماً الأكبر والأوسع، ويسوقوهم إلى مصائر لم يكن المظلومون أنفسهم ليريدوها أو يتمنون الذهاب إليها.

(كانت المدينة تحزم أمتعتها ـ والصيف في أوج غليانه ـ لتتسلق سفوح الجبال القريبة وتطل منها على بحر من الخضرة لاتحدها شواطئ... حرم منه أولئك الذين لا يستطيعون الصعود...) وفي مكان آخر يقول: (أنا أعلم أن أمواج الغلاء ترتفع يوماً بعد يوم حتى بلغت أفواه الفقراء وقذفت بهم على أرصفة الجوع والموت، الفقراء الذين كان يقال لهم أنهم كانوا يعيشون على الزيت والبصل، أما الآن ـ يا للشوق ـ أين منهم الزيت والبصل)؟!

ولا ينسى القاص هنا أن يلمس بفرشاته هذا الجانب أو ذاك من القصة فيمنحها ألواناً وتكوينات رومانسية حلوة المذاق (... وترى من هناك كيف كانت الشمس تطبع أولى قبلاتها على الأشجار والصخور وأجنحة العصافير، وكيف عند المساء كانت تمحو آثار تلك القبلات برفق ليهبط الليل فيكتحل الوجود بسحر حلال...). (كان المطر وابلاً كأن زخاته موسيقا غجرية تبعث في النفس رهبة ونشوة...).

في (المرفأ) نجد عملاً فنياً أمتن حبكة وأعمق تأثيرية وأكثر نضجاً... قصة شاب من القرية يغادرها لإكمال دراسته الجامعية في المدينة... يخاف

أهله على نقائه... وهو نفسه يخشى ضياعه أكثر من أهله... قصة مألوفة أليس كذلك؟

لكن ما يمنحها الجدة والخصوصية تلك الصور والتعابير التي تلامس تجربة البطل من الداخل وتمنحنا رؤياه... تجربة كل أولئك الذين غادروا قراهم البريئة إلى المدينة، حيث يتوجب الصراع (وهذا ما يعطي القصة توتراً أكثر)... ورؤية كل الذين تأرجحوا طويلاً قبل أن يقرروا الصمود للمحنة أو الانجراف مع التيار...

يقول البطل محاوراً نفسه (أنا سمكة صغيرة قادمة من نهر ريفي، عصفور خجول طار عن شجرة قروية ليحط فوق هذا الأتون) وما تلبث المدينة أن تتكشف له عن (بحر هائج تغرق فيه سفن كثيرة، السمك الكبير في أعماقه يأكل الصغير، غير أن البحر لا يخلو من الخلجان المأمونة...) فالإنسان الذي يحمل إيمانه بين جنبيه لا يعدم أن يجد، في قلب الحيرة والقلق والصراع، جزراً خضراء يأوي إليها، لا فراراً من العالم، ولكن تزوداً بالوقود الذي يمكنه من اجتياز العالم ببطولة أكبر، بل من حرقه وتدميره إذا اقتضى الأمر، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، من أجل أن يصنع عالماً سعيداً... جميلاً...

وهو (يعيش في قلب المدينة، ذرة في بحرها... وصوت خافت يتلاشى في ضجيجها، لقد بدت في عينيه امرأة مشغولة بأصباغها نهاراً ومواعيدها ليلاً، امرأة تتفلت لتخرج من بيتها إلا من إلى حيث لاتدري... صراخها الحاد كالسكين في أذنيه... أطلق الدم حاراً في شرايينه...)...

ولا يسع المرء إلا أن يمضي مع (الصورة النموذج) للمدينة، التي هي في الوقت نفسه رمز مكثف لمأساة حضارتنا المعاصرة بآليتها العملاقة وروحها القزم...(حتى وجوه الناس تبدو وكأنها القروش الممسوحة)... حقاً إن

الناس في المدن الكبيرة ليفقدون تميزهم وخصوصيتهم، وينضاف بعضهم إلى بعض كأرقام لتحقيق قفزة كمية في معطيات مدينتهم، لكنها ليست نوعية على أية حال، فالقروش الممسوخة تمنح ذهباً ولكنها لاتهب تعبيراً. . .

و(ليس في هذه المدينة سوى أرجل تسرع وصدور تعبر) وإن القارئ لا يستطيع إلا أن يتذكر هنا صورة الناس في مدينة نيويورك ـ مع الفارق طبعاً ـ وكما يصفها رحالة مصري، هو أنيس منصور في (رحلة حول العالم) حيث الناس يهرعون لايدرون إلى أين، لا أحد يعرف أحداً ولا يسأل أحد عن أحد. . . الكل يركضون (أرجل تسرع وصدور تعبر) يالها من صورة تتجاوز إطار السكون إلى الحركة التي نكاد نلمسها بأعيننا ونبصرها بأيدينا!!

(حتى أصوات الباعة هنا كأنها أبواق السيارات، لعل حناجرهم هي الأخرى قد صنعت من النحاس) مرة أخرى نتذكر الرحالة المصري في نيويورك، حيث يغدو الإنسان شريط تسجيل ميكانيكي ليس إلا: (وعندما خرجت وجدت نفس الرجل. . . ذلك الإعلان المتحرك يعرض أسماء عدد من الفنادق المريحة. . . أو المطاعم التي يمكنني أن أتناول فيها غذائي في اليوم التالي. وقد زاد من قرفي حماسه الشديد. ولا أعرف بالضبط ما الذي أغاظني فيه؟ ربما كانت آليته، أي تحوله إلى آلة، إلى شريط مسجل. . . إلى شيء ليس فيه إنسانية. . .).

وفي البحر الهائج ثمة مرافئ. . . في عالم الخوف والتمزق والحيرة، ثمة الأمان والتواجد والسكينة. . . قبالة عالم المادية الثقيل المبهظ يقف عالم الإيمان النوراني الشفاف. . . تجاه التحلل والتفكك والهبوط، تلتمع النظافة والتماسك والطهر. . . ولا أروع من (المئذنة) رمز مؤثر لهذا كله، يختاره القاص من بين ملايين الرموز لكي يقفنا أمامها وهي تمتد عالية شامخة، متحدية الخوف والمادية والتفكك والهبوط. . .

إن البحر لايخلو من الخلجان المأمونة (قالها وقد لمع شيء في عينيه، شيء كأنه البرق، كأنه الحلم، كأنه لحظة نيوتن عندما سقطت تفاحته... مد بصره عبر النافذة الزجاجية... كانت مئذنة المسجد القريب شامخة، شاهقة، مغسولة بوهج المساء، تعكس أحزمة من الذهب اللامع، ثمة أعداد من السنونو تحوم فوقها سابحة، مجنحة، غاطسة... ابتسم وهو يردد: ما أروعك وأنت تشمخين هكذا فوق العمارات وسكانها وفوق الضجيج والصفير، فوق الأرصفة والراكضين عليها، وفوق الجدران وما تحمله... في هذه اللحظة تماماً انفتحت كوة في جسم المئذنة وانطلقت منها خيول جامحة فوقها رايات خضراء، الخيول تسرع في كل اتجاه، الرايات مغروسة في أطراف الأرض وحول الرايات تتدفق الينابيع، وتسمو الأشجار ذات الثمار الثقيلة الناضجة...)..

إن القاص يعتمد هنا ما فاته في بعض قصصه الأخرى: تيار الوعي والتداعي.. تداعي الصور والأخيلة والأفكار التي كثيراً ما يلجأ إليها القصاصون المعاصرون. إنه تكنيك فني مؤثر يمنح القصة بعداً جديداً، ويعطيها طعماً شهياً. إن على الفنان أن يخترق - بين الحين والحين - جدار المنظور ويتجاوز مسلمات المكان والزمان... أن تندمج في الصورة الواحدة والموقف الواحد واللحظة الواحدة أحداث وتجارب وصور ومواقف تخلقت في أزمان وأماكن شتى... وأن يعرضها علينا وقد تكسرت فيها عقارب الساعة ومقياس الكيلومترات... أن يصوغها بأبعادها الجديدة غير أبعادها المألوفة طولاً وعرضاً وارتفاعاً... بعبارة أخرى أن يجردها من هذه الأبعاد... أن يقوم بتعريتها وصولاً إلى البعد الأهم والأخطر... البعد الرابع الذي لا يلمس ولا يرى إلا بالعين الأخرى: عين الفنان، وعيون أولئك الذين يعرفون كيف يتعاملون مع لغة الفن...

وأحرى بالفنان المسلم أن يتجاوز منطق المنظور والمسموع... أن يكسر جدار الواقع الأصم إلى ما وراء... إلى الآفاق البعيدة... وليس

صوت الفن الإسلامي سوى ذلك النداء الشفاف الذي يدعونا للتحرك صوب الآفاق البعيدة مع التركيز البالغ الملتزم المسؤول بكل ما هو واقعي يومي منظور، إذ كيف يقدر المؤمن على التحرك صوب الآفاق البعيدة إن لم ينطلق أساساً من عالم أفضل، عالم غير عفن ولا مفكك ولا منخور؟

إن التداعي ـ إذا صح التعبير ـ هو تجميع للأصوات المتنافرة المتناقضة، كما تبدو إذا ماعوملت منفردة كلاً على حدة... ولكنها إذا تهيأت لها اليد الفنانة التي تعرف كيف تحس، والأذن التي تعرف كيف تسمع، والعين التي تعرف كيف تنظر وترى... فإنها ستخرجها لنا في وحدة نغمية توافقية (هارمونية) تهز الوجدان...

إن ملحاً لذيذ الطعم نتذوقه في (المرفأ)، لم نجده بهذه الكثافة في القصص الأخرى... وأحرى بمحمود مفلح أن يطعم واقعيته بين الحين والحين بحفنات من هذا الملح!!



تقديم

في متابعة أية مجموعة قصصية يتوجب البحث عن العام والخاص... عن الوحدة والتنوع... وإذا كان العثور على الخاص المتنوع سهلاً، لأن تجربة القصة القصيرة هي في جوهرها إبداع بهذا الاتجاه... فإن وضع اليد على الخط الشامل الذي يمتد إلى المجموعة كلها... الخيط الذي يسلك حباتها في نسق معين... يغدو أمراً صعباً، لا سيما في مراحل البدايات حيث لايكون الفنان قد أعطى ـ بعد ـ كل ما عنده، وحيث لم يكن قد تجاوز مرحلة (الاختبارية) بحثاً عن الصيغ الفنية الأكثر ديمومة وإقناعاً وتماسكاً ووضوحاً..

ومع ذلك فثمة المضامين التي تصدر عن الرؤية المتوحدة، وتقودنا إلى (الوحدة) التي تندرج في آفاقها الرحبة كافة الخصوصيات والتنوعات...

ورؤية (محمود مفلح)، دون ريب، تنسحب على أقاصيصه جميعاً لكي ترفدها بالقيم والمضامين التي تصدر عن إسلاميته كفنان ملتزم... ولكنها إذ تبعد حيناً فتغيب عن العيان المباشر لكي تومض من بعيد فتمنحنا نفسها بلغة الفن التي تشف عما وراءها دون أن تكشف عنه النقاب، فتزيده حضوراً وجدانياً وقدرة تأثيرية هما ـ في نهاية التحليل ـ قاعدة كل فن... إذ تبعد حيناً بهذا الاتجاه، تقترب حيناً آخر فتكشف عن نفسها أمام عياننا المباشر فتفقد حضورها الوجداني وتأثيراتها، وتتحول إلى حقائق مجردة قد تخدم علماً أو تاريخاً، ولكنها لا تصنع فناً!!

ومن منا لم يتأرجح بين المباشر وغير المباشر في معطياته الفنية؟ من يجرؤ على هذا الادعاء؟ أكثر من هذا... إن كبار الأدباء والفنانين (الملتزمين) في العالم لم ينجوا بجلدهم من مأساة هذا التأرجح... إنها في الحقيقة مأساة الإنسان ونسيجه... فما دام الإنسان فكراً وروحاً... جسداً وعاطفة... عقلاً ووجداناً، فإنه سيظل نهباً لهذه الحركة ذات اليمين وذات الشمال... وعبقرية الدين ـ إن صح التعبير ـ هي في قدرته على تحقيق التوحد المرتجى بين القطبين... ترى... أيكون بمقدور الفن يوماً التحقق بتوحد كهذا في مجال عالمه الخاص؟

مهما يكن من أمر... فإن المضامين، على تفاوت طرائق التعامل الفني معها، تعيننا على اكتشاف الوحدة التي تكمن وراء مجموعة من عشر قصص أو عشرين... فما شأن (التقنية): لغة وحبكة وحواراً وشخوصاً واتجاهاً فنياً؟

هل ثمة ما يربطها جميعاً... أم إن كل واحدة منها تنحو نحوها الخاص، وتتخلق كلاً في رحمها؟

هاهنا نستطيع أن نتلمس ونرى تيارين في مجرى المجموعة كلها. . . التوافق والتنافر. . . التوافق حيث تتحرك القصص جميعاً، أو تسعى أن تتحرك، وفق تقنية متوحدة متماسكة، من أجل أن يكون الفنان هو هو في كل قصة من قصصه على مستوى التركيب الفني كذلك. . .

الواقعية هنا وهنالك، واللغة الجزلة التي تخترقها بين الحين والحين لمسات شاعرية ندية في هذه القصة وتلك. . . والحوار الدرامي المركز، والشخوص المرسومة بعناية هنا وهناك. . . والحبكة التي تنسج خيوط العمل الفني بدقة وإحكام لكي تصل بحركة النول إلى غايتها في القصص جميعاً. . .

لكن محمود مفلح، رغم جهده للتحقق بهذا الوفاق في قصصه لم ينج هاهنا وهناك. . . في هذه القصة أو تلك، من خروج على النغمة التوافقية (الهارمونية) لمجموعته كلها. . . خروج قد يمس الحبكة حيناً فتفقد أول ما تفقد (عقدتها)، وماذا تصبح القصة القصيرة إذا ما فقدت عقدتها غير سرد يشبه أن يكون مقالاً؟ وقد يمس اللغة والحوار فيصيبهما إصابات بالغة بالتسطح حيناً وبحشر كلمات وتعابير وتراكيب جملية (عامية) ليس ثمة ضرورة لها على الإطلاق. . . قد يكون له اجتهاده في هذا المجال، وقد يحتج بأن المستوى الثقافي والاجتماعي لشخصياته الفنية يحتم عليه ألا يجعلها تتكلم إلا بما يتفق ومستواها ذاك. . . ولكنها حجة قديمة. . . غير مقنعة. . . أليس كذلك؟ لأننا نعثر على الكثير من الأعمال القصصية العالمية والعربية يدور فيها الحوار بين شخوص من بيئات اختلفت حظوظها ومواقعها في الثقافة والمجتمع، ولكن لغة الحوار ظلت على مستواها العالي. . . ولم يقل أحد أن هذا يمثل ازدواجية في الأداء وتجاوزاً للصدق الفني في التعبير. . . لأن اللغة أداة يحتال بها الفنان لنقل عالم أبطاله الخاص إلى القارئ أو السامع، وهذا العالم يمكن أن يعرض علينا نفسه بمفردات

وتراكيب اللغة اليومية، ويمكن كذلك أن يعتمد أكثر الأساليب بعداً عن الاستخدام اليومي... فالنتيجة هي أننا، بهذه الحيلة الفنية، نكتشف عالم الآخرين، ونتمتع في الوقت نفسه بجمال الأداء الفني...

والفن هو ـ بشكل من الأشكال ـ حيلة لتحقيق التواصل بين التجربة والإنسان وفق طرائق هي غير الطرائق الواقعية اليومية الصرفة... ويوم أن ينسى الفن هذه الحقيقة لا يغدو فناً، ولكنه يغدو عملاً صحفياً...

فماذا بشأن الشخوص والاتجاه الفني؟

في إحدى رسائله يقول محمود مفلح: (إنه في مجموعته هذه سيكون أكثر توغلاً في لحم الواقع...)... ولقد كان حقاً وفياً لمقولته تلك... صادقاً مع رغبته...

أشخاصه اختيروا من قلب الواقع... من القرية والشارع والبيت والمدرسة... والمناخ الفني الذي تحركوا فيه واقعي صرف... و(الواقعية) هي واحدة من الملامح (العامة) التي تمسك المجموعة كلها وتمنحها أرضيتها المتوحدة...

هل ثمة ما يمنع أن يكون الفنان المسلم واقعياً؟ بالعكس... إن عليه أن يعايش الواقع وأن يحكي لنا عنه بلغته الخاصة... فالإسلام دين الواقعية... والمسلم رجل (ديناميكي) يتحرك في قلب الواقع حريصاً على حماية قيمه الإنسانية والدفاع عنها... جاهداً ـ في الوقت نفسه ـ من أجل تدمير وقلب سائر المواضعات والأعراف والممارسات التي تنتزع من الإنسان آدميته التي منحه الله إياها...

ولكن هناك، كما هو الحال بصدد الكثير من المواقف والرؤى (خطأ) ما يمارس باسم الواقعية وفد إلينا من آداب الغرب ونظرياته النقدية، ما كان

لنا أن نقع في شباكه... ذلك هو الالتصاق الكامل بالوقائع الصغيرة والإخلاد إلى الأرض... ليس هذا فحسب، ولكنهم انحرفوا باتجاه البدائل (المرضية) في الحياة والمجتمع... وقفوا عندها طويلاً والتصقوا بها وقالوا: إن الواقعية تحتم عليهم أن يقفوا هنا... هنا بالذات... فكأن الفن أصبح على أيديهم عرضاً مستديماً للقيء الذي تفرزه معدة عالمنا المريض.

إن الفنان المسلم، قبل غيره من الفنانين، يتوجب عليه أن يتمرد على هذه الرؤية المنقوصة للواقعية...

أن يتحدث عن الواقع... نعم... ولكن عليه ـ في الوقت نفسه ـ أن يتجاوز المياومات المحدودة إلى التجارب الأبعد مدى في مجرى الواقع الفسيح... أن يعبر الجسد إلى الروح... والتراب إلى الحركة... والطبيعة إلى ما وراءها... والغريزة إلى الوجدان... فهو حيثما مضى إنما يتحرك ـ وفق منطوقه الإسلامي ـ في دائرة الواقع... ولكنه الواقع الذي يند عن الجحور الضيقة التي يختنق فيها الإنسان المعاصر وفنه على السواء... ويوم أن قال الفاتحون وهم يكتسحون العالم: جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها... ما كانوا (رومانسيين) وما جاوزوا الواقع المشهود... لقد كانوا يتحركون في صميم الواقع... وكانت منحتهم الكبرى للإنسان هي إخراجه من دنياه الضيقة إلى الآفاق الرحبة... وكان الجهاد ـ بهذا المعنى ـ عملاً تاريخياً... أي سعياً في صميم الواقع زماناً ومكاناً...

لقد اختار مفلح (الواقعية) أرضية لمجموعته القصصية هذه... ويبدو أنه وقع ـ بشكل ما ـ تحت تأثير تكوينه الشعري، فاندفع إلى الطرف النقيض الآخر لا يلوي على شيء، خوفاً من أن يسوقه الشعر إلى توظيف القصة من أجل مطالبه الغنائية... هذه الثنائية التي حكمت الكثير من الفنانين والأدباء

فجعلتهم يتأرجحون ذات اليمين وذات الشمال في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال التي تميزت بالعنف والحدة. . . ريثما استقرت بهم التجربة ـ بعد عناء طويل ـ على حال من التوحد الذي يعرف كيف يخلط النسب الفنية في مزيج لوني رائع، وكيف يناغم بين الأصوات المتنافرة في لحن توافقي باهر. . . ولن يستطيع أحد أن يحكم على الفنان من تجاربه الأولى. . . ولا بد من الانتظار. . . شرط أن يكون الزمن في خدمة الفنان، وأن يعدنا بالعطاء. . .

إن آثار الصراع بينة في معطيات مفلح التي بين يدي القارئ، فهو يرجع إلى الشعر حيناً ويهرب منه أحياناً. . . وهاهنا في محاولة الهروب هذه تزداد كثافة الواقعية، فتجاوز حدها المعقول، وتتسطح اللغة حتى تكاد تغدو حديثاً يومياً. . .

إنه ليسع المرء أن يكون معه حيث يرفض تحول القصة إلى عرض غنائي صرف. . . ولكنه لن يسعه أن يكون معه عندما يبالغ في تجريد (اللغة) من رموزها وإيحاءاتها. . . من معطياتها اللامباشرة التي تمثل عنصراً أصيلاً في التركيب الفني للقصص القصيرة وللرواية على السواء. . .

إن الالتزام الفني ليمثل ولا ريب ضغطاً على الفنان، بهذا الاتجاه أو ذاك، لأنه يحتم عليه سياقاً معيناً في المضامين. . . وإن هنالك حيلة فنية يمكن أن يعتمدها الفنان لتحمل هذا الضغط وتحويله إلى تيار من الإبداع الفائق. . . تلك هي عدم التشنج على مذهب فني واحد في الأداء، ومحاولة الإفادة من معطيات المذاهب الفنية كافة: كلاسيكية جديدة ورومانسية وواقعية وطبيعية وتعبيرية ورمزية وسريالية وميتافيزيقية ومستقبلية. . . أن يتحرر من الالتصاق بمذهب فني بعينه، وأن يتنقل بينها بانتقاء موزون كيلا يفقد عمله الفني تناسبه الجمالي المطلوب. . .

ولم لا؟ مادام أن المذهب الفني هو مجرد أداة للتعبير، قد ترتبط بالمضامين حيناً وقد تنفصل عنها حيناً... إنها بمرور الوقت، وبتجاوزها مرحلة الارتباط بالبدايات تغدو أكثر حيادية وقدرة على التوظف لخدمة أي فكر وأي مضمون..

فماذا لو اعتمد الفنان المسلم تيار الوعي الخاص المتدفق في عالم أبطاله الداخلي، متجاوزاً مقاييس الزمن والمكان والشكل الخارجي للشخصية، كما يدعو رواد مدرسة (الرواية الجديدة)؟ ماذا لو توغل في صميم العقل الباطن... في الحلم... كما يفعل السرياليون؟ ماذا لو تجاوز الواقع إلى المستقبل والطبيعة إلى ما وراءها كما يفعل الميتافيزيقيون والمستقبليون؟ ماذا لو اعتمد قدرات اللغة العربية الفذة ومفرداتها الموحية المرنة للتكنية (غير المباشرة) عن المعاني والأشياء حيناً، وللتعبير عن المناخ النفسي أو المادي للوقائع حيناً آخر كما يفعل الرمزيون والتعبيريون؟.. ثم ماذا لو توغل في صميم الواقع... في سدى نسيجه ولحمته، مخترقاً ثقله وشده بلمسات وجدانية ندية كما يفعل الواقعيون والرومانسيون؟

ألم ينفذ مفلح في عدد من قصصه قدراً من هذا التحرر فأغنى واقعيته بمعطيات رومانسية، دون أن يخرج على قواعد العمل الفني ومطالبه؟ فلماذا لا يمضي، هو وغيره، من أدبائنا خطوات أخرى صوب الأمام فيكونون أكثر حرية، وأشد قدرة على الاختيار الواعي البصير لأدوات العمل الإبداعي، وتوظيفها من أجل المضامين والقيم والرؤى؛ التي جاؤوا لكي يبشروا بها بين الناس بلغة الفن؟

إن مهمة الفنان المسلم أن يطرح مضامينه الكبيرة بأكبر قدر من (التأثيرية). ولا عليه بعد ذلك أن يعتمد هذا المذهب أو ذاك ما دامت أنها ـ مرة أخرى ـ مجرد أدوات للتعبير والتواصل الفني... وما دامت أنها

ـ كذلك ـ تراثاً بشرياً مشتركاً، وليست حكراً على هذه الحضارة أو تلك . . . ولا إرثاً جغرافياً لهذه البقعة أو تلك . . .

لا نذهب إلى النهاية مع (آلان روب جرييه) رائد مدرسة (الرواية الجديدة) التي تدعو إلى إلغاء وجود الزمن في العمل القصصي، وتفكيك سلسلة الأحداث، وإلغاء الشخصيات واستبدالها بأخرى لا تملك أسماء ولا وجوهاً . . . ولا ماضياً ولا حاضراً ولا مستقبلاً . . . وتصفية العقدة والحبكة . . . إلى آخره . . . ولكننا في الوقت نفسه نرفض التشبث التقليدي بالرؤية الفنية أحادية الجانب التي تعتمد مذهباً محدداً تنسج على نوله.

❁ ❁ ❁

وما لنا ألا نرجع إلى بعض من قصص صاحبنا لكي نتعرف على ملامحها قبل أن ندلف إليها لنقرأها معاً؟

(في الطريق إلى العملية) تكرار، بشكل ما، لقصة (مرآة الضمير)[١] . . مأساة المرضى المعدمين في بلادنا . . . وإذا كان الطبيب الذي أقسم اليمين على أداء أمانة المهنة يسلم مريضه إلى العمى في القصة الأولى . . . فإن الدولة (بيروقراطيتها) ـ بعبارة أخرى ـ هي التي تسوق مواطنيها المرضى إلى حتوفهم . . .

(. . . راجع عصام سعيد . . . المسؤول في مكتب الدخول

ـ آسف يا سيد ليس عندنا سرير شاغر.

ـ ولكن هذا بأمر الطبيب المختص!؟

ـ إنه مختص بالفحص والمعاينة وليس بإدخال المرضى إلى الأجنحة . . . هذه وظيفتي.

---

(١) سبق الحديث عنهما في بداية هذه الصفحات.

- ولكن المريض يموت... وحاله تستدعي العلاج السريع!!

ابتسم ابتسامة صفراء كسيحة:

- لا أحد يموت حتى يأتي أجله... ثم أحب أن أطمئنك بأن الأمراض البولية لا تستدعي الخوف.

- ولكن...

- يا أخي لا تطل الجدال، لا يوجد في جناح البولية سوى ثلاثة عشر سريراً، ومن المستحيل أن يفرغ سرير قبل أسبوع، هذا إذا كان حظك حسناً، عفواً أقصد المريض.

- والحل؟

- بيد الله يا أخي.

تهالكت على أقرب مقعد في غرفة الانتظار، وأحسست أن عقلي توقف، وأن كل خلية في جسدي لم تعد تعمل بانتظام...

أمسكت بالصحيفة الملقاة أمامي، قرأت عناوينها البارزة دون اكتراث (تم إنجاز أكبر صالة للفنون الشعبية بتكلفة قدرها أربعة ملايين ليرة).

كان عمي آنذاك يصرخ، ويشتم ويتلوى، وبصعوبة بالغة أقنعت الرؤوس المستطلعة أنه يهذي فقط...)

والمريض - في حقيقة الأمر - ليس فقط ذلك الذي يعاني من حصر البول ولا يجد من يطلق سراحه قبل أن يتسمم ويموت... المريض هو كل مواطن يعاني من مشكلة ما... من استعصائها على الحل... ولا يجد في جهاز الدولة من يعينه عليه... المواطن هو الضحية في كل الأحوال... يقتله الطبيب أو يسحقه الموظف الكبير... ومن ثم فإن الواقعية في هذه القصة تتجاوز إطارها المشهود لكي تمنحنا (الرمز) الذي يزيد العمل الفني غنى وامتداداً...

(ذات يوم مطير)... صورة مؤثرة (لرجل) من المغرب... واحد من جيل الرواد الذين قاتلوا الاستعمار الفرنسي بسلاحهم وكلماتهم وسلوكهم اليومي على السواء... ويبحث القارئ عبر هذه (الترجمة) المكثفة عن مطالب القصة وضروراتها الفنية فلا يكاد يعثر عليها... لكنه يعثر على شيء آخر... قد لا يقل أهمية: حرارة الحوار بين ضمير المتحدث القادم من فلسطين... وبين الرجل المغربي... وثمة شيء آخر... اللمسات الرومانسية المعبقة بالشعر... والتي عودنا مفلح عليها بين الحين والحين:

(... كان المطر غزيراً، وكان الشارع الأسفلتي يزداد لمعاناً، وكانت الاشجار تنث على الأرض حبات كبيرة من المطر الربيعي اللامع، عندها وقفت أجيل الفكر في أعماق الأشياء لعله يرى مالا يرى البصر من جمال هذا الكون وجلاله... أشرعت نوافذ النفس والوجدان لتيار الحب المقدس العظيم، واشتعلت خواطري، وعلى البرك الصغيرة المتراقصة أمام المسجد الكبير كانت ترتسم صورة الأحبة في الشرق...).

لكن أهم ما في القصة أنها تضعنا أمام تقابل مؤثر في المكان والزمان: المغرب وفلسطين... الشيخ الذي أدى دوره والشاب الذي ينتظر... والأرضية التي يرتسم عليها هذا التقابل هي هذا الدين العظيم الذي أكرمنا به الله... شعلة الإيمان المقدس بالدور الخالد يتسلمها الأبناء عن الآباء... يمضون بالشوط في مشارق الأرض ومغاربها...

ورغم التوجيه الفكري الصارم في (القرار)... رغم اعتمادها (موضوعاً) كثر النسج على منواله، فإن قوة شخصية الزوجة وقدرتها على الثبات في موقعها المضيء إزاء الظلمة العفنة التي كان زوجها يتمرغ فيها... والنهاية الندية للصراع القاسي بين الطرفين... تمنح القصة طعماً طيباً (... أغلق كوة الأسئلة بإحكام، على حين بدا ينسج قراراً حاسماً... كالسيف يلمع

في أحشاء الظلام... نظر إلى كوثر، تشابكت النظرات بحنان، رفت على الشفاه ابتسامتان صافيتان، فامتلأت الحجرة نجوماً صغيرة، وسنابل هدى وتوبة وإيماناً).

في قصة (والعصر...) يرثي القاص - أغلب الظن - ابنته ميسون... ولا يملك القارئ إزاء الصدق المتدفق في كلماته، والدفء الذي يمتد إلى لحظتي الفرح والحزن، إلا أن يتقلب هو الآخر بين الحزن والفرح... قصة واحدة من البراعم الصغيرة التي تتفتق منتشية على ضفاف نهر الحياة المتدفق... ثم ما تلبث أن تذوي... وتموت... ويبدو أن القاص لم يشأ أن يتعذب طويلاً، فاختزل لحظات الموت اختزالاً لا يكاد (يتناسب) مع المدى الطويل الذي منحه وهو يتحدث عن لحظات الحياة... وتنتهي القصة وصاحبها (... ما يزال يجلس خلف مكتبه كالتمثال يتساءل كيف غابت ميسون... وشريط ذكرياته معها يكر ويكر...)...

ونجد في (الأرض) إضاءة جديدة عن معطيات العمل الفدائي... إن البطل هاهنا لا يذهب لكي يقطف رؤوس بني إسرائيل ولكن ليسترد بعضاً من الثروة التي سرقوها... (... ولولا ذلك الفجر لظلت القرية غافية في سبات عميق لا تدري شيئاً... ذلك الفجر عندما استيقظت على أحمد ووجهه يقابل وجه الشمس يسوق قطيعاً من البقر الفلسطيني الذي كان محتلاً!

وهل تنسى القرية كلها طعم اللحم الطازج طوال أسبوع كامل؟ من يومها فقط انكشف سر أحمد، وبدأت القرية تضطرب بحديث البقر المجلوب).

ولغة القصة مسطحة أكثر مما يجب... لولا عبارة أو عبارتين (... قبل أن يرتد الصدى كانوا يهبطون السفوح الغربية متابعين الخطو في عمق الأرض، ليزرعوا في رحم الليل بذور النهار)... ولولا مقاطع من الشعر

الغنائي منحتها طعماً عذباً... وثمة تفاوت شاسع بين اللغة هنا وبينها في (الدراجة) و (رسالة من مدريد) اللتين تعيدانا إلى المغرب كرة أخرى، واللتين يحاول فيهما القاص أن يكون أكثر توغلاً في صميم الظواهر والأشياء...

لن نطيل على القارئ بمزيد من التفاصيل والأحكام... ولندعه يمارس هو الآخر تعاملاً مباشراً مع المجموعة التي بين يديه، والتي نرجو أن تعقبها أعمال أخرى... على الدرب الطويل... وإننا بانتظار المزيد من الثمار...




فهرس الموضوعات